
ساحر الكتب
وليد فكري
تاريخ
في الظِّل
الطبعة 2
للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الثوار... والسياسيين... إلى الشعب... والنخبة المزعومة...
إلى الإخوان والسلفيين والليبراليين واليساريين واللامنتمين...
إلى أصحاب القرار وأصحاب الأقلام وأصحاب برامج الفضائيات...
إلى كل من يتعامل مع الثورة باعتبار أنها فقرة الساحر!
إلى كل من يصنعون التاريخ... من شاب يكتب تاريخ الثورة المصرية ويشعر بالتزامه برواية وتفسير كل ما بها من عجائب مضحكة ومبكية للأجيال القادمة...
أنتم تصنعون التاريخ... والعبد لله المسكين يكتبه... فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

وليـد



المقدمة

عندما صارحتُ بعض من أثق بآراءهم من أصدقائي برغبتي ممارسة الكتابة التاريخية لم أستغرب حالة الدهشة -وربما الاستنكار- التي أبداها بعضهم، باعتبار أن شابًا يكتب في مجال يعتبره البعض "عواجيزي" كالتاريخ هي بدعة ما أنزل الله بها علينا من سلطان، وفق تفكير الكثيرين!

لكن الحمد لله لم يكن للجميع مثل هذا الرأي فمن بين أقرب أصدقاء لي في هذا العالم وجدتُ من يشجعونني على المضي قدمًا في المجال الذي أحبه بغض النظر عن أية حسابات أخرى يغلب عليها الطابع التجاري، فضلًا عن أني أصلًا شخص شديد العناد ينفذ ما يريد بدون تردد طالما اقتنع به بعد أن أوفاه حقه من التفكير... وقد كان...

ففي أواخر شهر يناير 2009 نشرت لي مجلة "بص وطل" الإلكترونية أول مقالاتي في مجال التاريخ، ثم توالت المقالات بشكل أسبوعي من خلال الباب الذي حمل اسم "تاريخ شكل تاني"... وكان د.أحمد الشامي-رئيس تحرير "بص وطل" يتابعني بالتوجيه والنصح فيما يخص تطوير الأسلوب وتقديم المعلومة واجتذاب القارئ مما ساعدني على تقديم المقال التاريخي للقارئ بمستوى آمل أن يستحق متابعة كتاباتي بشكل منتظم.. والحمد لله، لاقت المقالات حماسًا من القراء الذين كان جديدًا عليهم أن يروا مقالًا تاريخيًا يكتبه شاب مثلهم بشكل أردتُ -وقد وفقني الله لذلك- أن يخرج من دائرة الكتابة الأكاديمية الجامدة التي وإن كنت لا أنكر أهميتها إلا أنها تقف أحيانًا حاجزًا صلبًا بين الشباب وإطلاعهم المطلوب على تاريخهم...

شجعني هذا على تجميع تلك المقالات في كتاب حمل نفس اسم الباب "تاريخ شكل تاني" وتفضل أستاذي وصديقي الرائع د.أحمد خالد توفيق بكتابة مقدمته محملًا إياي-



بكرمه المعهود- مزيدًا من أفضال هذا الإنسان الفذ عليَّ... وبفضل الله قد حقق الكتاب أعلى المراكز من حيث المبيعات في كبريات المكتبات كمكتبات الشروق وديوان- وفقًا لتقرير جريدة الشروق- خاصة بعد أن قام الصديق العزيز بلال فضل باستضافتي واستعراض الكتاب في حلقتين من برنامجه "عصير الكتب"...

وكان هذا ما شجعني على تجميع الدفعة التالية من مقالاتي التاريخية السابق نشرها في "بص وطل" في كتابي هذا تحت عنوان "تاريخ في الظل"...

****

لماذا "تاريخ في الظل"؟ من يتابعونني يعرفون كم يمثل لي تدهور مستوى قراءة التاريخ بين الشباب مشكلة وأزمة حقيقية! فأنا اعتبر التاريخ -بدون مبالغة- مسألة تمس أمننا القومي حيث ترتبط به كل العناصر الثقافية والاجتماعية والسياسية والنفسية المكوِّنة معًا للإنسان المصري، وأي عبث بهذا التاريخ أو تلاعب به هو أشبه بالتلاعب بالجينات أو ربما أكثر خطورة... لهذا تهتم الدول الكبرى بتاريخها وتصونه لا باعتباره مجرد تراث أو "حواديت" بل باعتباره من الأسس التي تقوم عليها الدولة... فالدولة -كما درست بكلية الحقوق- مكوَّنة من ثلاث عناصر: شعب - أرض- سلطة حاكمة... وإن كانت تلك الأخيرة متغيِّرة فإن العنصرين الأول والثاني -الشعب والأرض- دائمان والرابط بينهما هو التاريخ... على هذا الأساس ينبغي أن ننظر لتاريخنا...

"تاريخ في الظل" هو اسم قصدت به أن أشير لأن حال التاريخ في مجتمعنا قد صار كحال "الرجل البركة"... وهو الرجل العجوز صاحب الأمجاد الذي يكتفي أهله وجيرانه بوضع مقعد له في الظل، ومن حين لآخر يتبادلون رواية قصصه وعجائبه على سبيل التسلية، وإن مر بهم غريب وسألهم عن هذا الرجل أجابوه بفخر بقصص وروايات عن عظمة هذا العجوز وروائع أحواله في قديم زمانه... أما في باقي الأوقات فهم ينسونه ويكتفون بالاطمئنان أنه لم يمت في جلسته الأبدية التي حبسوه فيها دون أن يجرِّبوا أن يفسحوا له مجالًا لممارسة الحياة علهم يتعلمون منه ما يكررون به أمجاده...

هكذا التاريخ... حبيس ظل شديد العتمة بين الأكاديمية المفرطة الباردة الخالية من

المشاعر، والتفاهة التي تتعامل مع التاريخ باعتباره "طرائف للتسلية"، أو -عفوًا للتعبير- "النصب" باسمه من نظام يريد توطيد أركانه بخلق مواطنين مدجنين فيسقيهم تاريخًا من كتابته وتأليفه منذ الصغر في المناهج الدراسية...

وغضبًا على هذا الوضع المهين لتاريخنا ولنا كشعب كتبتُ المقالات التي يحتويها هذا الكتاب، كتبتها تحديدًا في العام الأخير من حكم المخلوع مبارك مسلطًا الضوء على جوانب منسية ومهجورة من المحتوى التاريخي للوطن والأمة بل والعالم كله، ومنوهًا بشكل صريح أن هذا المحتوى التاريخي ضحية جريمة "متعمدة" من النظام الذي لم أكن أعرف وقت كتابتي هذه المقالات أني بعد أسابيع قليلة سأكون من أول الخارجين للهتاف ضده والمناداة بسقوطه يوم 25 يناير 2011 في مظاهرة بدأت صغيرة بمنطقة سيدي بشر بالإسكندرية ثم تحولت إلى واحدة من عشرات المظاهرات المماثلة التي خرجت على مستوى مصر، بدأت ببضع مئات لتتحول لمسيرات حاشدة وصولاً للمليونيات بعد ذلك...

****

حسنًا... قامت إذن الثورة -ومع احترامي لكل الآراء- فإنها لم تنتهي بعد... فالنظام الذي هتفنا بسقوطه ليس مجرد أفراد ومؤسسات بل هو قيم وأفكار تسللت عبر عقود من الفساد السياسي والمجتمعي إلى كل ركن وكل فرد، والثورة ليست مجرد تغيير إدارة حاكمة واستبدالها بأخرى بل هي خروج كامل من حال سيىء إلى حال نرجو الله أن يوفقنا أن يكون مما يليق ببلد كمصر... وأمور كالانتخابات وانتقال السلطة وتأسيس الجمهورية الثانية... إلخ... ليست من قبيل "نهاية التاريخ" بل هي مجرد بداية نحن فيها ملزمون أن ننظر في تاريخنا بتعمق وتدقيق لو أن لنا نية جادة في كتابة مستقبلنا كما نريده لا كما يريده لنا من كتبوا لنا التاريخ الأسود الذي عشناه لعدة عقود مضت...

****

أعتذر إن كنتُ قد أطلتُ المقدمة، أنا نفسي لا أحب المقدمات الطويلة -واعترف



أني كثيرًا ما أفوّتها دون قراءة- ولكني رأيتُ أن من حق القارئ قبل أن يقرأ هذا الكتاب أن يعرف ظروف كتابته لعل هذا يساعده على تكوين فكرته عنه بعد قراءته التي آمل أن يوفقني الله أن تضيف بعضًا من "وضوح الرؤية" للقارئ العزيز...

تحياتي

وليد فكري

الإسكندرية 7 يوليو 2012



الاسم الكامل: إنسان



(١)

"الاسم الكامل: إنسان...

الشعب الطيِّب... والديَّ".

(الشاعر محجوب شريف)

حوار بين شباب على مقهى التجارية – محطة الرمل – الإسكندرية:

"أغلب سكان مصر من المسلمين وكل سكانها يتحدثون العربية، ألا يجعلها هذا إسلامية عربية؟ ثم قل لي بالله عليك، هل من رابطة أقوى من الدين – رابطة الإنسان بربه – لنتخذه هوية لنا إلى جوار هوية اللغة؟".

وضعت كوب القهوة جانبًا وسألته بحذر: "أنتَ إذن تتفق مع الرأي الغريب القائل بأن من الأفضل أن يحكم مصر ماليزي مسلم عن أن يحكمها قبطي مسيحي؟"

"سبحان الله! أقول لك مصر إسلامية، تقول لي يحكمها قبطي؟!"

تأملتُ لحيته الصغيرة ومظهره المبالغ في التحفظ المتناقض مع الطبيعة "الثورية" لمن يرتادون هذا المقهى من الشباب، بينما تدخَّل رفيقنا الثالث في الحوار بحدة: "بالعقل! أنت تعيش في بيتك في أمان الله، أجيء أنا وأفرض عليك هويتي؟ بأي حق؟ مصر فرعونية منذ عرفها التاريخ! والعرب المسلمون ما هم إلا غزاة وافدون كغيرهم، فكيف ينزعون



عنها ثوبها القديم؟ يكفي ما أصاب مصر من تشويه لهويتها الأصيلة من هذا وذاك! مصر مصرية فحسب... لا إسلامية ولا عربية ولا أي شيء سوى مصرية!".

اندفعا في نقاش حاد، بينما سرحتُ أنا محاولًا تذكر اسم ذلك المرض الخطير الذي يصيب الإنسان أحيانًا، فيجعل جهاز مناعته يهاجم نفسه معتبرًا أن مكوناته الرئيسية أجسام غريبة يجب إفناؤها تمامًا ولفْظها خارج الجسد.

****

"لقد علمتني حياة الكتابة أن أرتاب من الكلمات، فأكثرها شفافية غالبًا ما يكون أكثرها خيانة. وإحدى هذه الكلمات المضللة هي كلمة "هوية" تحديدًا. فنحن جميعًا نعتقد بأننا ندرك دلالتها، ونستمر في الوثوق بها وإن راحت تعني نقيضها بصورة خبيثة".

(أمين معلوف – كتاب: الهويات القاتلة)

****

عندما عدتُ لمنزلي قررتُ القيام بما أجلتُ كثيرًا، أعني "فلترة" دعوات الانضمام لـGroups على Facebook. بينما أنا أتصفح الدعوات وجدتُ دعوة لمجموعة بعنوان "أنا مصري مش عربي"، ابتسمتُ في مرارة للصدفة الغريبة، ولتناقض عنوان المجموعة مع صورتها الرئيسية: هلال وصليب متعانقان يحملان ألوان العلم المصري... من المعروف أن الهوية العربية بالنسبة للأغلبية الساحقة من المصريين المسلمين ترتبط بالهوية الإسلامية، تمامًا كما يرتبط المفهوم الوطني بذلك الديني عند الأقباط المسيحيين منذ أول أيام المسيحية في مصر، فكيف تُنتَزَعُ الآن ارتباطات اندمجت في النسيج المصري منذ قرون ليست بالقليلة؟

أضيق بذلك "الاكتشاف" المباغت لبعض العباقرة أن هوية مصر القبطية تتعارض مع الروابط بين المسلمين المصريين وإخوانهم في كل العالم، وكذلك بالاكتشاف المماثل لبعض من لا يقلُّون عبقرية، أن عروبة مصر تعتبر خطرًا يهدّد أصالتها وتراثها وتاريخها الضارب بجذوره في أعماق تربة التاريخ البشري.



المشكلة أن لكلا "العبقرين" صاحبي هذين الاكتشافين مبرراته التي يراها عادلة ليعتبر أن من واجبه الدفاع عن "تَفَرُّد" هويته على حساب باقي المكونات الإنسانية للبنيان المصري... فالقائل بأن على الهوية العربية لمصر أن تطرد باقي الهويات هو في الغالب مؤيد للقومية العربية إلى حد التطرف في رفض أية قوميات أو هويات داخلية أخرى، والرافض لوصف مصر بالعربية يرى غالبًا أن ارتباط مصر بالعرب قد أخَّرها عن اللحاق بالعالم المتقدِّم، ويقارنها في ظل الارتباط بالعروبة بها في العصور القديمة عندما كانت متفردة بذاتها. المشكلة الأخرى أن كلًّا منهما يصنع جبهته، فالأول يجد تأييدًا عريضًا من التيارات المتشددة دينيًا، الرافضة – بطبيعتها– لكل من يخالفها الرأي والعقيدة، وإن كان أخًا في الوطنية، والآخر يكون أغلب مؤيديه من "الليبراليين جدًّا" الذين يرون في التفرُّد تخلصًا من "قيود" المجتمع العربي المسلم التي يعتبرونها "شماعة" يلقون عليها المسؤولية عن حالة الانبطاح التي أصابت مجتمعنا المصري على مختلف المستويات في الخمسين عامًا الماضية.

****

النظر في كبد التاريخ:

في الحضارات القديمة كان الكهنة يؤمنون أن النظر في الكبد الدافئ لأضحية ذُبِحَت لتوها يفتح طاقات على المستقبل... حاولتُ أن أفعل شيئًا مماثلًا من حيث المضمون ومختلفًا من حيث التقنية... في محرك بحث Google كتبتُ "فراعنة" واخترت "صور"... انتقيت صورة تصور عملية الحصاد... قمت بعمل Zoom على وجه أحد الوجوه... بقيتُ أتأمله لدقائق حتى لم يعد مجرد وجه مرسوم على جدار يفصلني عنه فضاء الإنترنت، صار لحمًا ودمًا... اسمه؟ فليكن "حوري" أو "بانوب" أو "نافا"... فليكن ما يكون... أراه يتلوى تحت سياط الهكسوس الذين لم يرُق لهم لونه الأسمر الطيني، أرى "كيرلس" حفيده البعيد يئن على صليب الرومان الذين حاولوا عبثًا أن يُرجعوه عن إيمانه بعقيدة المسيح. لـ"كيرلس" ابنٌ رضيع، يكبر ويأتي من نسله المتتالي "عبد الله" الذي يثور مع المصريين –عربًا وقبطًا– ضد والي الخليفة المأمون على مصر لما أحدث الوالي بها من المظالم، حتى يضطر المأمون أن يأتي مصر بنفسه ويعدِّل الأوضاع. "عبد الله" أعمامه عرب من قبيلة يمنية، وأخواله أقباط



من الصعيد. أما حفيد أحفاد "عبد الله"، فهو "حسان" الذي سقى دمه أرضه وهو معلّق رأسًا على عقب بعد أن تكسَّرت على جسده عصا المسؤول العثماني عن جمع ضرائب الباشا المتربع في قلعة الجبل... ولو أن لديك رغبة في أن تعرف ما الذي جرى لآخر أحفاد "حسان" فالأفضل أن تنتظر حتى يشفى مِمَّا تعرض له من تعذيب في أحد أقسام الشرطة بعد خروجه في مظاهرة حاشدة أمام مجلس الدولة!

بالتأكيد كان في القصة الطويلة لأحفاد ذلك الفرعوني المجهول -صاحب الرسم على الجدارية- أفراح وأوقات للسعادة ولحظات للانتصارات والإنجازات، ولكن وحده الدم له القدرة على رسم ذلك الخط الطويل على جسد التاريخ... حاوِلْ عبثًا أن تقطع ذلك الخط... ستفشل... ولو نجحت فلن ترى إلا مراحل زمنية كلٌّ على حِدة... لا تصنع شيئًا من "المصري" الذي تبحث عنه، وستضطر عندئذ أن تعيد ترتيب النقاط المكونة لذلك الخط، لتستعيد وجودك نفسه.

المصري... من؟

"هل نحن فراعنة؟ أم عرب؟ أم أفارقة؟ أم شعوب البحر الأبيض؟ أم إننا كل هؤلاء... مما يعني أننا شعب هجين ليس له أصل واحد، وأن مصر تجمع عشوائي من شعوب وافدة؟ وهذه الفكرة الخبيثة كان يرددها "اللورد كرومر" لينزع عن المصريين أخطر سلاح يهدد الاحتلال الإنجليزي، وهو الوحدة الوطنية".

"وكان الهدف من هذه المزاعم الاستعمارية هو إطلاق يد الاحتلال في بلد ليس له صاحب!".

(د.جمال بدوي - كتاب: مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد)

وضعتُ الكتاب جانبًا وفكرتُ...

حقًّا... نحن نحتاج أن نسأل أنفسنا "من نحن؟" ولكن ليس بحثًا عن هوية واحدة ننتصر لها، وإنما بحثًا عن مكونات هويتنا المصرية كلها، لنعرف الروابط بينها، ونضعها متجاورة كلُعبة Puzzle حتى تتكون الصورة واضحة. علينا أن نعرف من نحن.. ليكون وقوفنا دفاعًا عن هويتنا المصرية على أرض صلبة..

إذن فالبداية من هذا السؤال: نحن المصريين... من نكون؟



مصادر المعلومات:

1 – شخصية مصر: جمال حمدان.

2 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

3 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د.جمال بدوي.

4 – الهويات القاتلة: أمين معلوف.

5 – المسلمون والأقباط: المستشار طارق البِشري.

6 – مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.

(٢)

"أبويا ناسب بسخاروس...

واسم خالي جرجيوس...

وجد أمي فلتاؤوس...

وأنا اسمي طه أبو العلا".

(بيرم التونسي)

الرأس القبطي "الناشف"!

إذا سألني أحدكم عن أكثر ما يعجبني في الأقباط (وأنا هنا أعني المصريين كلهم لا المسيحيين فحسب) سأجيب فورًا: "دماغهم الناشفة"، وصلابتهم في مواجهة الضغوط، وقدرتهم العبقرية على التحايل على جبروت المتجبر عليهم. و"نشفان" الدماغ هنا لا أعني به العناد الأعمى، بل أقصد ذلك العناد الذكي المبني على إيمان حقيقي بعدالة القضية.

هذا الرأس الصلب هو صاحب الفضل في صمود المصريين عبر تاريخهم الطويل أمام كل الرزايا والضربات والصدمات التي كان بعضها كفيلًا بهدم جبل ضخم.

فلننظر نظرة بسيطة في التاريخ القبطي، مجرد نظرة سريعة بسيطة... سنرى أمامنا الإمبراطورية الرومانية، بجيوشها وفيالقها وجنرالاتها وسيوفها وجبروتها، في مواجهة



الفلاحين المصريين الذين لا سلاح لهم سوى أدوات زراعتهم البسيطة وإيمانهم المسيحي العميق. لو أن أي محلل عسكري أو سياسي طُلِبَ منه أن يتوقع نتيجة المواجهة فسيقول فورًا أن النتيجة المنطقية هي فَناء المصريين على يد الرومان، كما حدث لأغلب من تحدَّوا النسر الروماني، هذا إن كلَّف نفسه عناء الإجابة عن سؤالك الذي قد يبدو له غبيًّا بحكم بساطة المعادلة.

والآن، دعني أخبرك بأن روما بكل "هيلمانها" اندحرت أمام قوة الإيمان المصري بالمعتقد، بل وأن المسيحية المضطهدة المستضعفة أصبحت فيما بعد الدين الرسمي للرومان... ماذا إذن سيكون تفسيرك لهذه المعجزة؟

إن بعض الأحداث لا يمكن تفسيرها بالماديات، والطبيعي أن مصر التي شكَّلَت المعنويات والروحانيات جزءًا ضخمًا من تكوينها عبر التاريخ، لا ينبغي تحليلها بشكل مادي فحسب. لاحظ أننا نتحدث عن شعب جعل معابده وقبوره وبيوت آلهته من الحجر الصلب، بينما لم يهتم أن تكون قصوره وبيوته مبنية بغير الطوب اللبِن، وأننا لو كنا نفخر بأن لدينا ثلثي آثار العالم "المادية" فإن لنا أن نفخر أكثر بأن أجدادنا المصريين القدماء هم واضعو البذرة الأولى لأغلب المكونات المعنوية للتراث الإنساني.

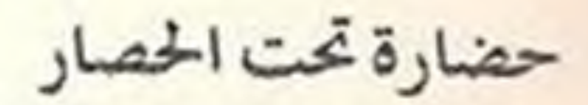
وعودة لمسألة "الدماغ الناشفة" هذه، فالقبطي حادُّ الذكاء الذي وجد أن مقاييس القوة المادية تنذر بهزيمته في المعركة أمام القوة المسلحة الباطشة للمستعمر الروماني، استنفرَ قدراته العقلية لمواجهة التحدي، ووجد أن الانتصار في الحرب لن يأتي فقط بالاستعداد للاستشهاد في سبيل الهدف، بل إن جزءًا كبيرًا من النصر يجب أن يقوم على المقاومة والاستبسال؛ لأجل الاستمرار في الحياة بالعند في محاولات الرومان سحقه. فابتكر نظام "الرهبانية" وخرج إلى الصحراء ودروبها المعقَّدة، وكهوف الجبال الشاهقة، وأقام هناك أديرته وكنائسه وتعبَّد لله وهو ينظر للنسر الروماني، وعلى شفتيه -أعني القبطي- بسمة ساخرة تتحدى الرومان أن يجتازوا الصحراء، فهو يعلم أنهم لا يطيقون حرها ووعورتها، بينما هو يستقوي على مصاعبها بإيمانه، ويطمئن لعدم غدرها به، ففي النهاية، لو كان يعيش سابقًا في موضع الصدر من أمه مصر - وادي النيل- فهو الآن قد انتقل إلى كتفها - الصحراء- وكلها في النهاية أجزاء من أمه الرؤوم.

وعندما اعتنق الرومان المسيحية، وصارت مصر تابعة للقسم الشرقي من الإمبراطورية (بيزنطة) وحاولت السلطات فرض المذهب البيزنطي على المصريين أصرَّ هؤلاء على

التمسك بكنيستهم القبطية وآبائها المصريين، ورغم عَقْد البيزنطيين مجمعًا تلو الآخر لتكفير الكنيسة المصرية لم يتخلَّ الأقباط عن ولائهم لكنيستهم، وعبثًا حاول الروم إرسال بطاركة موالين لهم، فكانوا يقابَلون إما بالطرد أو بالقتل أو بالتجاهل، واعتبر الأقباط أنفسهم رعايا الكنيسة لا رعايا الإمبراطور، فصارت الدولة الرومانية ملزَمة عند التفاهم معهم أن تتحدث مع البطريرك القبطي باعتباره ممثلًا للإرادة المصرية. والمثير للتأمل أن العرب حين دخلوا مصر فقد كان ممثل الموقف القبطي هو البطريرك المُختار "بنيامين"، بينما كان "قيرس" (المقوقس أو المقوقز نسبة لأصله القوقازي) هو ممثل الموقف البيزنطي، رغم أنه كان رسميًا -وبأوامر الإمبراطور هرقل- بطريرك الكنيسة المصرية، و لم يتمكن من الوصول لصلح جدي مع العرب إلا بانفصاله عن صف الروم وانضمامه للموقف المصري الذي فرض نفسه بقوة!

ذلك العناد والتحايل على الصعاب، لو نظرنا اليوم لحياة المصري البسيط الذي تحولت أبسط مظاهر حياته اليومية التقليدية لمغامرة غير مأمونة العواقب، فسنجده يتحايل ويدور حول الصعاب، ويتغلب عليها أحيانًا، وأحيانًا يُخفِق، فيعود للمحاولة من طريق آخر حتى يحقق ما يريد بحق، لو أننا حاولنا حساب نسبة مئوية لمحاولات المواطن المصري العادي للتغلب على الظروف خلال يومه الطبيعي لتأكد لنا بالدليل القاطع أن العناد هو المحرك الأساسي لهذا الإنسان! نعم، فبحق الله، أن يستطيع شعب الحياة والتناسل والاستمرار في ظروف صعبة من تلوث كارثي وفقر منتشر وأمراض مميتة متوطنة، بدون وجود أية آليات مادية تُذكر تعين على ذلك البقاء، وأن يستمر ذلك الشعب في إخراج المبدعين والمفكرين ومن يضيفون باسمه للمحتوى الحضاري الإنساني، لهو شيء أسطوري مُعجِز يؤكد وجود واستمرار عملية توارث "جينات" العناد المصري سالف الذكر، وهذا مما يؤكد لي أن الموروث القبطي في داخل كل منا أعمق من مجرد "ملامح قبطية تشبه اللوحات القبطية القديمة لدى البعض، أو عقيدة مسيحية أرثوذكسية تدين بها نسبة من المصريين، أو أصول صعيدية فرعونية الجذور للبعض الآخر... نعم، أنا أقول إن "صلابة الرأس"، والرغبة العنيدة للاستمرار في الحياة، تعتبر أهم المكونات القبطية فينا معشر المصريين.

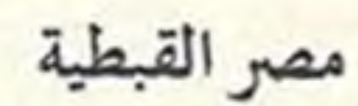




لو نظرنا لتراثنا القومي لوجدنا أن نسبة ضخمة منه وُلِدَت من رَحِم أعتى الظروف وأسوأ الأوضاع. المقالات الساخرة لـ"يعقوب صنوع"، رائد المقال السياسي الساخر... أغنيات "الشيخ إمام"... وأشعار "أحمد فؤاد نجم"... العبقرية القانونية لـ"عبد الرزاق السنهوري"... الإبداعات الفنية لـ"محمود مختار"... المسرح السياسي في ستينيات القرن العشرين، والذي وُلِدَ على يد "تحية كاريوكا"... تحليلات "جلال أمين" و"فهمي هويدي"... أدب "جمال الغيطاني" و"بهاء طاهر"... كل تلك الثروات الحضارية نشأت إما تحت احتلال أو نظام بوليسي أو ظروف اقتصادية طاحنة... فمن الجدّ الشرعي لتلك الإرادة المصرية للاستمرار في الإضافة الغزيرة للحضارة الإنسانية؟

ولو بحثنا في الطريق الطويل للمصري لوجدنا نفس الظاهرة تتكرر خلال الفترة المسماة بـ"الحقبة القبطية"، فالتراث القبطي بالكامل نشأ خلال فترة أعتى احتلال عرفته مصر في عصورها القديمة، وهو الاحتلال الروماني. فاللغة القبطية وُلِدَت في تلك الأيام ردعًا للاتينية عن التسلل إلى لسان المصريين، والكتاب المقدس شهد أكبر حركة ترجمة وتحليل وتفسير وشرح رغم التهديد الدائم لكل من كرّسوا حياتهم لذلك بالقتل والصلب والإلقاء للوحوش في حلبات المصارعة. وأدب الوعظ وسِيَر الشهداء والقديسين وتاريخ الكنيسة، ظهرت تلك الآداب كأبناء شرعيين للأدب المصري الفرعوني الذي تضمَّن من قبل نفس ألوان الكتابات في فترة ما قبل المسيحية. وظهرت المدارس والكتاتيب المتخصصة في تعليم المسيحية في القرى والمدن رغم أنف النسر الروماني. والفن المصري القديم تمخّض عن الفن القبطي في الصور والعمارة وأيقونات القديسين. حضارة كاملة قامت في قلب بلد كان محتلوه يجعلون أهله طبقات أدناها – بطبيعة الحال– أهل البلد الأصليين، وكانوا (أي المحتلين) يتفننون في جعل المصري يعيش كالثور المربوط في ساقية الفقر، يدور حول نفسه لينتزع لقمته وقوت عياله، بحيث لا يتركون له مجالًا للتفكير في علم ولا فن ولا تقدُّم، ويحوِّلونه إلى مخلوق مشغول بهمومه الأولية من طعام وشراب وسكن، أو على حد وصف الشاعر "أسامة عبد الصبور" في قصيدة "المفرمة" "أعيش مسجون في سِجن الأكل عيش". تخيل تلك الإرادة التي نحتت الصخر وقارن بينها وبين من ذكرتهم من مبدعينا في العصر الحديث –وغيرهم كثيرون– وقل لي: ألا ترى التشابه؟ ألا يشبه الأبناء أجدادهم في قدرتهم على بناء حضارة ولو تحت الحصار العتيّ؟





مصر القبطية

قبطية مصر ليست مجرد صفة "يرغب البعض في وجودها من اللاشيء" بل إنها "أمر واقع يفرض نفسه، له أسسه وآثاره الملموسة"، وهي لا تتعارض مع باقي مكونات هويَّتها من إسلام وعروبة وغيرها من مكونات الهوية المصرية. بل إن من أهم آثار الصفة القبطية لمصر حسن استقبال المصريين للإسلام وتقبلهم له، فهم لم يقبلوه عن ضعف أو خَوَر – ولنا في موقفهم من الرومان والبيزنطيين عبرة– بل قبلوه عن احترام حقيقي، ورغبة في إضافته للمضمون المصري الذي يحسن استقبال الوافد عليه لو أن ذلك الوافد أبدى بدوره احترامًا ورغبة حقيقية في أن ينسجم مع أهل هذا البلد... هنا، تفتح مصر ذراعيها، وتقدِّم خبزها وملحها وماءها وظلها دون حساب...

فليس من العدل، ولا من الأخلاق، أن ننفي صفة من جئناه فأحسن تقبُّلنا..



مصادر المعلومات:

1 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د.جمال بدوي.

2 – مصر القديمة في عيون حديثة: د.جمال بدوي.

3 – المصريون والحضارة: د.حسين مؤنس.

4 – الشرق الأدنى في العصرين الهيللينستي والروماني: د.أبو اليسر فرح.

5 – تاريخ مصر في العصر البيزنطي: د.صبري أبو الخير سليم.

6 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د.عمر صابر عبد الجليل.

7 – مصر في عصر الرومان: د.الحسين أحمد عبد الله.

8 – مصر القبطية... الأقباط يُعَمَّدون بالدم: محمود مدحت.

9 – أسفار التكوين المصرية: مانيتون السمنودي.

10 – المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: المستشار/ طارق البشري.

11 – دفاعًا عن تراثنا القبطي: بيومي قنديل.

12 – شخصية مصر: د.جمال حمدان.

(٣)

إسلامية! إسلامية!

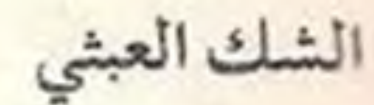
في فيلم "عمارة يعقوبيان" مشهد لرجل دين متشدد - قام بدوره الفنان "محمد الدفراوي"- كان يخطب في الناس صائحًا من فوق منبره: "لا نريدها علمانية ولا ديمقراطية ولا اشتراكية... نريدها إسلامية!" فورًا هبَّ الشباب يهتفون بحماس جنوني: "إسلامية! إسلامية!"

والحقيقة أن هذا المشهد قد ساهم - مع مشاهد واقعية حضرت بعضها - في استفزاز عقلي للبحث عن معنى "الهوية الإسلامية لمصر".

من اللحظة الأولى تقفز إجابة بديهية منطقية للذهن "ما دام الإسلام هو دين أغلب شعب مصر فالدولة إذن إسلامية"، وهي إجابة لها وجاهتها، ولكن ليست كافية، فللأمر أبعاد أخرى أعمق، فالإسلام بالنسبة لمصر ليس مجرد دين يعتنقه أغلب أهلها، ومصر بالنسبة للإسلام ليست مجرد منطقة دخلها وانتشر فيها، فالإسلام كان لمصر علامة فارقة، كما كانت مصر له بنفس المثابة.

إذن فلنتفق أن الأمر أعمق من هتاف حماسي سرعان ما يذوب في حلق صاحبه إذا جربت أن تسأله: ما معنى أن تكون مصر إسلامية؟ فغالبًا سيتلجلج وسيجيبك إجابات عائمة... باستثناء هؤلاء الذين يعُون ما يقولون، وهؤلاء في الغالب ليسوا من أهل الهتافات والجعجعة.





لم يكن الجدل يومًا حول هوية أشد منه حول الهوية الإسلامية لمصر، مع أنه – في رأيي– جدل فارغ؛ فالعبث بعينه هو أن نتذكر فجأة أن نشك في هويتنا الإسلامية بعد أكثر من 1300 سنة من الحكم الإسلامي لمصر، وأكثر من 1000 سنة من تحول الإسلام لدين أغلبية المصريين، وبعد أن مرَّت مصر بمختلف الأنظمة الحاكمة المنتسبة للنظام الإسلامي من خلفاء راشدين وأمويين وعباسيين وطولونيين وإخشيديين وفاطميين وأيوبيين ومماليك وعثمانيين، ثم أسرة محمد علي، ومِن بعدها نظام ما بعد ثورة يوليو، وبعد أن ظهرت في مصر مدارس فقهية إسلامية أثمرت عن مذهب الإمام الشافعي ومذهب "الليث بن سعد"– رضي الله عنهما – وتأسيس الأزهر كمركز للدعوة الشيعية ثم تحوله منذ عصر المماليك لمنارة سنية، وبعد أن ساهمت مصر كفاعل قوي في أهم أحداث التاريخ الإسلامي منذ فتنة حصار ومقتل "عثمان" إلى التحول لمركز لصد هجمات المغول والصليبيين واحتضان الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد، ثم محاولة قيادة العالم العربي والإسلامي في العصر الحديث، وأن تكون عاصمة مصر ملقبة بـ"مدينة الألف مئذنة"، بعد كل هذا فإن الشك في هويتنا الإسلامية هو – في رأيي– عمل شديد الانفصال عن الواقع.

لو كانت الهوية الإسلامية عبارة عن "جسم غريب" في جسد مصر، كما يدَّعي البعض، ما كانت مصر لتتبنى تلك الأحداث وتلعب كل تلك الأدوار الإيجابية، ولكان الإسلام "مجرد دين عابر" كما جرى مع عقائد الفرس والبطالمة والرومان والبيزنطيين، ولكن اقتحام مصر مسار التاريخ الإسلامي واحتلالها مركزًا متميزًا فيه، هو شهادة قوية على صدق هويتها الإسلامية. والقول بأن تلك الهوية فرضت نفسها على أسنَّة رماح وسيوف المسلمين هو قول فيه إهانة للمصريين الأقباط المعاصرين للفتح، فكأنه ببساطة يتهمهم بأنهم – وهم الذين لم ينكسروا أمام الرومان والبيزنطيين وجبروتهم– قد انكسروا أمام بضعة آلاف من الجنود العرب متوسطي التسليح، وهذا بالتأكيد غير منطقي، والمفروض أن تكون مصر أكرم علينا من أن نظنَّ بشعبها هذا.

ثمة أمر واقع يقول إن مصر "أثَّرت وتأثَّرت" بالإسلام، وهذا يعطيه الحق أن ينضمَّ لهويات المجتمع المصري إلى جوار الهويات القبطية والعربية، وغيرها من الهويات المصرية.



إن التفسير البسيط المباشر لتقبل المصريين للوجود الإسلامي هو أن المصري وجد نفسه أخيرًا يعيش وفق قانون ينص بصرامة على حريته الدينية "لا إكراه في الدين"، فلم يعد ملتزمًا بعبادة الإله المفضَّل للفرعون، ولا مجبرًا على الركوع لتمثال القيصر، ولا هو محاصر بالتعذيب لاعتناقه مذهبًا مخالفًا لمذهب الدولة المستعمرة. والمصري ذكي وذو وعي وشخصية، يستطيع دراسة وفهم ما يرد عليه من أنظمة، فيحدد ما يقبله منها وما يلفظه، فوجد نظامًا يحقق له أمانه الديني والاجتماعي فتقبَّله ببساطة، ولو كان رفضه ما كان المسلمون ليستطيعوا أن يجبروه على قبوله، ولو قلبوا عالي الأرض سافلها!

إسلامية... كيف؟

السؤال السليم ليس "هل مصر إسلامية؟" بل هو "كيف أن مصر إسلامية؟"، فالمشكلة كلها تكمن في أن صورة "الهوية الإسلامية المصرية" ليست واضحة، أو هي صورة مشوَّهة متداخلة مع صور قائمة لمجتمعات تعتبر نفسها "نماذج قوية للمجتمع الإسلامي".

دعونا أولًا نتفق على أن "إسلامي" هنا لا ترتبط بالدين بقدر ما ترتبط بالثقافة الحياتية، فلو أن فنانًا مسيحيًا أبدع عملًا فنيًا على الطراز الفاطمي مثلًا، فقد انتمى عمله لـ"الفن الإسلامي"، ولنَقِسْ على ذلك باقي مظاهر الحياة، فالهوية هنا إذن ليست مقصورة على المسلمين المصريين، بل إنها تمتد لغيرهم، والدليل القوي هو أن فلسفة "موسى بن ميمون" اليهودي محسوبة على الفلسفة الإسلامية، والبراعة الطبية لـ"بختشيوع" – طبيب هارون الرشيد– محسوبة على الطب عند المسلمين، و"جرجس بن العميد" هو مؤرخ منسوب للثقافة الإسلامية رغم مسيحيته. هذا وضع طبيعي ما دمنا نعترف بأن حضارة المسلمين الممتدة من الصين للأندلس قد ساهم في بنائها كل من يحملون "جنسية الدولة الإسلامية" بغضّ النظر عن عقائدهم.

نصل من هذا لنتيجة أن الهوية الإسلامية لا تهدر ولا تتجاهل ولا تحارب غير المسلمين، بل تتبناهم وتعتبرهم من مكوناتها البشرية الهامة. ونستنتج كذلك أن وصف الدولة بـ"الإسلامية" يتطلب ما هو أكثر من أن تكون تلك الدولة مطبَّقة لأحكام الشريعة الإسلامية، بل هو يستدعي أن تكون تلك الدولة متبنية لـ"الثقافة الإسلامية ككل".

المشكلة أن الرافضين للهوية الإسلامية لمصر يعتمدون في رفضهم على صورة مشوَّهة



للمجتمع الإسلامي، فيتخيلون مجتمعًا رماديًا قاتمًا تنعزل نساؤه خلف جدران الحرملك، ويسير رجاله مقطبي الجبين، وتُمنَع فيه الثقافة، ويحارَب فيه الفن، وتُغلَق فيه العقول. والحقيقة أنهم لو أرهقوا أنفسهم بالنظر في التاريخ الإسلامي لوجدوا الصورة مختلفة، ولاكتشفوا أن مصدر الصورة المشوَّهة لديهم عن المجتمع الإسلامي هو ما جرى لمصر منذ نهاية السبعينيات وحتى الآن من استيراد أفكار دينية متشددة ومتعصبة ورافضة للآخر من مجتمعات تختلف عنا تمامًا، وتفتقر لما لدينا من تنوع ثقافي وديني وعرقي، مما يجعل فكرة "الآخر" بالنسبة لها مشوَّشة وافتراضية. تلك المجتمعات تعتبر نفسها النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي، والكارثة أن الرافضين للاعتراف بهوية مصر الإسلامية يأخذون هذا النموذج المشوَّه كحقيقة واقعة، ولا يكلِّفون نفسهم عناء النظر في كتب التاريخ الإسلامي المزدحمة بأخبار العلماء والفنانين والمفكرين والحاملين لمشاعل النور للإنسانية، مما يجعلني أتساءل... هؤلاء القوم، ألا يقرأون؟!!!

الخلاصة

الاعتراف بالهوية الإسلامية لمصر لا يمثل خطرًا على باقي الهويات المصرية والمنتمين لها، بل بالعكس، التنكر لها يهدد باقي الهويات، فرفض الهوية الإسلامية بحجة "مدنية المجتمع" يعني أن على الأقباط كذلك التخلي عن هويتهم، وكما نعلم فإن الهوية القبطية ليست مجرد هوية دينية، بل هي هوية مرتبطة بالانتماء الوطني، مما يعني هدم ذلك الانتماء الذي تكوَّن وتراكم وترسَّخ عبر آلاف السنين، في حين أن الحفاظ على الهوية الإسلامية للمجتمع يعني الإضافة للمحتوى الحضاري المصري، والمساهمة في مزج مكوناته للخروج بهوية مصرية ثرية مكونة من هويات عديدة داخلية.

المطلوب فقط هو الذكاء في التعامل مع الهوية الإسلامية، وإزاحة كل ما علق بها من غبار التعصب والتشدد والتخلف؛ لتعود من جديد نقية كما كانت خلال القرون التي حملت فيها المجتمعات الإسلامية مشاعل النور لأرجاء العالم.



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – تاريخ ابن خلدون:عبد الرحمن بن خلدون.

4 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د. جمال بدوي.

5 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

6 – الخطر الإسلامي.. حقيقة أم خرافة: جون ل. إسبوزيتو.

7 – البروج المشيدة: لورانس رايت.

8 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

9 – شمس العرب تسطع على الغرب: د. زيجريد هونكه.

10 – مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.

11 – الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي.

12 – حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.

13 – إحقاق الحق: فهمي هويدي.

14 – القرآن والسلطان: فهمي هويدي.

15 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د. جلال أمين.

16 – ماذا حدث للمصريين: د. جلال أمين.

17 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

18 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د.جلال أمين.

19 – دعاة يحكمون عقول المصريين: محمد فتحي.

20 – الأحكام السلطانية: أبو الحسن الماوردي.

21 – تاريخ ضائع: مايكل مورجان.



(٤)

الرفض... لماذا؟

هويتنا العربية لم تكن - حتى بضعة عقود ماضية - محلًا للجدل الحاد؛ فالمصري كان معروفًا للجميع كعربي، كان هذا أمرًا واقعًا لا يحتاج لنظر، حتى قرر البعض أن يحوِّلها- الهوية العربية - إلى "شمّاعة" يعلقون عليها أسباب إخفاقاتنا وانحدارنا على مختلف المستويات. فمنذ تلقي العرب ضربتي نكبة فلسطين 1948 ثم نكسة يونيو 1967، اهتز إيمان الكثيرين بعروبتهم، وشعروا أن مصر كان حالها سيكون أفضل بكثير لو كان تمسكها بعروبتها أكثر مرونة. ثم ازداد ذلك الشعور مع إحساس البعض بأن العرب قد تنكروا لمصر عندما قاطعوها بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل، وانتشرت آنذاك نكتة تقول: "إن العرب قد قرروا الصمود والمقاومة حتى سقوط آخر جندي مصري!". وزاد من قوة الرفض للانتماء العربي اتفاق المجتمعات العربية في كثير من السلبيات من أنظمة ديكتاتورية بوليسية، وانتشار مخيف للبطالة والجهل والفقر والمرض، واعتبار جبهة رفض الهوية العربية أن تلك السلبيات هي "آثار جانبية" للانتماء العربي، ثم ذلك "الغزو" الثقافي والديني البدوي لمجتمعنا المصري، والذي وجد طريقه عبر كثير من العائدين بعد انتهاء عقود عملهم في الخليج، متأثرين ببعض الأفكار -بالذات الدينية- المتشددة التي وُلِدَت في مجتمعات مغايرة، تفتقر لكثير من مكوناتنا الثقافية والاجتماعية، مما أوجد للمتحفزين للعروبة ذرائع جديدة للتنديد بالانتماء إليها؛ بحجة حماية ثقافتنا من الاندثار على يد التيار البدوي القادم من جزيرة العرب.



مصر، وهو الدور الذي تلعبه إسرائيل مع العرب بشكل عام. كذلك كانت السودان في بداية التسعينيات مركزًا لتنظيم القاعدة، خطط من خلاله لقلب نظام الحكم في مصر؛ لإقامة ما اعتبر أنه "دولة إسلامية"، والدول الملكية الخليجية في العقدين التاليين للثورة، كان ينبغي التعامل معها بحذر خوفًا من سعيها لإجهاض التجربة الجمهورية في مصر، حيث خشيت الأسر المالكة لتلك البلدان انتقال "المد الجمهوري" إليها، بل وها نحن هذه الأيام نسمع حديثًا عن الخوف من المد الشيعي الإيراني من دولة بيننا وبينها بحر وشبه جزيرة ضخمة وخليج!

كل تلك التجارب والمعطيات تشير إلى أن مصر ليست حُجرة لها باب يمكن إغلاقه "بالضبة والمفتاح"، بل هي بيت كبير حوله بيوت ملاصقة، ولا يمكن تأمين ذلك البيت إلا من خلال ضمان أمن تلك البيوت، والانفصال عن الهوية المشتركة الجامعة لجيراننا هو من قبيل الغباء السياسي والقتل العمد لأمننا القومي؛ فالدافع الأقوى لجيرانك لكي يتعاونوا معك هو أن تجعلهم يشعرون أنك واحد منهم، لا مجرد جار مختلف يشاركهم بعض الحدود البرية والبحرية!

خط سير التاريخ

التاريخ ليس مجرد "أحداث ووقائع" بل هو بمثابة "كائن حي" يسير في اتجاهات ذكية، وكما أننا أحيانًا نسمع تحذيرات من "العبث مع الطبيعة"، حين نتحدث عن تجارب مثل الاستنساخ أو التحكم في التوازن البيئي، فإن العبث مع التاريخ كذلك ليس بالتجربة المأمونة العاقبة. فعندما يثبت التاريخ لنا بالدليل القاطع -أكثر من مرة- قاعدة ما، فإن علينا إذن أن نضع تلك القاعدة في اعتبارنا عند التعامل فيما يؤثر على حاضرنا. هذا ما ينطبق بشدة على انتمائنا العربي.

فخلال حركة التاريخ - ومنذ أقدم العصور- سعت مصر لتطوير علاقاتها بالمناطق المنتمية الآن للعالم العربي، فمنذ عهد الفراعنة وجدنا حرصًا مصريًا على إقامة العلاقات التجارية والثقافية مع فينيقيا (الشام) وبابل (العراق) وبونت (الصومال) وليبيا، ثم تطوّر الأمر إلى سعي مصر لخلق رابطة أقوى مع تلك الدول من خلال المصاهرة، أو- غالبًا- من خلال الغزو وفرض السيطرة السياسية، حتى جاء وقت -تحديدًا عهد



انفصال من طرف واحد

فكرة نفي الهوية العربية عن مصر، هي فكرة تبعد كثيرًا عن الواقع، فلكي "نقرر" أن مصر ليست عربية، علينا أن ننفصل عن الواقع الذي يقول إننا نتأثر - ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وأمنيًا- بالمحيط العربي، أي أن انفصالنا عن العرب سيكون انفصالًا من طرف واحد، لن يمنع أية تأثيرات قادمة إلينا، فهو لن يغيِّر من حقيقة أن ما يجري في السودان يمسُّ أمننا القومي، وأن ما يدور في العراق يدخل في حساباتنا السياسية، وأن الأحداث في فلسطين أعمق أثرًا من أن نتجاهلها، وأن الاتجاهات الدينية الخليجية تغزونا بشراسة، طبعًا هذا الكلام باعتبار أننا سننحي جانبًا حقيقة بسيطة - قوية مع ذلك- تقول إن الثقافة الحياتية العربية أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الحياتية للمواطن المصري البسيط، هذا المواطن الذي تحدِّد اتجاهاته الثقافية انتماءنا بمصداقية أكبر مما تفعل فلسفات المتفلسفين!

أمننا القومي

لأن أكبر عامل مؤثر في الحياة هو الأمن القومي، فلنتحدث من منطلق حماية ذلك الأمن، ولننظر إذن في تاريخ أمننا القومي المصري، ذلك التاريخ يقول بأن حدود أماننا تبعد عن حدودنا السياسية بمسافات طويلة جدًّا، تلك حقيقة أدركها سابقونا، فقطز وبيبرس في القاهرة أحسا بالخطر المغولي على مصر منذ أن طرق المغول أبواب العراق، وصلاح الدين الأيوبي فرض سيطرته على اليمن باعتبار مضيق باب المندب مدخلًا محتملًا لأية قوات صليبية تريد غزو مصر عبر البحر الأحمر، والسلطان المملوكي "الأشرف برسباي" اعتبر أن غزو قبرص بمثابة تأمين لسواحل مصر الشمالية، وفلسطين ولبنان طالما اعتبرهما الفاطميون مداخل محتملة لمصر، بل لو عُدنا بالتاريخ لما هو أقدم بكثير، لوجدنا غزوات لأحمس وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني في أعماق الشام والعراق بدعوى خلق مساحة آمنة حول مصر.

وفي تاريخنا الحديث والمعاصر كذلك التجارب المثبتة لعبثية ذلك الانفصال، فدخول مصر حرب 1948 لم يكن من أجل فلسطين فحسب، بل إضافة إلى ذلك لحماية الأمن الداخلي من اتخاذ العصابات اليهودية فلسطين المحتلة قاعدة لهجماتهم الإرهابية على



والحقيقة أن اعتبارهم انتماءنا العربي مصدرًا أساسيًا لسلبياتنا يضعهم في نفس موضع الرجل الذي فقد مفتاح بيته في شارع مظلم، فذهب ليبحث عنه في شارع آخر مُضاء! فهم يبحثون عن تفسير المشكلة في الموضع الخطأ!

وهم كذلك منفصلون عن المواطن البسيط الذي يفترض بهم كمثقفين أن يمثلوه، فهم إذ يلفظون العروبة إنما هم يلفظونه، فهو يتحدث العربية، وينفعل مع الأخبار في فلسطين وجنوب السودان والعراق، ويطرب للموسيقى العربية، وينضح بكرم العرب ومروءتهم وإذا "رطنت" أمامه بلغة أعجمية نظر لك مستنكرًا وقال "النبي عربي"... لو لم تكفِ الأسباب العملية هؤلاء القوم ليؤمنوا بالهوية العربية، فأعتقد أن علينا وإياهم أن نحتكم لذلك الرجل المصري البسيط لنسأله – بكل ديمقراطية – عما إذا كان عربي الانتماء أم لا... وأعتقد أنني أستطيع استنتاج الإجابة!



تحتمس الثالث– امتدت فيه سطوة فرعون مصر إلى المغرب والشام والعراق ومنابع النيل، ذلك العهد المسمى بـ"عهد الإمبراطورية". أي أن علاقة مصر بجيرانها لم تتوقف على "الروابط التبادلية" بل كان هناك سعي جدي دائم لرفع مستوى الارتباط، وعندما جاء الحكم العربي استطاع أن يُحدث نقلة عالية في ذلك الارتباط التاريخي، تخللته مراحل تدهور عندما كان الجسد العربي يتعرَّض لتمزق الحروب الأهلية، أو قيام أنظمة متجاورة ليست على وفاق، والمدقِّق في تاريخ مصر يلاحظ أن بلوغها أعلى المستويات على مختلف الأصعدة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، كان مرتبطًا دائمًا بلعبها دور القلب لكيان عربي قوي ممتد من المحيط إلى الخليج، وأكبر أمثلة إيجابية لذلك هي عهود الأيوبيين والمماليك، عندما كانت "قلعة الجبل" – مقر الحكم العربي– قبلة من يريد أن يكسب رضا العرب؛ ليخدم تجارته أو سياسته. أما المثال السلبي فقد تمثل في الفترة الفاطمية عندما فرض الفاطميون على مصر العزلة بين محيط يدين أغلبه بالولاء للعباسيين، فأخرجوا مصر من الصف العربي، وكانت النتيجة دخولها في حالة انهيار أمني داخلي واضطراب سياسي، وتعرضها خلال حكم المستنصر بالله الفاطمي لمجاعة طاحنة، ثم دخول الصليبيين أراضيها وتوغلهم فيها أكثر من مرة، حتى جاء صلاح الدين وعمه أسد الدين شيريكوه، وأعادا ضمها للكيان العربي من جديد، فصلُحَت أوضاعها.

المفترض من أمور كهذه أن تكون لافتة لنظر من يتساءلون متشككين عن الهوية العربية، فليقتنعوا بها أو يرفضوها، ولكن على الأقل فلينظروا في التاريخ ويحاولوا تفسير ظاهرة اتجاهه لوضع مصر في قلب العرب، حتى وإن شهد تاريخها ابتعادًا منها عن تلك المكانة لظروف –غالبًا– ترجع لقلة حكمة إدارتها الحاكمة خلال فترات الانطواء تلك.

الخلاصة

المدقِّق فيما سبق يلاحظ أني تكلمت بوجهة نظر عملية نفعية فحسب، مسقطًا أية اعتبارات عاطفية أو معنوية، والواقع أني لم أفعل ذلك استهانة بالرابط المعنوي بين مصر والعرب؛ ولكن لأن الذين يرفضون هويتنا العربية يزعمون أنهم يفعلون ذلك لاعتبارات عملية، فكان ضروريًا إذن أن أستخدم نفس المنطق في الرد عليهم.



(٥)

"لا يهمني اسمك... لا يهمني عنوانك... لا يهمني لونك ولا ميلادك... يهمني الإنسان ولو مالوش عنوان".

(أغنية "حدوتة مصرية" - الشاعر: عبد الرحيم منصور)

مصر العربية لم تتوقَّف كثيرًا عند الأصل الكردي لصلاح الدين، واتَّخَذَت نسره شعارًا لها... مصر القبطية المعتزة بأنها ضمت العائلة المقدسة لم تستغرب أن تكون عاصمتها مدينة "الألف مسجد"، مصر الإسلامية تعتز بأن تاريخها شهد علمًا أخضر به هلال وصليب يتعانقان، وهما ينظران بتحدٍّ لجنود المستعمر البريطاني. تزهو بالإسكندرية التي بناها الإغريق... تنشد شعر أحمد شوقي ذي الأب العراقي والأم التركية، يضحك ابنها لكوميديا نجيب الريحاني العراقي الجذور، ويعتبر أعمال فريد الأطرش السوري من تراث الفن المصري الجميل.

يقول مسلمها للقسيس ببساطة "يا أبونا"، ويقول مسيحيها بتلقائية وسط نقاش حاد "صلي على النبي يا جدع!"... هذه أمور -على بساطتها- أكبر وأعمق من مناقشات "المثقفين" والمجادلات الحادة الهيستيرية لمن يحسبون أنفسهم قد دخلوا في ضمير كل مواطن من الثمانين مليونًا، وعرفوا أية هوية يرغب في الانتماء لها. أكثر الأمور عبثية وهزلية أن "تقرر" لإنسان هويته، يمكنك أن تلفت نظره لها، أو أن تعرفه بها بشكل يجذبه للتمسُّك بها، لكن أن "تقررها" هذا أمر مستحيل، ففي النهاية لن يكون سوى

مصادر المعلومات:

1 – تاريخ بن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

2 – البروج المشيدة: لورانس رايت.

3 – القاعدة وأخواتها: كميل الطويل.

4 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

5 – الهويات القاتلة: أمين معلوف.

6 – اختلال العالم: أمين معلوف.

7 – العروش والجيوش: محمد حسنين هيكل.

8 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.

9 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د.جلال أمين.

10 – عصر سلاطين المماليك: د.قاسم عبده قاسم.

11 – تاريخ الأيوبيين: د.محمد سهيل طقوش.

12 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

13 – أطلس التاريخ العربي الإسلامي: د.شوقي أبو خليل.

14 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

15 – إيران وولاية الفقيه: مصطفى اللباد.



من يقرره "هو"، وسيضرب عرض الحائط بأي كلام لا "يدخل رأسه".

تكامل الهويات

إن التحليل الأكاديمي لعناصر الدولة هو أنها "أرض" و"سلطة حاكمة" و"شعب"... وهذا الشعب عليه أن يكون واحدًا تجمعه نفس الأهداف العامة والطموحات الجماعية والتاريخ الموحَّد... لا يُشترَط أن تكون له هوية عرقية أو دينية أو ثقافية واحدة، طالما أن هناك همزات وصل قوية تجعله شعبًا واحدًا، والعدالة تقتضي أن تُحترَم كل مكوّنات ذلك الشعب، سواء كانت تخصُّ أغلبيته أو أقليته، فهي في النهاية تمثل جزءًا من بنيانه. وتقرير هوية واحدة للمصريين فيه بَتر دام لجزء منهم، فالاقتصار على العروبة ينفي كل من ليس عربي الأصل كالأقباط والنوبيينّ، وفرض الهوية الإسلامية منفردة يعني رفضًا ضمنيًا لانتماء المسيحيين للأسرة المصرية، واعتبار أن مصر قبطية فقط هو إلغاء للكتلة العربية الكبيرة والمكوّن العربي لمصر سواء تاريخًا أو حاضرًا! المصري ببساطة "مصري"، والهويات الأخرى تقع في مكوناته الداخلية، وتكمل كل منها الأخرى.

والواقع أن التاريخ يقول إن تلك الهويات الثلاث تكاملت؛ فالهوية القبطية أضافت للعربي الوافد عند الفتح محتوى ثقافيًا ثريًا أثار فضوله وجعله يمزج رؤيته العربية بالمضمون القبطي، كما فعل في الشام والعراق وكل قُطر فتحه العرب، مما أضاف في النهاية للمضمون الكبير للحضارة العربية، فضلًا عن أنها -الهوية القبطية- كانت المفتاح الرئيسي لإضافة الجناح البشري والجغرافي الإفريقي للعالم العربي، والهوية العربية أضافت لمصر روابط قوية -هي تحتاجها- بالأقطار المحيطة، جعلت أمامها فرصة لتكون جزءًا من كتلة ثقيلة دوليًا في مواجهة التكتلات العالمية، وبدا هذا بشدة في الحقبة الناصرية، والهوية الإسلامية أضافت لمصر التشريعات الدقيقة الشاملة لمختلف أوجه الحياة؛ إذ إن الديانة المسيحية تُعتبر في الأساس عقيدة أكثر من كونها شريعة، كما أضافت لها روابط مع الدول الإسلامية طالما أضافت لسياستها الخارجية.

أما عن التناقض أو التضارب بين تلك الهويات، فلنعترف بحدوثه أحيانًا، ولكنه كان -وما زال- يحدث إما لسوء فهم للهوية أو لقصور في صياغة وتطبيق السياسات التي تمسها، لكنه ليس ناتجًا عن وجود أكثر من هوية لمصر، فليست مصر الدولة الوحيدة



العراق وأفغانستان، وانفعلوا وهم يرون إخوانهم في الوطن يتعرضون لاعتداء المشجعين الجزائريين في الخرطوم...

هؤلاء من ينبغي أن نرجع لهم لنقول من هو المصري، حاول أن تنتقي موقفًا مما سبق، وأن تثبت لي أن مسألة الانتماء القبطي أو الإسلامي أو العربي أظهرت فارقًا بين الهويات الثلاث المذكورة في مواجهة ذلك الموقف، قد تؤثر الهوية في "شكل التفاعل" لكنها لن تختلف في حقيقة وجوده.

بالعقل

كما قلتُ، المصري ببساطة "مصري"، أيًا كانت انتماءاته الشخصية، فمصر التي أضفت هويتها على "الخواجة" اليوناني أو الإيطالي أو الأرميني الذي قضى عمره في مصر، ويرفض بإباء أن يقال له "يا خواجة" لن تناقض موقفها المرحِّب بالراغب في الانتماء إليها بأن تجبر نفسها على ألا تعترف لأبنائها سوى بهوية واحدة... فهذا الخواجة مصري بـ"التمَصر" أو "التجَنُّس" مع حفاظه على هويته الأخرى التي تمثل له "الأصل"، فبأي منطق نناقض أنفسنا، فنحترم تعدد انتماءات هذا الرجل وننكر على أنفسنا نفس الحق؟

هويتنا... من يهددها؟

التحدي الذي يواجه هويتنا ليس فقط في التصدي لمحاولات فرض هوية واحدة علينا، ولكنه كذلك يمتد ليشمل الصمود أمام محاولات "جَر" الهوية المصرية ومكوناتها لمناطق بعيدة عن حقيقتنا، فهويتنا المصرية الإسلامية تعرَّضت -وتتعرَّض- لحملة خارجية لإفساد نقائها وتسامحها من خلال فرض فقه بدوي متشدد -متعصب أحيانًا- لم يولد في مجتمعنا، ولا هو يناسبه، والغريب أن هذا الفساد كثيرًا ما يأتي بيد بعض أبناء مصر، ممن ينجذبون لكل من يقول "قال الله وقال الرسول" دون تفكير، ودون فهم لحقيقة أنه إذا كانت العقيدة واحدة، وحدود الله واحدة، فإن الفقه يتغيَّر بالمكان والزمان، وإلا ما كان يظهر في عصر الأئمة العظام فقه للعراق "أبو حنيفة النعمان" وفقه للحجاز "الإمام مالك" وفقه لمصر "الإمام الشافعي"، وفقه للأندلس "ابن حزم"، رضوان الله عليهم. ذلك الفقه المستورد من الخليج ربما يتناسب مع مجتمع نشأته، لكنه لكي يمر إلينا يحتاج إلى كثير



المتعددة الهويات والانتماءات، والعالم به عشرات النماذج الناجحة لدول تحكم مجتمعاتها التعددية الثقافية والدينية والعرقية.

كيمياء الهوية واختباراتها

أما ما يحدث أحيانًا من "بروز" هوية معينة على السطح وتركيز أهلها عليها، فهو وليد ظروف وقتية معينة، في وضع أشبه بالتفاعلات الكيميائية بين مادتين أو أكثر، تنتجان رائحة أو لونًا معينًا هو في الأساس من مكونات الخليط كله، ولكنه برز لظروف معينة. هذا ما يحدث، فحين نأخذ المصري القبطي العربي المسيحي كمثال، فهو كل هؤلاء، ولكنه عند ظروف معينة يُبرز هويته الخاصة لمتطلبات الظرف، فهو عند الاعتداء على مسيحيته "مسيحي أولا"، وعند إهانة عروبته "عربي جدًّا"، وعند الإساءة لمصريته "مصري في المقام الأول"، ونفس الوضع مع المصري المسلم، فهو يُبرِز هويته وفق المعطيات، ولكن بشكل استثنائي ولو طال وقته، أما في الأساس فالقاعدة أنه مصري، بكل ما في ذلك من مكونات قبطية وعربية وإسلامية ومسيحية.

والاختبارات الحقيقية للهوية المصرية الجامعة للهويات الداخلية هي لحظات التحديات المشتركة للمصريين ككل، فلو نظرنا للتاريخ لوجدنا أن المواقف التي جمعت المصريين -بمختلف انتماءاتهم- أكثر من تلك التي فرّقتهم، منذ أن ثاروا على الضرائب الباهظة للخليفة المأمون، ووقفوا معًا - بتوراتهم وأناجيلهم وقرآنهم- على المقطَّم يصلون دعاءً لله أن يشفي حاكمهم المحبوب أحمد بن طولون، وواجهوا معًا -على اختلاف أعراقهم- الصليبيين والتتار، وعانوا ثقل ضرائب الباشا العثمانلي، ودكَّت بيوتهم مدافع الفرنسيس، ومزقت صدورهم رصاصات الاستعمار البريطاني، وبكوا معًا وهم يسمعون "عبد الحليم" يغني بحزن بعد نكسة 67 "عدَّى النهار"، وكلهم أنشدوا "الوداع يا جمال" في جنازة الزعيم، وهتفوا "الله أكبر" وهم يعبرون القنال، واشتكوا معًا من انتهاء زمن "الناس الأوادم" ومجيء طبقة الأثرياء الجدد Nouveaux riches بعد الانفتاح... هوت عليهم هراوات الأمن المركزي يوم انتفاضة الفقراء عندما أعلنت الحكومة إلغاء الدعم، وعانوا سنوات الخوف وانعدام الأمان خلال فترة انتشار الهجمات الإرهابية، شكوا معًا الغلاء والفساد، عانوا القهر والبطالة، وذابت كعوبهم في مشاوير بيروقراطية المصالح الحكومية، لووا الشفاه رفضًا للعدوان الأمريكي على



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – الهويات القاتلة: أمين معلوف.

4 – اختلال العالم: أمين معلوف.

5 – مواطنون لا ذميون: فهمي هويدي.

6 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

7 – المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية: المستشار/ طارق البشري.

8 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د. جمال بدوي.

9 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د. جلال أمين.

10 – شخصية مصر: جمال حمدان.

11 – هل نستحق الديمقراطية: د. علاء الأسواني.

12 – لماذا لا يثور المصريون: د. علاء الأسواني.



من التنقيح والمراجعة من فقهائنا؛ لكي يلائمنا، فمن شروط الفقيه الدراية القوية بالمكان والزمان الموجه إليه فقهه. (وأنا هنا لا أنتقد الحركة الوهابية، فهي حركة إصلاحية كان يحتاجها مجتمعها، ولكني أعترض على ما تحوَّلت إليه الآن من تشدد أعمى، وما حدث لنا من استيراد لهذا التشدد "على الجاهز" دون تفكير فيما إذا كان يلائمنا أم لا).

وأما هويتنا القبطية، فيفسدها بعض المنتسبين للأقباط من المهاجرين للخارج، ممن يصطادون في الماء العكر فيقيمون المناحات على ما يزعمون أنه "أفاعيل المسلمين في المسيحيين المصريين"، وما يعتبرونه "عصر الشهداء الجديد"، ويحاولون إثارة المجتمع المدني الغربي علينا.

لن أنكر أن للأقباط حقوقًا كثيرة مهضومة في مصر، ولكن دعونا نعترف أن هذا هو حال المصريين جميعًا بمختلف عقائدهم! ولا أجد ردًّا على هؤلاء سوى عبارة قرأتها لأخ قبطي يعيش في مصر على موقع BBC إذ قال لأحد أقباط المهجر: "أنتم تعيشون بعيدًا عن مصر منذ سنوات، كوَّنتم ثرواتكم وأسستم لنفسكم حياة، فلا تدَّعوا المعرفة بمجتمعنا أكثر منا، ودعونا نحن نتعامل مع مشكلاته!"، وأخ قبطي آخر علَّق على عبارة "المسيحيون مضطهدون في مصر" فقال بتلقائية: "والمسلمون كذلك!".

وأما الهوية العربية، فأفسدتها الرؤية الرومانسية المثالية أكثر من اللازم للتكامل العربي، وإغفال الاعتبارات العملية التي تحكم علاقات الدول ومصالحها وموازين قواها، فطالبوا مصر أن تندفع إلى عروبة أخرى غير عروبتها، عروبة قائمة على التنازل على طول الخط دون السؤال لحظة واحدة "وماذا عني أنا".

الخلاصة:

لكي نكون أبناء الهوية المصرية القبطية العربية الإسلامية يجب أن نبحث عن هويتنا فينا نحن، في موروثاتنا الدينية والثقافية والإنسانية، لا أن ننتظر من غريب عنا أو مهاجر منا أو حالم رومانسي بعيد عن الواقع أن يقرر لنا من نحن... وأن نركز في بحثنا على أننا جميعًا في النهاية... مصريون... فالمصري ليس إنسانًا فاقدًا للأهلية لتتنازع حضانته الهويات، بل هو صاحب قرار حر من حقه علينا أن نحترمه حين نسأله من أنت فيقول "إنسان... مصري" فقط... دون أن يحاول فلسفة الإجابة أو تحليلها بأمور ليس منها طائل له...



(١)

دون مقدمات... اسمح لي أن أسألك بشكل مباشر: "أنت تعيش في بلد عمره أكثر من 5000 سنة، تاريخه حافل ومزدحم بالأحداث والحقَب والعصور ذات الوزن الثقيل، فهل ترى –بصراحة– أن منهج التاريخ الذي درسته أو تدرسه خلال المرحلة المدرسية يتناسب مع تلك الحقيقة؟!".

ما سبب هذا السؤال؟ سببه أن أية دولة تحافظ على تاريخها تتعامل معه باعتباره جزءًا من قضايا أمنها القومي، انظر للأمريكيين واعتدادهم الشديد برموزهم الوطنية التاريخية، تابع الجدل بين الأتراك والأرمن حول مذابح الجيوش العثمانية في أرمينيا، تأمَّل حرص فرنسا على إبراز رموزها التاريخية المرتبطة بثورتها... هؤلاء القوم لا يعانون فراغ الوقت والعقل؛ لو كنت تحسب اهتمامهم بتلكٍ الأمور من قبيل ذلك، هؤلاء قوم اهتموا بتدريس تاريخهم لأبنائهم كما يجب، فتمكنوا من صنع حاضرهم بنجاح، والتخطيط لمستقبلهم ببراعة.

فماذا عنا؟ كيف درسنا التاريخ؟ وكيف يدرسه أبناؤنا؟

منهج الوزارة!

تأمل معي المُسَمَّى "منهج التاريخ"... الاسم نفسه له ثِقَل يجثم على النفس! وهو المنطبق عليه بشدة قول "أول القصيدة كفر"، فهو ليس "منهَج البحث في التاريخ"، ولا



تاريخنا... ما الذي فعلوه به... وبنا؟



ويتم تقسيمهم لفِرَق بحث تتنافس في تقصي الوقائع والأحداث من المراجع، مع تدريبهم أولًا على القيام بذلك بشكل سليم، مع ترك مساحة معقولة لهم لتنوُّع وجهات النظر؟

لكن للأسف بدلًا من ذلك يتحول التاريخ إلى "سَنة كذا حدث كذا" و"فلان إنجازاته كذا وكذا" و"النتائج المترتبة على هذا الحدث، وأسباب وقوعه كذا"... نصوص تُحفَظ "كما أُنزِلَت" تَبتَذِل التاريخ وتنزل به من مستوى "العلم الذي تستفيد به الأمة لتتعلم من أخطائها، وتستفيد من تجاربها الإيجابية" إلى مستوى "المادة النظرية البحتة" التي يُصبح أقصى ما يُطمَح إليه منها أن تكون "مُسلِّية" للطالب!

لو كان التاريخ بالفعل مادة نظرية، فمن أين أتى رجال مثل الأستاذ "هيكل" والدكتور جلال أمين، والراحل العظيم الدكتور عبد الوهاب المسيري؟ هؤلاء لم يكتبوا التاريخ من مكاتبهم المكيَّفة على مقاعدهم الوثيرة، بل تعاملوا معه باعتباره مجالًا عمليًّا يتطلب البحث والتنقل هنا وهناك؛ بحثًا عن الحقائق ليفيدوا بها أمتهم... ولو كان التاريخ علمًا نظريًّا لا يتجاوز الكتب، فكيف لعب رجل مثل "هيكل" دورًا فعالًا في عصر جمال عبد الناصر وبدايات عصر السادات، وكيف كان مؤرخ مثل "برنارد لويس" قريبًا من الإدارة الأمريكية في وقت قريب؟ المفترض بالمناهج الدراسية أن تتماشى مع الواقع، أو أن تخدم هدفًا قوميًّا، ولكن الواضح أن فرض الطابع النظري على التاريخ المُدَرَّس للطلبة لا هو بالمتماشي مع الواقع، ولا هو بالخادم للهدف القومي –إن كان ثمة شيء بهذا الاسم حاليًا– فأي هدف يخدم هذا المسخ لمادة التاريخ، تلك الكذبة التي كُذِبَت علينا وصدقناها للأسف؟

تاريخنا = نحن!

"إذا كان النسيان مصير كل شيء، لماذا نبني، ولماذا بنى أسلافنا؟ لماذا نكتب، ولماذا كتبوا هم؟ أجل، في هذه الحالة فما جدوى غرس الأشجار، ولم الإنجاب؟ ما فائدة النضال من أجل قضية، والحديث عن التقدم، والتطور، والبشرية، والمستقبل؟ فالإفراط في التعلق باللحظة المعاشة قد يحاصرنا بمحيط من الموت، وعلى العكس، فإعادة إحياء الزمان الغابر يوسِّع آفاق الحياة".

(أمين معلوف – رواية "بدايات")



"منهج تحليل التاريخ"، بل هو "منهج التاريخ"، هكذا دون تفاهم! فلا هو مجرد طرح لقضايا وترك حرية البحث فيها للطالب، ولا به مساحة للمتعلم ليختار تبني وجهة النظر هذه أو تلك من مختلف آراء المؤرخين، بل هو منهج مكتوب جرى العُرف على تسميته "منهج الوزارة" (وهي تسمية تقشعرُ لها الأبدان، عادة ما ينطقها المدرس بتفخيم، كأنه يتحدث عن القرآن أو الكتاب المقدَّس)، وعلى الطالب حفظ محتويات كتابه "من الجلدة للجلدة"، ولا يهم كثيرًا اقتناعه بما فيه من عدمه، المهم أن يُذاكره جيدًا ليقوم بـ"التسميع" في الدرس، وأن تكون كرَّاسته منظمة تحسبًا لأن "يطبّ" موجِّه المادة على المدرسة، وأن يقوم بـ"دلق" المعلومات في ورقة الإجابة يوم الامتحان! (أعتذر عن هذه التعبيرات العامية لكنها المستخدمة بالفعل... الأمر الذي أرى له دلالاته الباعثة للتأمل)؛ لأسباب كهذه ترتبط مادة التاريخ بالحفظ – والمواد الأدبية بشكل عام– حتى أن من يلتحق بالقسم الأدبي في المرحلة الثانوية يصبح مباشرة مدانًا بأنه يريد أن "يحفظ ولا يفهم"، وهكذا يصبح التاريخ موصومًا – بشكل غير مباشر– بأنه من تخصصات ضعاف العقول!.

لا عجب إذن أن يقول لي مؤرخ مصري كبير –الأول في مجاله– أنه كان يحصل على أضعف الدرجات في مادة التاريخ خلال دراسته المدرسية! والحقيقة أن هذه الطريقة "التلقينية" لتدريس التاريخ تزرع في ذهن الطالب رسالة سلبية تقول: "لا تُتعب ذهنك بمحاولة الفهم، فقط ذاكر ما بالكتاب، واتَّبع التعليمات، ودعْ عنك عناء التفكير؛ لتحصل على الدرجة الجيدة، وكفاك بهذا إنجازًا"... وبالطبع فإن هذه الرسالة لو وصلت لهدفها بدقة فإنها – مع الوقت – ستجعل الطالب شخصًا أبعد ما يكون عن القدرة على التحليل والتفكير في أي شيء بعد ذلك، وسيتحول إلى شخص سلبي يجيد "اتِّباع التعليمات".

المادة النظرية

من الصفات الظالمة المفروضة فرضًا على مادة التاريخ أنها "مادة نظرية"، كيف بحق الله يكون الأمر الواقع الذي ترتبت عليه وقائع تالية، ونتجت عنه تغيُّرات في الجغرافيا السياسية والسكانية، وتطورات في الثقافة والاقتصاد مجرد "شيء نظري" يقتصر تدريسه على "النظر" فيه؟ ماذا عن التطبيقِ العملي؟ أجل؛ فالتاريخ قابل للتعامل معه بشكل عملي من خلال البحث والتحليل، وتَعَلُّم التمييز بين السليم والخطأ من الروايات والوقائع... لماذا لا تتحول الدروس "النصوصية" إلى مجرد رؤوس لموضوعات تُطرَح على الطلاب،



(٢)

تحدثتُ عن سلبيات "شكل" التاريخ المقدَّم لطالب المدرسة، وكنتُ أتمنى أن تقتصر السلبيات على الجانب الشكلي، فقد كان هذا مما يخفِّف وطأة الكارثة -ولا يلغيها بالطبع- ولكن مع الأسف... ما هو آتٍ ذكره أسوأ بكثير!

طبقية التاريخ

المتصفِّح لمنهج التاريخ يلاحظ حقيقة مؤلمة هي أنه يقدَّم بشكل "طبقيّ" جدًّا! فمعظمه ينصبُّ على تاريخ الحكام والقادة ومن حولهم، وقليل منه يتحدث عن باقي طبقات الشعب، لقد عرفنا -من خلال الكتاب المدرسي- الكثير عن رمسيس الثاني والإسكندر الأكبر ومحمد علي ومصطفى كامل، ولكننا لم نعرف عن المصري البسيط العامي سوى أقل القليل، لا يتوقف كِتاب التاريخ عنده ليرينا كيف عاش هؤلاء، وكيف تفاعلوا مع محطيهم وظروفهم، إلا فقط حين يأتي ذكر الحروب والثورات، فيتحدث عنهم بشكل جماعي باعتبارهم "جماهير"، لكنه لا يتوغَّل في طبقاتهم المختلفة وتياراتهم المتنوعة، يتحدث بشكل عام فيصفهم خلال فترات القوة بأنهم كانوا "يعيشون في رخاء"، أو خلال عهود الظلم بأنهم كانوا "يعيشون في أسوأ حال"، ولكنه لا يقوم بعمل عرض عميق لماهية ذلك "الرخاء" أو "الشقاء" الذي كانوا فيه... هو يخلق عنهم صورة عامة ضبابية، ويضعهم موضع "المفعول به" الذي يتشكل بشكل القالب الذي يضعه فيه الزعماء والحكام.



تاريخنا -ببساطة- هو "نحن"؛ هو مَن كنا؟ ومَن نحن؟ وماذا سنكون؟ ليست دراسته ترفًا أو تسلية، أو مجرد أداء واجب؛ فطريقة تعامُلنا مع تاريخنا هي التي تحدِّد إلى أين نحن متَّجهون، وكيف سنتعامل مع الغد المجهول، بل كيف نتوقع كُنه هذا الغد، فنُزيل عنه صفة الجهالة، ولو بشكل جزئي يساعدنا على الاستعداد لما هو قادم، لكن ما يجري هو أن التاريخ يتحول من مادة يُفترَض أن تكون مؤثرة إيجابيًّا في عقلية الطالب، ومنشطة لمهاراته في البحث والمتابعة والتحليل لما يجري من حوله في الدنيا، إلى مجرد مادة دراسية أخرى كل الغرض من دراستها هو النجاح فيها؛ من باب التخلص منها ليس إلا! والفضل -ولا فضل- لطريقة عرضه وتدريسه، والسؤال هو: لماذا؟ إن التفسير لهذا التعامل غير المسؤول مع أحد أهم مكوناتنا الإنسانية يتراوح بين أمرين كلاهما خطير مؤلم: إما أنه من باب الإهمال وإهدار الطاقات الإيجابية الذي أصبح بمثابة "نمط حياة" في مصر، أو أنه تنفيذ لسياسة ما يعلم الله وحده من تخدم وإلى ماذا ستوصلنا...

هل يراني البعض أبالغ أو أهوِّل في المسألة؟ إن مجرد افتراض المبالغة في الدعوة لمعاملة أفضل لتاريخ أقدم وأعرق شعب في العالم هو مأساة تؤكِّد كلامي لا تنفيه!

هذا عن الجانب السلبي في "شَكل" مادة التاريخ...

فماذا عن سلبيات "المضمون"؟



كما أنها تزرع في ذهن الطالب -عبر أهم مراحل نموه الفكري- فكرة أن الكون كله يدور حول "القائد والزعيم والحاكم"، وأن هذا الأخير كائن أسطوري لا يخطئ، بل إن أية إخفاقات يتعرض لها أو تتعرض لها قضيته، إنما هي بسبب الخونة والمتآمرين، وإن مجرد التفكير في أنه ربما أخطأ التقدير أو أساء التصرف هو أمر مرفوض تمامًا... هذا إن كان التفكير فيه واردًا من الأساس!

احتكار السياسة للتاريخ

النقطة السلبية التي لا تقلّ خطورة هي احتكار التاريخ السياسي لأغلب صفحات كتب التاريخ، أما مساحة التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي فهي شديدة الضيق، فخلال المرحلة الثانوية -مثلًا- لا تتاح الفرصة للطالب أن يعلم عن التاريخ الثقافي سوى القليل، من خلال فصلين في منهج الصف الأول، تحدَّث أحدهما باختصار مُخِل عن الحياة الفكرية عند الفراعنة، بينما كان موضوع جزء من الآخر هو جهود رجال الدين المسيحي في العصر القبطي لحماية الهوية الثقافية لمصر من الغزو الثقافي الروماني ثم البيزنطي، وهذا الموضوع تم عرضه بشكل بسيط أكثر مما ينبغي لحقبة ثرية مؤثرة بشدة في تاريخنا كالحقبة القبطية! أما مرحلة الثانوية العامة فقد تضمّن منهجها فصلًا واحدًا فقط عن الحياة الثقافية للعرب خلال دولتهم الكبرى، لكنه كان شديد الاختصار بالنسبة لحضارة استمرت ثمانية قرون، وأهمل تمامًا عرض الحياة الثقافية للعرب فيما قبل الإسلام، رغم أنه موضوع ثري يستحق الدراسة. أما التاريخ الثقافي الحديث فقد تعرَّض لعملية إهمال تامة! وكذلك التاريخ الثقافي للعرب خلال فترات الحكم غير المنتمي لأصول عربية؛ كأسر السلاجقة والمماليك والعثمانيين.

ويمكننا أن نقيس على ما جرى للتاريخ الثقافي مصير التاريخ الاجتماعي وذلك الاقتصادي...

ذلك الظلم الفادح لمجالات التاريخ المختلفة يدمِّر إدراك الشباب بأهمية المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الحياة، الأمر الذي ينعكس على اهتمامهم بها مستقبلًا، ويجعل آفاقهم شديدة الضيق، ونظراتهم للأمور شديدة السطحية، وأعتقد أننا نستطيع أن نتخيَّل شبابًا بهذه المواصفات إلى أي مدى يمكن أن يكون تفاعلهم مع مجريات الحياة من حولهم مأساويًا!



تلك الطريقة لعرض التاريخ تؤثر سلبًا في إيمان الفرد بقيمته، وتزرع فيه ثقافة "القطيع"؛ حيث إنه مجرد واحد من "الجماهير الغفيرة"، يتحرك مع التيار ووفقٍ الخط المحدد له، الأمر الذي لا يجعل منه قوة فاعلة، ويؤكد أنه مجرد تابع لمتبوعين يتحكمون في مقدَّرات حياته بطريقة آلهة الأوليمب الإغريقية.

التركيز على الفرد المحرِّك

والحديث عن ثقافة القطيع التي يبثُّها منهج التاريخ يقودني للحديث عن ثقافة أخرى يزرعها نفس المنهج في نفوس الطلبة وهي "ثقافة الفرد المحرِّك"، فغالبًا هناك ذلك القائد أو الزعيم أو الحاكم الذي تتمحور حوله الأحداث والأشخاص، وهذا ربما يكون واقعيًا أحيانًا، ولكن ليس إلى الحد المعروض في المنهج، ثم إن هذا الفرد لم يكن ليصل إلى لمكانته أو ليقوم بثورته أو ينتصر في حربه -أيًا كان- إلا بتضافر ظروف وعوامل عدة مادية ومعنوية وبشرية وقدرية، فلماذا التقصير في عرض تلك العوامل وإرسال رسالة غير مباشرة للدارس بأن النجاح كان ثمرة كفاحه وجهوده هو وحده، وأن من حوله كانوا مجرد أحجار شطرنج، يحرِّكها هو بقوة شخصيته وعبقريته الفذة!

وما يزيد الطين بلة هو تقديم هذا الشخص باعتباره منزَّهًا عن الأخطاء، فهو دائمًا المثالي الكامل -مع أن الكمال لله وحده- وأي إخفاق يتعرض له إنما هو عن خيانة قريب أو تآمر عدوٍّ.

أنا أؤمن برأي أستاذي دكتور أحمد خالد توفيق بأن الرموز الوطنية ينبغي تقديمها بشكل لائق، وأن ذكر سلبياتها الشخصية يجب ألا يقدَّم إلا لأصحاب الثقافة التاريخية القوية، والخبرة الكافية في تناول التاريخ، لكي لا تهتزَّ صورهم أمام الناس، ولكنني هنا أتحدث عن السلبيات غير المشينة والمرتبطة بالعمل، كالخطأ في التخطيط أو التعرض للخداع أو إساءة تقدير الخصم، وهي من الأخطاء البشرية الطبيعية التي يقع فيها أغلب القادة والزعماء، بل يقع فيها الفرد العادي في مختلف مظاهر حياته اليومية، فلماذا نُنكرها وهي أمر واقع لا يسيء لصاحبه؟

إن مثل تلك الطريقة المتَّبعة دراسيًا في عرض الشخصية التاريخية البارزة إنما تؤدي لأثر عكسي، فتُفقِدها مصداقيتها وإنسانيتها، والمصداقية والإنسانية هما أساس علم التاريخ!

(٣)

أين ذهب تاريخنا؟

السؤال واضح: أين ذهب تاريخنا؟ تحدَّثتُ من قبل عمَّا تعرَّض له التاريخ من مسخ في مناهج وزارة التعليم، فأين ذهبت ثروات التاريخ المهدرة في واحدة من أسوأ الجرائم في حق الثقافة المصرية؟ كل ما تلقَّيناه -ويتلقَّاه الطلبة- هو قشور التاريخ... وبعض الفترات سقطت كليًا -أو جزئيًا- من الحسابات.

فلو تناولنا مثلًا التاريخ القبطي، كيف يمكن لبلد وُلِدَت به ثقافة راقية ومتميزة كالثقافة القبطية، وما زال كثير من المصريين يمارس بعض مظاهرها -حتى لو دون علم بأصولها- أن يقتصر نصيبها من العرض على فصل صغير في منهج التاريخ للصف الأول الثانوي؟! وكالعادة ينسى الطالب بعد الامتحانات كل شيء عن التاريخ القبطي والثقافة القبطية، ولا يتبقى منهما في ذهن الشاب سوى "بيض شم النسيم"! فأية مهزلة هذه؟ والمؤسف أنني حين كنتُ أتحدث مع شاب مثقَّف متعلِّم عن تلك المشكلة قال لي بكل حزم: "مصر دولة إسلامية!".. وهو معذور، فهذا الشاب واحد من الملايين من أجيال لم يُبذَل معهم أدنى جهد ليعلموا أن "قبطي" تعني "مصري" بغضِّ النظر عن الديانة! وأن إهدار الثقافة القبطية يعني ضرب الثقافة المصرية!

وأما عن سيناء فهي كذلك مظلومة، فالبوابة الشرقية، ورابطنا بآسيا، والأرض التي ارتوت من دماء شهدائنا، لا يدرس الطالب عن تاريخها أي شيء، ولا يعرف عن أهلها سوى أنهم من قبائل البدو؛ لا شيء عن تاريخها، ولا ثقافة أهلها، ولا تغيُّر تركيبتها



ختام الجزء الثاني

عندما أنتهي من كتابة المقاطع السابقة في مقالي هذا وأتأملها أجدني أتساءل بمرارة: هل من المعقول أن يدرك شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره ما لم تدركه القيادات التعليمية والتربوية في الدولة، من آثار سلبية لعملية شديدة الأهمية والحساسية كتدريس التاريخ الوطني والقومي لطلبة في مرحلة النمو الفكري والعقلي؟ أنا لا أراني بهذه العبقرية، كما لا أراهم بهذه الغفلة... الأمر الذي يدير رأسي من الحيرة، وأنا أبحث عن إجابة لسبب عدم وجود تعامل إيجابي من أصحاب القرار مع هذه السلبيات! أنا لا أريد افتراض سوء النوايا، ولكن فلتعطوني مبررات تُغلق الباب على افتراض وجود تعمُّد لذلك!

وليت السلبيات تتوقف عند تلك التي ذكرتها... بل مع الأسف... البقية تأتي!



السكانية، ولا تطوُّر وضعها بالنسبة لمصر، ومع الأسف ما يُفسده التجاهل المدرسي تزيد عليه بعض وسائل الإعلام في إظهار أهلها –ظلما– أنهم مجرَّد أعراب أجلاف يبيعون أنفسهم لمن يدفع أكثر! وهكذا انقسم الطلبة بين من يسيء الظن بتاريخ سيناء، ومن يعتبرها منطقة خالية من التاريخ، ومن لا يهتمُّ أصلا بوجودها على الخريطة!

والجريمة تتكرر في حق كل من التاريخ النوبي والثقافة النوبية، فعندما شكا لي صديقي الأديب النوبي "حجاج أدُّول" من أن هناك تجاهلًا في المناهج الدراسية لتاريخ الأسرة الخامسة والعشرين النوبية التي حكمت مصر خلال العصر الفرعوني، ولعبت دورًا كبيرًا في حماية مصر من الخطرين الفارسي والآشوري، حسبته يبالغ في افتراض تعمُّد ذلك، ولكني حين نظرتُ في مناهج التاريخ وجدته على حقٍّ تمامًا... بل إنني وجدتُ أنه لا شيء في التاريخ المدرسي يتحدَّث عن النوبة وتاريخها وثقافتها، رغم أنها جزء مهم من الثقافة المصرية والأمن القومي المصري، وهي الواصلة بين مصر وإفريقيا... هناك تجاهل تامٌّ للتاريخ النوبي، وكأن النوبة منطقة لا تنتمي لمصر (ومع الأسف هذه فكرة يؤمن بها الكثيرون!!)... والأمر بالفعل يبدو متعمَّدًا، فلا معنى لتجاهل أسرة لا يقلُّ دور ملوكها في مقاومة غزو مصر عن دور ملوك مثل "سقنن–رع" و"كاموس" و"أحمس" في مقاومة الهكسوس، إلا أن يكون ذلك بالفعل متعمَّدًا، أو هو إهمال تصل جسامته إلى حدٍّ لا يقل عما إذا كان متعمَّدًا!

التاريخ الشعبي... والتاريخ بأقلام المثقَّفين المعاصرين

وثمة سؤال آخر: أين ذهب تاريخنا الشعبي؟ إن كل ما ندرسه ينتمي لمدرسة "التاريخ الرسمي"، فماذا عن الرؤية الشعبية للتاريخ، التي تُعتبر أحد أهم فروع علم التاريخ؛ حيث إنها تعطيه ذلك الطابع الإنساني؟ إن الرؤية الشعبية للأحداث هي جزء مهمٌّ من جسم التاريخ، فكيف يتمُّ تجاهل عرضها، مهما كان ما فيها من اختلاف عن الوقائع الرسمية أو الأحداث المؤرَّخة الموثَّقة؟

كذلك رؤية المثقَّفين المعاصرين للأحداث، لماذا لا نجد لها مكانًا في كتب التاريخ المدرسي؟ هل هي مما يتم التعامل معه باعتباره زيادات؟ أم إن الاختلاف الغالب بين كلٍّ من الكتابتين الرسمية والحرة للتاريخ يُخشَى من أنه قد يجعل تفكير الطالب يتشكل خارج القالب المرغوب في وضعه، بل وحبسه فيه؟! بحقِّ الله، كيف يمكن أن يجتمع

لدينا في عصر واحد مجموعة من أهم المثقَّفين والممارسين للتأريخ أمثال د.جلال أمين، د.قاسم عبده قاسم، د.عبد الوهاب المسيري، الأستاذ محمد حسنين هيكل، الأستاذ فهمي هويدي، الأستاذ جمال الغيطاني، والمستشار طارق البشري، وهُم مَن هُم في العلم والأمانة، دون أن يتم استغلال وجودهم لعرض رؤيتهم للتاريخ المصري الحديث؟ أم إن انتماءاتهم السياسية قد تحول بينهم وبين ذلك؟ هل يرى واضعو ومنفِّذو السياسة التعليمية أن كتاب التاريخ المدرسي أقلُّ شأنًا من أن يشترك في وضعه هؤلاء، أم إن انتماء أفكار بعضهم للتيار المُعارض قد تضرُّ بالمسار المرغوب في توجيه الطالب إليه، والقالب المراد حبسه فيه؛ ليخرج مواطنًا صالحًا يجيد "سماع الكلام"؟!

مركزية التاريخ

ذلك التعامل الظالم مع الثقافات الخاصة –المكوِّنة للثقافة المصرية العامة– والرؤَى المختلفة عن الرؤية الرسمية، لا يمكن وصفه إلا بأنه تدعيم لـ"مركزية الثقافة" أو "ثقافة المركزية" (التعبيران مختلفان لكنَّ كليهما يصف الأمر بدقة) بحيث تصبح القاعدة المزروعة عبر مراحل التعليم المتتالية في عقل الطالب هي وجود مركز واحد رئيسي تخرج منه الرؤية الأحادية للتاريخ وللوقائع بشكل عام (والدليل مثال تجاهل الرؤى غير الرسمية)، وهو كذلك مركز الأحداث بحيث لا تهمُّ أية أحداث لا تخرج منه وتنتهي إليه (والدليل مثال تجاهل الثقافات الفرعية والتركيز على التاريخ المركزي)، هذه الفكرة تدعو إذن لتحويل المركز/ المؤسسة الحاكمة/ العاصمة –أيًّا كانت المسميات– لتكون هي "قبلة" التفكير الوحيدة، والمصدر الحصري للحقائق! وأن التاريخ يقتصر على ما يتعلق بهذا "المركز" دون ما سواه!

الأثر المدمِّر

هذه الفكرة المدمِّرة تؤدِّي بالتالي لسحق "ذاتية" و"خصوصية" الفرد والجماعات البشرية والتيارات الفكرية والسياسية المكوِّنة للمجتمع المصري كله، فهي تضع هؤلاء بكل ما يتعلق بهم من تاريخ وثقافة واتجاهات فكرية في مفرمة تحطِّم كل هذا، ولا تترك لهم سوى الانتماء لـ"القطيع" التابع للمؤسسة الحاكمة! ولها أثر جانبي أكثر ضررًا هو

أن أصحاب الثقافات الخاصة (الأقباط - النوبيّين - السيناويّين) قد تظهر بينهم تيارات تفقد انتماءها للمجتمع المصري، وتحاول أن تخلق لها انتماءً خاصًا حول هويتها الخاصة على حساب الهوية المصرية العامة!

هذا بالطبع فضلًا عن أن من ينجو بنفسه وبعقله من الانغلاق الذي يصاب به الدارس للتاريخ المدرسي، ويقرأ في التاريخ خارج المناهج الرسمية، يصاب بفقدان الثقة في المنظومة التعليمية ومن يوجّهونها، وهذا ليس بالشيء المطلوب في دولة تحاول أن تكون نامية!

ختام الجزء الثالث

هل ترى -عزيزي القارئ- لأي حَدٍّ يصل ضرر طريقة تعامل المؤسسة التعليمية -إن كان يجوز لنا تسميتها بذلك- مع منهج التاريخ المدرسي؟

صدقني... أنا لا أبالغ، فكتاب التاريخ الذي درسته/ تدرسه، ليس مجرد أوراق بين جلدتي غلاف!



(٤)

هل ما ندرسه في التاريخ – منذ بداية أولى مراحل التعليم لنهاية آخر مراحله– يخرج عن نطاق التخدير الخبيث للعقل، والحبس في ماضٍ تمَّ فصله بالقوة عن الحاضر المرير، والتوجيه عن بُعد لاتجاهات وأنماط من التفكير تجعل العقل محبوسًا في صندوق مغلق بقفل ثقيل؟

كل المظاهر تقول غير ذلك، تقول إن مادة التاريخ المدرسي قد تحوَّلت إلى سجن للعقل والوعي... ولننظر معًا...

عَدَم التناسُب

مصر دولة مرَّ عليها –منذ ميلادها– 48 نظامًا حاكمًا (فراعنة وإغريق ورومان وعرب ومماليك وجمهوريين... إلخ) وحكمها حوالي 600 حاكم ما بين ملوك وولاة وسلاطين وخلفاء ورؤساء من مينا حتى مبارك، وخلال أكثر من سبعة عصور كانت مركز حكم إمبراطورية تشمل المشرق العربي كله... تغيَّرت ديانة أغلبية سكانها ثلاث مرات، وتغيَّرت لغتها السائدة ثلاث مرات، تعرَّضت لمحاولات الغزو عشرات المرات، واحتُلَت بالفعل أكثر من سبع مرات، وحدث اندماج اختياري بينها وبين شعوب انتقلت إليها – في شكل هجرات أو سيطرة على الحكم برضا الشعب– أكثر من خمس مرات، فضلًا عن وجود تمثيل لجميع أجناس وأعراق الأرض في شعبها!

ما الذي درسناه من عناصر قيام واستمرارية وتَغيُّر وتَبدُّل كل تلك المكوِّنات المهمة للمحتوى التاريخي المصري؟ تقريبًا لا شيء، مجرد كلام إنشائي عام عن عوامل قيام أو سقوط هذا النظام أو ذاك، في غير تناسب مع واقع يقول بنسبية النظر للعهود، وبديهية الاختلاف بشأن تقييماتها في ميزان التاريخ!

بالإضافة إلى ذلك يتمُّ التعامُل مع الحقب والأنظمة المختلفة بطريقة "هذا طيب – هذا شرير... هذا أبيض – هذا أسود"، أي بسطحية مطلقة لا تحليل فيها ولا تقييم ولا عرض موضوعي للسلبيات ولا الإيجابيات، وبشكل مُسَيَّس يصل بالطالب في النهاية إلى أنه من بين كل تلك الحقب والعصور يعيش أزهاها وأفضلها وأعظمها (!!) وطبعًا لا داعي للتفكير ما دام واضعو المنهج قد "أعفوا" الطالب من هذه المشقة!

أما عن المحتوى فهو كذلك غير متناسب مع ثراء وخصوبة المادة المكوِّنة للتاريخ المصري؛ فالطالب لا يدرس سوى "قشور التاريخ" بالمعنى الكامل لهذا التعبير! مناهج التاريخ في مختلف المراحل ما هي إلا تكرار لنفس الأفكار، ولكن بأشكال مختلفة، كما القول المأثور: "كل الطرق تؤدي إلى روما"!

و"روما" هنا هي الهدف من كل ذلك وهو "تحجيم" ذلك الأثر القوي للتغلغل في التاريخ، وتأمل أدقّ تفاصيله وتقليبه على الأوجه كافةً، ذلك الأثر الذي هو تدريب العقل على جمع المعطيات، وتركيبها كما يتم تركيب صورة لعبة الـPuzzle وصولًا للحقائق، وما يترتب على ذلك بالتبعية من أن تكون للفرد مواقفه الخاصة الحرّة من التحكم والتسيير عن بُعد!

بمعنى أدقّ التاريخ قد تحوَّل على يد من يضعون سياسة تلك المناهج إلى عملاق مقيَّد مربوط في ساقية مُكمَّم الفَم، لا يُسمَح له بالحركة إلا في دائرة الساقية؛ لأنه لو تحرَّر فسينطلق وينتزع كمامته، ويبوح بمكنوناته؛ ليفيق الجميع من خَدَرهم!

القوالب الجاهزة

ومن طُرُق تخدير العقل المبثوثة في ذلك المنهج فرض القوالب الجاهزة لكل شيء، لتفسير الأحداث، ولوصف مواقف مصر، وتبرير السقطات.. فبالنسبة لمصر فهي دائمًا: القائدة – الكبيرة – الرائدة – الزعيمة – المؤثِّرة – المساعدة لأشقائها – الثائرة على



العدوان – المناضلة – المكافحة..

وبالنسبة للأحداث فدائمًا هي محور الأحداث العالمية، وسبب كل التحرّكات الدولية، واللاعب الرئيسي في أغلب المباريات السياسية!

وعن السقطات فهي دائمًا مُبرَّرَة بـ: "مؤامرات العدو الغادر"، أو "حقد الخصوم على تفوّق مصر"!

وطبعًا "قوالب" الماضي تنحسب على الحاضر، وتتحوّل تلقائيًا إلى قوالب أبدية الصلاحية للاستخدام "غير الآدمي"!

وطبعًا –كذلك– لا يوجد فصل في الوجدان الجمعي للمصريين بين "الدولة" و"النظام"!

كل تلك القوالب عبارة عن قيود على العقل تجعله يستمرئ ويستسهل عدم التفكير وإيجاد التفسيرات الجاهزة لأية متغيّرات تصيب المجتمع، وهي عادة من النوع الذي يبرّئ الدولة –أو قيادتها تحديدًا– من أية مسئولية عن الكوارث والتخلّف والفساد والخسائر التي تصيب مصر! باعتبار أنها تمثّل الخير المطلق والكمال الفذّ، بينما كل أسباب إخفاقاتها تأتي من الخارج!

الأمر يُذكّرني برواية "جورج أورويل" 1984، عندما كان النظام الحاكم يُدير مؤسسة خاصة بتزوير التاريخ والأخبار، لتسود فكرة أن كل شيء "تمام"، وأن كل ما يصيب الدولة من كوارث إنما هو من أعداء الوطن الخارجيين أو "القلة المندسة العميلة" في الداخل!

خلاصة القول

قراءة التاريخ ليست مجرد تسلية، بل وسيلة لمعرفة موقعنا من الإعراب في جُملة تاريخ الإنسانية؛ فنحن قد أدمنّا تخدير أنفسنا بأننا كنا في الماضي نمثّل المبتدأ المجيد في الجُملة، بينما واقعنا الآن يقول إننا قد أصبحنا خبرها الأسود!

وهكذا تحوّلت دراسة التاريخ –على يد البعض– إلى "أفيونة" تُخدِّرنا بخمر الماضي، وتلهينا عن حقيقة أنّ "كان" تُستَخدَم إلا للأفعال الماضية، حتى وإن حاولنا إجبارها على القيام بعمل أفعال المضارع بالقصور الذاتي!



العلم الذي كان قديمًا وسيلة لإثراء العقل واستفزازه، أصبح على يد القائمين على ما يُسَمَّى "العملية التعليمية" وسيلة رخيصة لتكبيل العقول، وتضييق الخناق عليها!

الطالب يدرس لمدة 13 سنة ثم يخرج –غالبًا– وهو يجهل عن تاريخ بلاده أبسط البديهيات! ومن لا يجيد الحكم على الماضي من خلال تأمل معطياته، لا أمل في قدرته على اتخاذ موقف إيجابي مع مستجدّات الحاضر، فضلًا عن فهمها من الأساس! هذه حقيقة من المؤكَّد أن القيادات التعليمية تعرفها، وكذلك القيادات السياسية، فلماذا – بحق الله– لا يوجد تحرُّك إيجابي حقيقي مسؤول للتعامل مع تلك الأزمة؟! لماذا هذا التعامل الرخو المستفز بلسان حال يقول: "ليس في الإمكان أفضل مما كان"؟

أتذكَّرُ هنا مجددًا قولًا يُكرِّره صديق عندما نتحدَّث عن قضية سياسية يحيطها الغموض وتستفزُّ الارتياب: "ماحدش فاهم حاجة خالص!".

فهل هذا هو الهدف في النهاية؟!

أفيدونا أفادكم الله... أو ليكن لسوء الظن سببه الوجيه!



حرب العولمة...



(أ)

إيطاليا – جنوه 2001

توترت يد شرطي مكافحة الشغب (لويجي) على عصاه وهو يتطلع لجموع غفيرة من المتظاهرين الشباب أمام مقر القمة السنوية لمجموعة الدول الثماني الكبرى. هتافات تتهم الثمانية الكبار بالمسؤولية عن الإيدز والاحتباس الحراري والفقر بالذات في أفريقيا السوداء، لافتات تحمل عبارة "اجعلوا الفقر تاريخًا منقضيًا"، و"انقذوا كوكبنا البائس"، و"العولمة غول يفترس ثقافات الشعوب وحرياتها ويدوس على المهمشين"، تلفت نظره العبارة، يحاول أن يحللها ويفكر فيها، ولكن تقاطعه إشارة من قائده أن يسارع بقيادة فرقة تلتحم بالمتظاهرين وتقبض على بعضهم على سبيل "التهويش..."

يسرع (لويجي) بتنفيذ الأمر دون أن يفكر لحظة واحدة أنه واحد من هؤلاء المهمشين الذين انطلقت التظاهرة لأجلهم! مجرد "شَغِّيل" آخر يحركه أصحاب "الأجندات السعيدة للعالم" لإسكات صيحات المعترضين الذين اندلعت المواجهات بينهم وبين الشرطة، مما أسفر عن مقتل شاب عمره 23 عامًا كان كل حلمه أن يجد لنفسه مكانًا كريمًا تحت الشمس.

إيطاليا – جنوه 17 من يوليو 2001... تذكر جيدًا هذا التاريخ، فمن بعده قررت قيادات الدول الثماني الكبرى ألا تعقد قممها في المدن الرئيسية؛ خوفًا من ثورة الغاضبين، وقامت إيطاليا بتعليق عضويتها في اتفاقية "شنجن" التي تنص على انتقال من يحمل تأشيرة دخول دولة أوروبية إلى الدولة الأخرى ببساطة؛ خوفًا من سهولة انتقال



المتظاهرين منها وإليها عبر الحدود. السادة الكبار أدركوا أن هناك "اعتراضات" و"ثورة" و"جمهور غاضب"... فاختصروا حل المشكلة في نقل اجتماعاتهم الأنيقة بعيدًا عن كل "هؤلاء"، الأمر الذي يعكس مستوى الذكاء الذي بَلَغه البشر!

"أحاول أن أشرح حقيقة العولمة وبعض مخاطرها، بما تتضمنه من تهديد لسعادة الإنسان ورفاهيته وشعوره بالاستقرار والطمأنينة، وتهديد لشعوره بالرضا عن نفسه المستمد من احترام هويته وتفرده. هذه المخاطر التي تأتي مما يسمى بثورة المعلومات، ومن اكتساح قيم المجتمع الاستهلاكي، ومن انتشار ما يمكن تسميته بحضارة السوق، إن تحويل كل شيء إلى سلعة كلها من مظاهر العولمة!" د. جلال أمين - كتاب "العولمة"

القاهرة 2010:

تطلع (كريم) في ضيق عبر النافذة المغلقة للتاكسي المكيَّف إلى السيارات المتكدسة- بالمعنى الحرفي للكلمة- في الميدان، نظر لساعته مدركًا تأخره عن موعده مع رفاقه "جمال" و"بلال" و"يوسف" -الذين تحولت أسماؤهم بقدرة قادر إلى "جيمي" و"بيلي" و"جو"- أخرج الـI-phone -الذي لا يستخدم ثلاثة أرباع إمكانياته- أرسل لـ(جيمي) رسالة نَصُّها: 7at2akhar 7abba keda..traffic is like hell!، ثم وضع سماعتي الهاتف في أذنيه مستسلمًا لصخب موسيقى الـheavy metal وهو يلقي نظرة لا مبالية على لوحتين إعلانيتين شديدتي الضخامة لـCoca-cola و Mc-Donald's تمتطيان -بشكل أقرب للكوميديا السوداء- مبنيين كبيرين في الميدان القاهري المعروف -يا للسخرية- باسم "التحرير"!

من أين نبدأ الحديث؟

"العولمة"، دعونا لا نتسرع ونحكم عليها بأنها شر مطلق أو خير صاف، فالحياة أعقد من تلوين الأشياء بالأبيض الناصع أو الأسود "الغطيس"! فمشكلة الحَديث عن العولمة أنه -غالبًا- إما إنذار ووعيد وترهيب باعتبارها "المسيخ الدجال" الجديد القادم ليملأ الأرض فسادًا وجورًا، أو تبشير ودعاية وردية باعتبارها الطريق لكي تصبح الأرض مكانًا أفضل؛ حيث الذئب والحَمَل يرعيان معًا، والحية طعامها التراب.



والمنطق يقول إن كل ظاهرة لها سلبياتها وإيجابياتها، كل ظاهرة مهما كانت، حتى لو بدت شرًّا خالصًا أو خيرًا نقيًا، بها من المميزات والعيوب، وإنما يتحدد موقعها من نفع البشرية أو الإضرار بها من أمرين: غلبة مميزاتها على عيوبها أو العكس، وطريقة تطبيقها من القائمين عليها.

ولأن للعولمة أكثر من جانب يختص به أكثر من مجال، فإني سأتناولها من المجال الذي أستطيع تناولها منه، أعني التاريخ. ولن أتناول "العولمة" بالمعنى الأكاديمي بل في المقام الأول بالمعنى الإنساني، منذ بدايات ظهور فكرة "ضم العالم في بوتقة واحدة" في العقول البشرية... ولكن لنستعرض ذلك علينا أن نسأل أنفسنا: كيف كان شكل العالم قبل ظهور الفكرة سالفة الذكر؟ أو بشكل أكثر دقة: كيف كانت نظرة أسلافنا لـ"الآخر" قبل ظهور فكرة الاندماج معه؟

ذلك "الآخر"

نحن الآن على بُعد آلاف السنين من 2010، في معبد فرعوني على ضفاف النيل، يجلس الكهنة الشباب بين يدي كبير كهنة آمون الذي يقول لهم: "نحن –المصريون– أبناء الآلهة، وباقي الأمم من أبناء أعدائهم... نحن الذين طهرتهم الشمس، والآخرون نَجَس، وإن كان علينا التعامل معهم، فبحذر وحيطة، فنفوسهم المجبولة على الشر تطمع فيما بين أيدينا".

تجيبه بعد زمن دعوة إخناتونية إلى توحيد الشعوب تحت الأيدي الكريمة لآتون، إله الجميع بالمساواة، ولكنها تُخنَق وتُدفَن تحت أنقاض مدينة "أخيتاتون" –مدينة إخناتون المقدسة– بأيدي الكهنة ورجال الجيش وكل من رفض فكرة أن يتساوى المصريون أبناء النيل والشمس الأطهار مع جيرانهم الذين لم تطهرهم الشمس ولم يخلقوا من طمي "حابي".

يقطع خط التاريخ سيف آشوري ملوث بدماء "الأمم التي لم تتعلم حب الإله آشور العطوف"، حيث خرجت من المملكة الآشورية الجحافل لتنفذ وصية الإله بمهاجمة "الآخرين" وإعمال السيف فيهم وأخذ أصنام آلهتهم لتوضع بين يدي الإله آشور، وقد كُتِبَ عليها أنها صارت أسيرة لديه بأيدي أبنائه الذين كُتِبَ عليهم الخروج كل شهر "تموز/ يوليو" من كل عام لتأديب "الأمم" وتعليمها فضل الآشوريين على من سواهم!

ننتقل عبر الزمن والمكان إلى اليونان حيث كان رجل وقور يقول: "أشكر الإله الذي



خلقني يونانيًا لا بربريًا، حرًا لا عبدًا، رجلًا لا امرأة".

هذا الرجل الذي صنَّف الجنس الراقي إلى "يوناني" ومن سوى اليونانيين إلى "بربري" اسمه "أفلاطون"! (وأنا لا أقصد الانتقاص من شأن هذا الرجل العظيم، ولكنني أعرض لشكل تصنيف الآخر آنذاك، فهو في النهاية ابن بيئته، وكذلك الكهنة المصريون).

أما في أرض فلسطين، وعلى مسافة قرون وكيلومترات من "طيبة" و"أثينا" و"آشور" جلس كهل ملتح في ظل خيمة بـ"حبرون/ مدينة الخليل" بأرض فلسطين، يملي تلاميذه: "نحن أبناء الربِّ وأحباؤه، نحن من سينام في حضن إبراهيم عندما يأتي ملكوت السماء، ونُدينُ الأمم أمام الله، نحن من اختارنا الله لنكون شعبًا مختارًا" سرح، وقد تذكر عهدًا قريبًا كان فيه معه أهله سبيًا في أرض بابل حتى خلصهم الفُرس وأعادوهم لفلسطين، ثم أردف "نحن الناس ومن سوانا أمم يسلطنا الرب عليهم بالسيف والنار، ذبحًا نذبحهم ونسوي بيوتهم بالتراب لنقيم ملكوت السماء الذي وُعِدنا به". يسأله تلميذ: "أليسوا بشرًا مثلنا يا سيدي؟" فيبتسم الرجل بإشفاق من جهل تلميذه وحداثة خبرته: "وقد يكونون بشرًا... ولكنهم ليسوا مثلنا"..

نقطة اعتراضية

هكذا كانت كل أمة تنظر لمن سواها، وإن لم يمنعها هذا من إقامة روابط التبادل التجاري والثقافي والاجتماعي معها، فإن كان في الإنسان تشدد في مساواة الآخر بنفسه، فهذا التشدد قد تلينه المصالح أو لمحات عابرة من التفتح العقلي... ولأن تطور مجالات الحياة يفرض تطورًا وتوسعًا في نطاق المصالح المتبادلة، فقد كان لا بد أن يأتي يوم تبتلع فيه مرونة طلب المنفعة ذلك التعصب للذات، ومع الوقت، كان لا بد من ظهور تصنيفات جديدة للآخر -في ضوء مزيج من المصالح والتفتح العقلي- تتدرج من أن "التعامل مع الآخر شر لا بد منه"، ثم "الآخر ليس بهذا السوء"، وبعدها "الآخر يمكن أن يكون صديقًا لنا"، انتهاءً بـ"فلنندمج مع الآخر ونحول العالم لقرية كبيرة!"..بمثل هذه المبادئ بدأ المشرعون اليونانيون يفكرون في قوانين لحماية حقوق الأجانب والعبيد، وتقبل المصريون وجود جاليات إغريقية كبيرة في بلادهم -قبل مجيء الإسكندر- وتحالفت المملكة اليهودية أحيانًا مع العرب والمصريين...



العولمة تُطلِق صرخة ميلادها

على مسافة زمنية ومكانية من كل هذا... وقف المهندس اليوناني "دينوقراطيس" في قرية مصرية للصيادين -على ساحل البحر المتوسط- اسمها "راقودة"، يتلقى التعليمات من قائد يوناني مغامر قرر أن تكون في تلك البقعة مدينة تحمل اسمه، ينطلق منها حلمه في جمع البشر تحت راية حضارة إنسانية واحدة تمزج بين ثقافات الشرق والغرب والشمال والجنوب، ويتحول فيها الإنسان إلى مواطن عالميّ في دولة عالمية واحدة، عاصمتها تلك المدينة... الإسكندرية!



مصادر المعلومات:

1 – العولمة: د. جلال أمين.

2 – عولمة القهر: د. جلال أمين.

3 – ماذا حدث للمصريين: د. جلال أمين.

4 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

5 – أسياد الجريمة: جان زيجلر.

6 – محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

7 – قصة الفلسفة اليونانية: د. زكي نجيب محمود.

8 – اللاهوت العربي: د. يوسف زيدان.

9 – العالم الهيللينستي: فرانك ولبانك.

10 – الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والروماني: د. أبو اليسر فرح.

11 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د. عمر صابر عبد الجليل.

12 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

13 – الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: د. إسرائيل شاحاك.

14 – فلاسفة أيقظوا العالم: د. مصطفى النشار.

15 – أساطير الصهيونية: جون روز.

16 – أساطير اليهود: لويس جنزبرج.

(٢)

تخيل...

أنت تقف في النقطة (أ) والطرف الآخر يقف في النقطة (ج)، من العبث أن تطلب منه الانتقال لنقطة وقوفك ومن الظلم أن يطالبك هو بالقدوم إليه، وهذا لا يعني استحالة اتصالكما طالما وُجِدَت بينكما نقطة (ب).

ولكن حل مشكلة الالتقاء لم ينته بعد، فما زال مع كل منكما "حقائبه وحموله" التي لا يمكنه الاستغناء عنها، مما يعني أن علَيكما -بالتساوي- تبادل احترام تلك "الممتلكات"، وتقبل وجودها في نقطة اتصال واحدة تمهيدًا لإمكانية مزج بعضها ببعض؛ لتتحول من "ملكيتي" و"ملكيتك" إلى "ملكيتنا"، هذا هو شكل ومضمون العولمة العادلة القائمة على احترام الآخر والبحث الجدي عن سُبُل للانسجام معه...

هذه كانت رسالة الإسكندر الأكبر...

وقفة تأملية:

أنت الآن تسير في منطقة "محطة الرمل" بالإسكندرية، تأمل معي المباني، وسترى جيرة طيبة بين الطرُز الإيطالية والإسلامية والقوطية والإنجليزية، وحتى الطراز الخرساني المكعب القبيح الذي يبدو بينها صعلوكًا في دار الملوك.



ولو انتقلنا بالزمن لفترة ثلاثينيات القرن الماضي، ودخلنا الأزقة الضيقة لأحياء مثل اللبان وزنانيري والمنشية لرأينا بابا دوبلوس اليوناني يُقدِّم الشاي لحميدو المصري، الذي يشير بالتحية لباولو الإيطالي، الذي ربما كان عائدًا لتوّه من محل بشارة اللبناني، ولسمعت مزيجًا من اللكنات المصرية والشامية والإيطالية واليونانية والأرمنية في أنشودة تبادل التهاني بالأعياد بين المسلمين والمسيحيين واليهود من مختلف المذاهب.

تأمل معي هذه اللوحة الكبيرة وقف معي احترامًا للعبقرية التي وضعت بذرة تلك الطبيعة الكوزموبوليتانية المتسامحة في تلك البقعة منذ أكثر من 2300 سنة بذكاء ساهم -مع باقي المعطيات الطبيعية للمكان والناس- في استمرارها ليومنا هذا، كنموذج صغير للعالم الكبير كما يجب أن يكون!

وتذكَّر معي أن هذا البلد كان نموذجًا مصغَّرًا للعولمة كما رآها ونفَّذها الإسكندر الأكبر...

رجل سابق لعصره:

عبقرية شخصية الإسكندر تتجاوز براعته كقائد أو توفيقه كفاتح للعالم القديم إلى حكمته كصاحب رؤية لتأسيس دولة عالمية واحدة تنصهر فيها حضارات الشرق والغرب في حضارة واحدة هي "الهيللينيستية"، الابنة الشرعية لتزاوج الحضارة اليونانية "الهللينية" بالحضارات الشرقية، مصرية وعراقية وسورية وفارسية وهندية.

ربما يقول البعض إن الإسكندر مجرد فاتح كغيره، أو إنه قد خرج في الأساس للانتقام من الفُرس الذين استباحوا بلاد اليونان قبل زمن، ولكن يُرَد على أصحاب القول الأول بأن الإسكندر لم يصدر عنه سلوك الفاتحين أبناء عصره من سبي وجمع شره للغنائم واستنزاف للثروات، فضلًا عن أنه لم يتعامل مع المناطق المفتوحة على أنها "مستعمرات مقدونية" بل اعتبرها "من أراضي الدولة الجديدة" وأبناءها "رعايا الدولة" لا مجرد "شعوب مقهورة"، والدليل أنه تعامل مع المكوّنات الحضارية والإنسانية لتلك المناطق على أساس أنها من مكوّنات "الدولة العالمية الجديدة".

وحرص على التواصل معها ومع أصحابها بشتى الطرق، كمصاهرتهم -في فارس والعراق حيث رابطة الصهر من أقوى الروابط- أو بالتقرُّب للمعبودات -في مصر حيث



للدين أهم مكان عند المصريين- أو بإجلال زعماء العشائر -كما فعل في الهند حيث يبالغ الهنود في تبجيل كبارهم- أي أنه "قرأ" اللغة الإنسانية لكل أرض رفع رايته عليها، وتعامل معها باعتبارها لغته وثقافته، حتى أنه أمر قادته حين ينزلون بلدًا أن يراعوا تقاليده ويتبعوا عاداته ويرتدوا أزياءه.

ولا يعني هذا تخليه عن هويته الأم -اليونانية- بل حقق المعادلة الصعبة بين الاندماج مع الآخر والتمسُّك بالهويَّة، حين قرن أمره لرجاله باتباع عادات أماكن نزولهم بأمره لهم ألا ينسوا أنهم يونانيون...

أما الرد على القائلون بأنه خرج انتقامًا من الفُرس، فهو -ببساطة- أن الإسكندر لم تُنسَب إليه أية أعمال انتقامية بحق الفرس، بل إنه حرص على إكرام ذكرى خصمه الملك الفارسي دارا -عند مقتل هذا الأخير على يد حرسه الخاص- وعاقب قتلته، وأكرم أسرته، حتى أن أمَّ دارا انتحرت حزنًا على الإسكندر حين مات بعد ذلك في بابل.

إذن كان الإسكندر رجلًا سابقًا لعصره بعصور؛ حيث وضع أول رؤية للعولمة العادلة التي تحترم ثقافات الشعوب وتنشئ الجسور بينها، وتجلى هذا -كما أسلفتُ القول- في عاصمة تلك الدولة العالمية الناشئة: الإسكندرية.

عولمة رعاة البقر:

عولمة الإسكندر -وخلفائه الأوائل- تفضح عولمة هذه الأيام وكهنتها وسدنتها ومريديها، الذين يحجون لها كل عام في مؤتمرات الدول الكبرى، ففارق كبير بين عولمة تصنع السلام والانسجام بين شعوب وحضارات مختلفة، وتقيم من عاصمتها -الإسكندرية- قنطرة بين الثقافات الإنسانية، وعولمة تصنع الحرب والفقر ومصَّ دماء الشعوب.

صحيح أن الإسكندر جاء محاربًا على ظهر حصان، وفي يده سيف وترس، وجاء معه جيش مسلح، ولكن علينا حين ننظر في التاريخ أن ندرك الفوارق بين العصور، ففي زمن الإسكندر كانت الحساسية ضد الآخر عميقة بحيث تحتاج لمستوى معين من القسوة في كسر الجدار النفسي الصلب، والسيف قام بجزئه الخاص البسيط من المهمة، ثم تراجع ليفسح مجالًا للحوار الذي أعطى الاستمرارية للمشروع العالمي.



أما في أيامنا هذه فالعولمة كسيحة تأتي ممتطية حاملات الطائرات والدبابات، وحتى حوارها خادع مضلل مترفع عن مجرد فهم الآخر فضلًا عن تقبُّله.. هي عولمة مزوَّرة ومزوِّرة، وفارق كبير بين عولمة تبجِّل الإنسان، وتقدس الأديان، وتنشر التسامح، وأخرى تعبد الدولار، وتصلي للنفط، وتوزع أسلحة الدمار الشامل! تلك الأخيرة عولمة على طريقة رعاة البقر: صيد ثم ترويض ثم عملية حلب منتظمة تنتهي عادة بذبح البقرة أو إطلاق رصاصة "الرحمة" عليها ليبقى منها رأس محنط فوق المدفأة أو جلد مدبوغ على الحائط، يقول إنها كانت -يومًا ما- هنا!

أين الاختلاف؟!!

لو فتحت الـ"CNN" أو الـ"BBC" أو أية قناة إعلامية خلال أي من المؤتمرات المروجة للعولمة، لوجدت أغلب المتحدّثين والمهللين من رجال السياسة والمال والإعلام "الاستماري"، وقلة من المثقفين والمفكرين الموثوق بحيادهم. هذا هو موطن الاختلاف: من الذي يتحدَّث باسم العولمة؟!! عولمة الإسكندر أسسها الفلاسفة والمفكرون والعلماء، وصاغوها في ساحات النقاش وحلقات البحث، وفي رحاب المؤسسات الثقافية العملاقة كمكتبة الإسكندرية وجامعتها القديمة، وهم متصلون بمختلف الثقافات دون تعصُّب أو ترفُّع.

أما لو بحثنا عن إجابة هذا السؤال "من يتحدَّث باسم العولمة؟!!" في زمننا هذا، فسنجد الإجابة موزَّعة بين سياسيين لهم مخططات استعمارية أو ميول عنصرية ومؤسسات عابرة للقارات تفعل كل شيء وأي شيء؛ لتطمئن على تضخم محتويات أرصدتها، وهؤلاء "السادة" يتحدثون عن الاحتباس الحراري من قاعاتهم المكيَّفة، وعن الفقر وهم يتناولون الكافيار، وينتقدون سباق التسلح النووي كأنما ليسوا هم من بدأوه.

من صاغ "العولمة" قديمًا كان قائدًا شريفًا شهد له الخصوم قبل الحلفاء، تأسس ثقافيًا على يد خيرة فلاسفة بلاده، وصنع لنفسه رصيدًا من احترام الإنسان فقط لأنه إنسان، بينما من "يبشِّرون" للعولمة في زمننا هذا أناس لدولهم أرصدة ثقيلة في جوانتانامو وفلسطين والعراق والشيشان والبوسنة وإفريقيا السوداء وأمريكا اللاتينية! نعم، فمن مظاهر "رُخص" العولمة -التي يفترض أن تقوم على احترام الإنسان للإنسان- أن تنادي بها دول لم يمضِ على آخر نشاط استعماري لها نصف قرن، بل ومنها التي لا تزال تمارس



ذلك النشاط، وأخرى لا تزال لديها وزارة اسمها "وزارة المستعمرات"... إذن فالمشكلة كلها تكمن في "مصداقية المتكلم"!

ختام الجزء الثاني:

تجربة الإسكندر إذن ليست مجرد صفحة تاريخية عابرة، بل هي بمثابة حكم من التاريخ على التجارب التالية، ولكن قبل أن ننتقل للتجربة التالية للعولمة، علينا أن نعرف إجابة هذا السؤال: "لماذا سقطت تلك الدولة العالمية التي أنفق الإسكندر الأكبر عمره في تأسيسها؟".



مصادر المعلومات:

1 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

2 – العولمة: د.جلال أمين.

3 – عولمة القهر: د.جلال أمين.

4 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د.جلال أمين.

5 – الماضي يُبعَث حيًا: إدنا بجوير.

6 – حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة: الإمام جلال الدين السيوطي.

7 – القانون الدولي الإنساني: د.فهاد الشلالدة.

8 – العالم الهيلينيستي: فرانك ولبانك.

9 – أسياد الجريمة: جان زيجلر.

10 – An encyclopedia of world history: William L. LANGER

11 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د.عمر صابر عبد الجليل.

12 – الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والروماني: د.أبو اليسر فرح.

13 – مجتمع الإسكندرية القديم: د.محمد السيد عبد الغني.

14 – محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

15 – أعجب الرحلات في التاريخ: أنيس منصور.

16 – بلاك ووتر: جيرمي سكيل.

17 – الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق: محمد حسنين هيكل.



(٣)

بابل – يونيو – سنة 323 قبل ميلاد السيد المسيح: يرقد القائد المقدوني العظيم على فراشه يتلوى ويهذي تحت وطأة الحُمَّى، يهرع رجاله لجناحه إثر بلوغهم الخبر المريع: الإسكندر يحتضر!

يتبادل الرجال المخضرمون نظرة تحمل رسالة واحدة تتساءل عن مصير الإمبراطورية المنحوتة بسيوفهم وسنابك خيولهم بقيادة ذلك الشاب الذاهب للعالم الآخر، لمن تكون الرئاسة على أول دولة عالمية في تاريخ الإنسان؟

"برديكاس" قائد الفرسان؟ أم "كليارك "قائد الجنود؟ ربما "ميليجر" قائد المشاة؟ أم "بطليموس" رفيق عمر الإسكندر وربيب البيت المقدوني الحاكم؟ ولماذا ليس "سليوقس" قائد الحرس؟

تتجمع النظرات على صدر الجسد المتهالك أمامهم، ترقب صعودًا وهبوطًا يزداد تباطؤهما، لحظات ثم يفتح الإسكندر عينيه في لحظة وعي سرقها خلسة من سكرات موته، أدار الضوء الأخير لبصره في رفاق كفاحه المتسائلين عن وريث ملكه العريض، وقال كلمة واحدة: "كراتستو!" ثم ذهب إلى حيث لا عودة...

كراتستو!

هي كلمة إغريقية قديمة تعني "الأقوى"... ولكن كُتِبَ لها أن تتحول لحكم بالموت على المشروع الإنساني العظيم للدولة العالمية، حيث كانت معناها واضحًا: السلطة



ستكون للأقوى بين القادة! والحقيقة أن هؤلاء الأخيرين لم يتقاعسوا عن تنفيذ الوصية، فسرعان ما انطلق كل منهم لبقعة من الأرض معلنًا نفسه سيدًا عليها ومسلطًا سيوف رجاله على رفاق الأمس في صراع دام على السيادة، تمت خلاله تصفية خيرة رجال الإسكندر؛ حتى اقتصرت السلطة على ثلاثة: بطليموس في مصر وجزر شرق المتوسط، سليوقس في سوريا والعراق، وأنتيجونس في بلاد اليونان وتركيا، استقل كل منهم بقطاعه.

غرق الجناح الأوروبي من دولة الإسكندر في الصراعات الداخلية بين المطالبين بالعرش وبقايا الأسرة المالكة المقدونية، واشتعل الجناحان -الآسيوي والإفريقي منها- بنيران الصراع بين البطالمة من مصر والسلوقيين من سوريا على السيطرة على منطقة لبنان وفلسطين الإستراتيجية، وهكذا فقدت الدولة الهللينستية وحدتها، وانهار حلم الإسكندر العالمي عندما تفتَّت تركته التي شملت أغلب المعروف من بلدان العالم القديم. والمثير أن هذا التمزق لم يوقف عملية "العولمة" بل غيّر مسارها، فتحولت من امتزاج للثقافات إلى "تغليب" للثقافة اليونانية، صحيح أن ثمة مظاهر للمزج والتأثر المتبادل تمثلت في بعض جوانب الحياة، كمزج المعبودات المحلية بتلك اليونانية أو التزام البطالمة في مصر مظاهر وطقوس الملكية الفرعونية، ولكن كل هذا لم يمثِّل روح مشروع الإسكندر الأكبر، حيث تحولت الهللينستية من نظام عالمي رعاياه متساوون مختلطون إلى مجرد "نظام ثقافي"، بينما ساد النظام الحياتي الفعلي نظام "الطبقية" على أساس الانتماء للعرق اليوناني، فتحولت المجتمعات الهللينستية إلى مجتمعات يحكمها سادة يونانيون مستوطنون، ويخضع فيها العامة الوطنيون من أبناء البلد، حتى أن الزواج المختلط كان يمثِّل مخالفة صارخة للقانون لزمن طويل في مصر البطلمية، و لم تنكسر تلك القاعدة سوى في النصف الثاني من العصر البطلمي.

نعم... تبدلت عولمة الإسكندر لتتحول لعولمة ممسوخة قائمة على القهر والتمييز العرقي، وللأسف، في رَحِم تلك الظروف وُلِدَت كثير من الصور السلبية للعولمة كما عرفها العالم حتى يومنا هذا!

الإسكندرية – سنة 48 قبل ميلاد السيد المسيح

الدخان يخنق المدينة الراقية، وألسنة اللهب تمتد من بقايا الأسطول البحري البطلمي إلى مكتبة الإسكندرية ذاتها فتأتي عليها...



والعد التنازلي لاكتمال سقوط الشرق في يد الرومان -الحالمين بدورهم بإقامة عولمتهم الخاصة- يتسارع!

هؤلاء السادة العظام!

"النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظرها بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادًا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء". (عبد الرحمن بن خلدون-المقدم)

هي ليست بالقصة الجديدة، أن تنتشر عقيدة تقديس نمط حياة الغالب ويظهر مريدوها وسدنتها بدعوى التفتح والتنوير، يمكنك أن تتأكد من هذا بنفسك عندما ترى "جمال" في مصر يتحول إلى "جيمي"، ويمشي المشية المترنحة لمطربي الـRap الزنوج وهو يتحدث بيديه أمام مطعم الوجبات الأمريكية الجاهزة الذي غادره للتو، أو فحين تلاحظ أن "مهدي" الجزائري لا ينطق سوى لفظ عربي واحد بين مئات الألفاظ الفرنسية، وتحمد الله حين تستطيع -بصعوبة- أن تتبين عبارة "السلام عليكم" المنطوقة بلكنة غربية، أو ربما إذا تصادف وشاهدت "نواف" في السعودية بالتصفيفة الصادمة لشعره الملون بألوان زاعقة وهو "يفحِط بالسيارة حَقُّه" (يقود السيارة بشكل بهلواني أخرق)، وأن تنظر لمدينتك من أعلى فلا ترى أكثر من المباني الخرسانية للمولات أمريكية الطراز، فتشعر أنها خوازيق مزروعة في جسد وطنك، وتصاب بالضيق عندما تكتشف أنك صورة ممسوخة من "سادة العولمة وقادتها" حيث يتلاشى نمط حياتك الأصيل في تقليدهم -إما بإرادتك أو مضطرًا لمجاراة الواقع المفروض عليك- فتكتشف أن هويتك لم يبقَ منها سوى بضعة أحرف في خانة الجنسية بأوراقك، ولسان يشكو من فرط ما أصاب لغته من تشويه بتعبيرات وألفاظ ما أنزل الله بها على الشرق من سلطان!

هذا ما حدث منذ أكثر من ألفي عام، عندما انتشر في بلاد الشرق تقليد "السادة العظماء القادمين من وراء البحر"، فبدلًا من أن تكون العولمة "مزجًا" للثقافات تحولت إلى "مسخ" لها! فانتشر نمط الحياة اليوناني بشكل ممسوخ، وأصبح البعض يحرص على أن يكون له بخلاف اسمه المحلي اسمًا يونانيًا آخر، بل ومن الناس من هجروا أسماءهم القديمة أصلًا، وأصاب الألسنة الشرقية عَوَجٌ جعلها ترطن بالإغريقية!



الرافضون:

وكما أن لكل حركة "تغريب" سدنتها وأتباعها، فإن لها أعداءها الذين يعتبرون أن السماء ألقت على عواتقهم مهمة التصدي للوارد على مجتمعاتهم من ثقافات، والواقع أن الشرق شهد حركات قوية لمن يمكننا وصفهم بـ"السلفيين"، نعم، فالسلفية هي التمسك المتشدد بموروث السلف، سواء في مجال الدين أو الفن أو الثقافة أو أي مجال إنساني، وإن جرى الفهم -الخاطئ- على قصرها على الدين. والغريب أنه كما تحاول "السلفية الدينية" اليوم قيادة ما تعتبره هي جهادًا ضد "التغريب"، فإن السلفية الدينية القديمة هي التي سعت لتزعُّم المواجهة ضد أغرقة الشرق.

بالفعل ظهرت حركات "سلفية" قوية تحاول التصدي لكل من عمليتي المزج والغزو الثقافيين، أشهرهما تركزت في جنوب مصر -تحديدًا في طيبة- على يد الكهنة الذين تمسكوا بمكانتهم القديمة في العصر الفرعوني، ثم قادوا في مراحل تالية الثورات ضد الضرائب الباهظة التي فرضها الحكام البطالمة في النصف الثاني من العهد البطلمي، وضد الفساد الإداري الفاحش الذي أصاب البلاد، وبالفعل نجحت تلك الحركة في اقتناص احترام الحكام البطالمة للسلطة القوية للكهنة، وسعى أولئك الحكام للتقرب من المصريين بترميم وإنشاء المعابد للآلهة المحلية، ومعاملة الكهنة بالاحترام الذي اعتادوه أيام الفراعنة.

وأما في فلسطين، فقد اصطدمت قوة المتشددين اليهود "الحسيديم" بالتيار المهرول نحو تقليد السادة الإغريق، ثم اصطدمت بالسلوقيين أنفسهم بدعوى إفسادهم عقيدة بني إسرائيل، ولكن كُتِبَ لتلك الحركة الفشل بسبب النزاع اليهودي – اليهودي على الحكم.

نقطة توضيحية:

وأنا هنا لا أقصد أن أقول إن امتزاج الشرق بالغرب لم ينتج موروثًا حضاريًا ذا قيمة، بل قد كان، ولكني فقط أعرض الجانب المعتم من ذلك الموروث، فكما أن الكثيرين مارسوا "عولمة معتدلة" حافظوا فيها على هويتهم، ومزجوها بهويات الآخرين بصورة متعقلة، فظهر طراز العمارة الجديد الذي امتزجت فيه الرقّة اليونانية بالإعجاز المصري والإبهار السوري، وازدهرت الحركة العلمية والثقافية بشكل ملموس، وكذلك الصناعة



والتجارة، وانتشر نطاق التسامح مع الآخر، وتقبله والتعامل معه باعتباره "إنسانًا".

الخلاصة أن تبادلًا إنسانيًا كبيرًا حدث في ذلك العالم الهيللينستي، ولكن دعونا لا ننكر أنه كان تبادلًا بين "سادة" يونانيين و"أتباع" شرقيين... وهذه حقيقة لا تتعارض مع واقع ازدهار مختلف مظاهر الحياة في بدايات عصرَي السلوقيين في سوريا والبطالمة في مصر، ولكن السقوط المدوِّي لهاتين الدولتين بعد ذلك على يد الرومان كان من النتائج الطبيعية للتنكر لهدف الإسكندر في توحيد الشرق والغرب -بالمعنى الكامل للكلمة- في كتلة واحدة قوية، الأمر الذي لو كان قد تم لصمدت تلك المناطق كلها في وجه الغزو الروماني. والحقيقة أن المدقِّق في التاريخ البطلمي في مصر -كمثال للحضارة الهللينستية- يلاحظ أن من ساهموا حقًّا بشكل إيجابي في إقامة الحضارة كانوا من المعتدلين الذين لم يبالغوا في الرفض، ولم يلهثوا في الهرولة!

مصادر المعلومات:

1 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

2 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

3 – اليهود في فلسطين في العصرين البطلمي والسلوقي: د. هاني عبد العزيز جوهر.

4 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د. عمر صابر عبد الجليل.

5 – الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني: د. أبو اليسر فرح.

6 – محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

7 – اليهود واليهودية والصهيونية: د. عبد الوهاب المسيري.

8 – مجتمع الإسكندرية القديم: د. محمد السيد عبد الغني.

9 – العالم الهيللينستي: فرانك ولبانك.

An encyclopedia of world history: Willam L. LANGER – 10

11 – مصر القبطية – الأقباط يعمدون بالدم: محمود مدحت.

12 – الآلهة والناس في مصر: فرانسواز دونان.

13 – ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان.



(٤)

الإسكندريـة... الأول مـن أغسطـس سنـة 30 قبـل ميـلاد السيد المسيـح: وقف أوكتافيوس.. أغسطس –أي المهيب– بطـل روما وقيصر الإمبراطورية يستقبل المهنئين، ويُلقي خطاب الأمان على شعب الإسكندرية، ويعلن منع الجنود من القيام بأي سلب أو نهب احترامًـا لمدينة الإسكندر العظيم الذي قُدِّمَت لجثمانه رسوم الاحترام؛ بينما عومل ضريـح البطالمة بازدراء تمثَّل في رفض أوكتافيوس زيارته قائلًا: "أريد أن أرى ملوكًا.. لا أمواتًا!".

مصر البطالمة سقطت لتنضم إلى قلادة استعمارية سبقتها إليها سوريا السلوقيين ومدينة قرطاج ومملكة يهودا في فلسطين... وتبعتها إليها مملكتا العرب–الأنباط في الأردن، وتَدمُر في سوريا؛ ليحمل العالم القديم كله –تقريبًا– شعار النسر الروماني؛ إما صراحة باعتبار البلد "مستعمرة رومانية" أو ضمنًا بإعطائه استقلالًا شكليًا سرعان ما يزول حين تزول أسبابه.

"بكامل إرادتهم الحُرة"

"أنتَ دعوتني لدخول بيتك، بكامل إرادتك الحُرة"...

(عبارة شهيرة تتردد في روايات مصاصي الدماء... حيث يقضي قانونهم ألا يدخلوا بيتًا؛ ليمتصوا دماء أصحابه إلا إذا دعاهم صاحب البيت بإرادته الكاملة.)

هكذا بالضبط أكملت روما تنفيذ أجندتها العولمية لتضم أغلب العالم القديم في دولة واحدة يحكمها الإمبراطور ورجال مجلس السناتو من روما.



لم يكن دخول الرومان إلى البلدان المفتوحة دائمًا بشكل الغزو وهيئته؛ بل كانوا في الغالب يرتدون أزياء صُنَّاع السلام وَدعاته ورعاته، يُرسلون مبعوثيهم بحجة حماية طرق التجارة العالمية، وتأمين الاستقرار الإقليمي، ويلتقون أطراف النزاعات فيعرضون على كل منهم -على حِدة- الدعم والرعاية والمباركة.. وهكذا.. حتى يملكوا مفاتيح السياسة بالبلد المنشود ضمه إلى "عالمهم الجديد"، ثم سرعان ما تختفي أردية السياسيين البيضاء لتحل محلها أزياء العسكريين الحمراء، ويتكرر المشهد المعتاد: القائد الناجح توًا في ضم درة جديدة للتاج الروماني يطوف شوارع روما على عربته الحربية، مكللًا بإكليل من الغار، بين هتافات الجماهير، وخلفه عبدٌ يميل عليه هامسًا من حين لآخر كلما لحظ منه زهوًا: "تذكّر أنك إنسان!"..

طبعًا "إنسان" هنا تعني التنبيه على إنسانيته بالنسبة لإخوانه الرومان فحسب... أما الشعوب المقهورة فلها حسابات أخرى!

بالفعل... حقق الرومان السلام في العالم؛ فأخضعوا القبائل البربرية المتناحرة في أوروبا، وقضوا على النزاعات الداخلية على الحكم في اليونان ومصر وسوريا وفلسطين، وأمّنوا طريق التجارة العربي باحتلال البتراء عاصمة الأنباط... هو سلام -بشكل أو بآخر- ولكنه سلام روماني يختلف كثيرًا عن مفهوم كلمة "السلام" بالمعنى الإنساني النقي.

Divide et impera أو "فَرّقْ تَمْلُك"

هي النصيحة الأهم والأكثر أولوية فيما خص سياسة الرومان إزاء الشعوب التي ظللها نسر روما الذهبي. وهي الميراث الأكثر استمرارية من بعد روما وإلى يومنا هذا، وربما حتى يرث الله الأرض ومن عليها!

"Divide et impera!"

تذكّرها معي وأنت تفكر فيما إذا كان أساتذة التاريخ قد غشُّوك حين قالوا لك إن هناك دولة موّحدة اسمها لبنان؛ بينما أنت تسمع نشرات الأخبار تتحدث عن أحزاب سنّية وكتائب مسيحية وميليشيات شيعية وحركات درزية...



"Divide et impera!"

تذكَّرها، ورددها عندما ترى العالم "يكتشف" بعبقرية بأثر رجعي أن التعامل مع العراقي باعتباره سنيًا أو شيعيًا... عربيًا أو كرديًا... أجدى كثيرًا من معاملته باعتباره عراقيًا فحسب!

"Divide et impera!"

قُلها.. وقدِّمها تفسيرًا لدهشتك عندما ترى عبارة "مصادمات بين مسلمين وأقباط في مصر" تمر أمام عينيك على شريط أخبار الفضائيات العربية...

هكذا هي القصة الآن وهكذا كانت... وهو تطور طبيعي؛ فروما كانت تجد لنفسها موطئ قدم في هذا البلد أو ذاك بدعوة أو استغاثة أو ترحيب من أحد أطراف النزاع فيه الذي اكتشف -بالعبقرية المعتادة للبشر- أن"زمَّار الحَي لا يُطرِب"، وأن الغريب أقدر على حل المشاكل الداخلية من الأخ في الأرض والوطن! وكل ما فعلته روما أن التقطت الرسالة بذكاء وساهمت في نشر "عولمتها" و"سلامها الشامل" بأن حرصت على أن تعامل كل طائفة وفئة من كل شعب ضمته لممتلكاتها على حِدة.

فلو أخذنا الإسكندرية -النموذج العالمي للتعددية العرقية والطائفية- كمثال؛ لرأينا المواطنين اليونانيين يعفون من "ضريبة الرأس" المفروضة على كل مواطن، واليهود تارة يُعامَلون بالحُسنى وأخرى يحيط بهم سوط الاضطهاد، أما المصريون -أهل البلد الأصليين- فحالهم أقرب ما يكون لوصف الكاتب سعد مكاوي لهم في رواية "السائرون نيامًا" بقول إحدى الشخصيات: "إن وليمة الفلاح التي لا ينالها كل يوم هي الجبن القريش والبصل ورغيف الشعير... والكرباج من وراء ذلك محيط"، وأعتقد أن في هذه العبارة -وإن كانت تدور في عصر مختلف- وصف دقيق لوضع المصريين آنذاك!

بالطبع أدَّتَ تلك السياسة لتغذية الأحقاد بين مختلف الطبقات، واشترك مع نفس العبقرية المعتادة للبشر -المذكورة سلفًا- في إلهاء المحكومين رومانيًا بالتصادم فيما بينهم؛ بدلًا من الاتحاد ضد غاصبي حقوقهم... هذا ما حدث في بلد كوزموبوليتاني كالإسكندرية تتجانس فيه الثقافات؛ فلكم أن تتخيلوا أثره في بلدان أخرى سكانها أقل تجانسًا!



ولكن دعونا لا نقسو على روما... فبالعقل: فرصة واتتها لترويض وتطويع عبيدها الجدد؛ فهل كانت لتضيِّعها؟ بالطبع لا... إذن فلتهتفوا معي.. "!Divide et impera"

عولمة البقرة الحلوب

"بلاد ينحدر وزنها في الاقتصاد العالمي بشكل لا مَرَدَّ له، ولا تكفُّ عن الاستدانة، وتعيش بشكل واضح على مستوى يفوق طاقتها، مع أنها تحوز تفوقًا عسكريًا لا ريب فيه؛ فكيف لها أن تصمد أمام إغراء استخدام هذه الورقة الرابحة؛ كي تعوِّضَ فقدان قدرتها في الميادين الأخرى؟".

(أمين معلوف – كتاب: اختلال العالم)

هذه العبارة علَّل بها المفكر والأديب اللبناني أمين معلوف ما تفعله أمريكا بقواتها في العراق حاليًا، وما فعلته من قبل في بنما وأفغانستان وهاييتي وشيلي، ومختلف الدول التي وطأتها القدم الأمريكية بدعوى حماية "النظام العالمي".

هكذا هي العولمة الأمريكية، وهكذا كانت العولمة الرومانية، عولمة "البقرة الحلوب"؛ حيث الآخر هو -أكرمكم الله- بقرة حلوب كل مهمتها أن تدر الخيرات للسادة العظام؛ سواء كان هؤلاء السادة يحملون أسماء: "كايوس" و"أورليوس" و"دميتريوس" ويعيشون في روما، أو كانت أسماؤهم من نوعية: "جيمس" و"توماس" و"روبرت" ويعيشون في "الولايات"... ومع فارق آخر يتمثل في أن "حليب البقرة" قديمًا كان حَبًّا ذهبيّ اللون يحمل اسم "القمح"؛ بينما هو الآن سائل أسود لزج يسمونه "البترول"!

نعم... كانت روما تعيش على إنتاجات غيرها؛ فهي -مجردة من مستعمراتها- عبارة عن منطقة فقيرة لا يكفي محصولها لإطعام ربع سكانها، وتشهد على ذلك المجاعة التي شهدتها قبل غزوها مصر، عندما كاد الرومان يموتون جوعًا، لولا أن مد لهم البطالمة يدًا بيضاء، وأرسلوا لهم إغاثة من القمح أسالت لعابهم على منبع الثروة الذي لا يستحقه أصحابه من وجهة نظرهم.

كان نمط حياة الرومان تفوق تكاليفه المادية والعينية ما لديهم وحدهم؛ فكان لا بد



أن يخرجوا من نطاقهم ليضمّوا ما يمكن ضمه من بلاد غنية تؤمّن لهم -ولهم وحدهم- سُبُل العيش المترف؛ "فحيث تمتد الطرق تزحف روما" كما يقول الكاتب الأمريكي هوارد فاست في رواية "سبارتاكوس".

إذن فقد كان ذلك هو الهدف الحقيقي من "رسالة السلام" التي حملها الرومان لـ"الشعوب البربرية المسكينة" والتي سعوا (أي الرومان) من خلالها لفرض عولمتهم على الشعوب.

القياصرة:

"لا تحلموا بعالم سعيد... فخلف كل قيصر يموت، قيصر جديد!"

(أمل دنقل - كلمات سبارتاكوس الأخيرة)

هكذا كان حال "المُتَعَولمين قهرًا" -لو سمحتم لي بالتعبير- في ظل دولة روما العالمية، مقهورين مُسَخَّرين لأهداف الأباطرة وأعضاء السناتو، لا يأملون إلا في قيصر جديد يخفف عنهم وطأة ما فرضه عليهم قيصر سابق من ضرائب قاسية وقيود مجحفة... الزراعة، الصناعة، التجارة، وحتى العبادة، فُرِضَت عليها قوانين رومانية جائرة لا تكترث لـ"رعايا الإمبراطورية"؛ بل لم يتم اعتبارهم مواطنين في الدولة الرومانية إلا في وقت متأخرٍ جدًا من عمر الدولة نفسها، ودون أن يحصلوا على كامل حقوق المواطنة! واستمرَأ القياصرة تلك اللعبة، واعتبروا أن العالم بشعوبه قد صاروا مطيّة ليّنة لهم. واعتبروا -واحدًا تلو الآخر- أن التاريخ قد توقف عند سيطرتهم على العالم، وأنه لا زوال لهم إلا بزوال الأرض نفسها.

نسوا مغزى العبارة التي حرصوا على وضع عبدٍ خلف كل قائد منتصر؛ ليقولها له في نشوة نصره: "تذكر أنك إنسان!".

وأن لا شيء بعد الكمال إلا النقصان.. وأن من عاش بالسيف مات به!



مصادر المعلومات:

1 – اختلال العالم: أمين معلوف.

2 – مصر في عصر الرومان: د.الحسين أحمد عبد الله.

3 – العالم البيزنطي: ج.م.هسي.

4 – التاريخ الوسيط: نورمان كانتور.

5 – المُثُل السياسية: دليل بيرنز.

6 – الإمبراطورية الأمريكية: محمد حسنين هيكل.

7 – الأنباط.. الولاية العربية الرومانية: جلين وارين بورسوك.

8 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب المسيري.

9 – عولمة القهر: د.جلال أمين.

10 – العولمة: د.جلال أمين.

11 – موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.

12 – الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني: د.أبو اليسر فرح.

13 – تاريخ العرب قبل الإسلام: د.محمد سهيل طقوش.

14 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

15 – تاريخ العرب القديم: د.توفيق برّو.

16 – جزيرة العرب قبل الإسلام: برهان الدين دلّو.

17 – المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف.

18 – اليهود في فلسطين في العصرين البطلمي والسلوقي: د.هاني عبد العزيز جوهر.

19 – تاريخ مصر في العصر البيزنطي: د.صبري أبو الخير سليم.

20 – مجتمع الإسكندرية القديم: د.محمد السيد عبد الغني.

21 – مصر القبطية: محمود مدحت.

22 – An Encyclopedia Of World History: William L. LANGER

23 – تاريخ القانون في العصرين البطلمي والروماني: د.عبد المجيد الحفناوي.

(٥)

رُسُل الحضارة

اسمح لي أن أنقلك إلى زمن غير زمنك، وقوم غير قومك، وكينونة غير كينونتك...

أنت الآن ضابط روماني في إحدى الكتائب المرابطة في إحدى مستعمرات روما في الشرق الثري... فليكن اسمك "ماركوس" أو "لوسيوس" أو "أركاديوس"... لا تهم الأسماء ها هنا...

أنت الآن تقضي إجازة قصيرة بين أسرتك، تنظر لبيتك في رضا تام. أطفالك يختلفون بالتأكيد عن الأطفال الذين تيتموا على يديك عندما أمرت بصلب أبيهم -في تلك المستعمرة الشرقية البعيدة- لأنه اعترض على تلك الضرائب الباهظة المفروضة عليه، أو لأنه أراد لنفسه دينًا غير دين الإمبراطور، أو لأنه استثقل استضافة موظفي الإمبراطورية المارين بقريته -كما يقضي القانون- لا يهم السبب، المهم أن أطفالك أكثر نظافة وصحة من تلك المخلوقات البائسة القذرة التي تركتها خلفك تبكي عائلها الوحيد، ذلك "المجرم" الذي وقف في طريق المهمة المقدسة لنشر المدنية الرومانية في كل العالم.

بيتك بالتأكيد أكثر نظافة وجمالًا من كوخهم الحقير الذي لم يرُقْ لك تشويهه لجمال الطبيعة المحيطة به فقدّمت لها -الطبيعة- خدمة بأن حرقته عن آخره.

وزوجتك -تلك الغالية التي تحسد نفسها على زوج برقّتك- أكثر جمالًا وبهاءً من أمهم التي قاومتك بضراوة بربرية ناكرة للجميل حين أردت أن تمنحها شرف تحسين



نسلها الوضيع بوضع نطفة رومانية نقية في أحشائها.

ولكن لماذا تعكر صفو الوقت الجميل بتذكر أولئك البرابرة الذين لا يقدِّرون قيمة اليد البيضاء التي تمدُّها لهم؟

اشرب مزيدًا من النبيذ اللذيذ... وتناول قطعة اللحم من يد زوجتك الحبيبة إرضاءً لخاطرها، واستمتع بضحكات صغارك... حتى تكتسب قوة معنوية حين تعود لمهمتك الإنسانية في نشر مزيد من العدالة الرومانية المطلقة في أرجاء الأرض.

الغضب المقدس

لم تعْقم أرجاء الأرض المختلفة عن رجال رفضوا أن تحمل كرامتهم ختم النسر الروماني. لم تأتهم روما ببشارة السلام والإخاء في الإنسانية، بل أتتهم بالعنصرية والعبودية والعدوان على العِرض والحياة والمال والآدمية! جاءت عولمة روما لتقسِّم العالم إلى سادة رومان وما سواهم برابرة يقعون في المرتبة الأسفل من البشر والدرجة الأعلى من عالم الحيوان.

نعم... كان من الطبيعي أن يولد الغضب المقدس، وهل أقدس من غضب يولد من رحم الكرامة؟ في كل بقعة وُجِدَ فيها من أدركوا أن فكرة الرومان عن "الدولة العالمية الواحدة" و"السلام الشامل" هي فكرة تعتمد على قهر الكبرياء ودهس الإنسانية وطمس الهويات، قامت ثورة مادية أو معنوية وقودها الرغبة في البقاء.

لم ينجح الرومان إذن إلا في خلق حالة من الغضب العالمي ضدهم، حتى عندما لاحت لهم فرصة لتوحيد العالم باعتناق أباطرتهم المسيحية -التي كانت قد انتشرت بشدة آنذاك- ومحاولتهم الظهور مظهر المدافعين عن دين الله، أخفقوا في ذلك بسبب سوء تعاملهم مع الخلافات المذهبية ومحاولاتهم المكشوفة لتوظيف الدين لصالح السياسة.. مما زاد من اشتعال حالة الثورة ضدهم وزاد من أسبابها ودوافعها.

تلك الثورات التي أخمدها السيف لم تكن صيحة عابرة، بل كانت نداء الميلاد لسلسلة من الحركات المستنكرة لسيطرة روما على مقادير البشر في شرق الأرض وغربها. ولكنّ التجربتين الأكثر جدارة بالتأمل هما التجربة القبطية والتجربة العربية في الصمود أمام زحف العولمة الرومانية.



فالنَصرُ قرارُ

"قاوم! فيداكَ الإعصارُ...

وتقدَّم! فالنَصرُ قرارُ...

إن حياتَكَ وَقفَةُ عِزٍ... تتغيَّرُ فيها الأقدارُ!"

(قصيدة "يا أيها الكبار" - هنري زغيب)

أجل... فالنصر قرار

عندما يُدرك الفلاح المصري أن خير أرضه صار لغيره فيتخذ القرار الصعب بهجر زراعتها ليحرم مغتصبها من خيراتها، في حركة جماعية شملت الغالبية العظمى من الفلاحين وأفسدت على الرومان مكاسبهم من نهب خير مصر...

عندما يتَّحد جهد رجال الدين الأقباط على مقاومة غزو اللغة اللاتينية لبلادهم فيبتكرون اللغة القبطية ويقودون واحدة من أضخم حركات ترجمة كتب ومخطوطات العلوم والآداب واللاهوت إلى لغتهم الوليدة... ويؤسسون المدارس المتخصصة في الحفاظ على التراث المصري الأصيل.

فالنصر قرارُ

عندما يتحدَّى الأقباط الاضطهاد الروماني للمسيحية بأن يؤسس الأبوان باخوم وأنطون حركات الرهبنة الفردية والجماعية في الصحراء بعيدًا عن بطش الرومان... فيتحدَّى الرهبان آلام الوحدة ومخاطر البرية المجهولة في سبيل حماية حريتهم العقائدية...

وعندها -بعد أن اعتنق الرومان المسيحية- يحاول الأباطرة فرض مذهبهم الرسمي على مصر فيتمسك أبناؤها بمذهبهم الوطني ويتصدون بقوة لأعتى الضغوط المادية والمعنوية... حتى يضطر المحتل لاستخدام القوة -حيلة العاجز- فلا تجديه نفعًا...

فالنصر قرار...

ملحمة رائعة أبطالها مجرد أناس بسطاء أبناء شعب مسالم، استطاعوا أن يجعلوا جهود أقوى دولة في العالم -آنذاك- تذهب أدراج الرياح، فقط لأنهم قرروا ألا ينهزموا.

هذه كانت التجربة المصرية في الصمود أمام رياح العولمة الظالمة، أما تجربة أبناء أختهم هاجر –العرب– فلم تكن أقل إثارة للتأمل..

أبناء الصحراء

لم تكن لديهم الحمامات الرخامية الأنيقة، لم يبنوا المعابد الضخمة ولا ساحات المصارعة، لم يعرفوا المسارح ولا نظام الانتخابات، كانت حياتهم هي البساطة بعينها.

ولكنهم كانوا أحرارًا...

المدهش أن الذين وقعوا تحت سيطرة الدول الكبرى من العرب كانوا ممن أسسوا المدن الكبرى وبنوا القصور وعرفوا الترف... فاليمن سيطر عليه الأحباش ثم الفُرس، وفي الشام وضع الروم وصايتهم على الغساسنة الذين حكموا أجزاءً من الشام نيابة عن الإمبراطور البيزنطي، بينما بقي عرب الصحراء في مأمن من الوقوع تحت سطوة النظام العالمي الروماني، ثم البيزنطي بعد ذلك. كان الحجاز –وهو اسم مشتق من "الحجز"– اسم على مسمًى للأرض العربية الواسعة التي حجزتها الجبال والصحاري المميتة عما حولها، فكانت تلك نقطة قوة لأهلها الذين تمسَّكوا بنمط حياتهم و لم يفعلوا كما فعل أبناء عمومتهم الغساسنة الذين هرولوا للانضواء تحت جناح السادة الروم ليتيهوا فخرًا على العرب بـ"تحضرهم" و"تطورهم" عن حياة البداوة الخشنة، بل على العكس، كان العربي يعتز بنمط حياته ويبحث عن سُبُل تطويره من داخل مجتمعه بما يتناسب مع احتياجاته دون زيادة أو نقصان.

كان الروم ينظرون لأولئك العرب على أنهم مجرد رعاة أغنام أجلاف، بينما كان العرب يضربون عرض الحائط بتلك النظرة، ويتمسكون بأن يبقوا "هُم" على كينونتهم، على تفردهم وحفاظهم على طبيعتهم. لم تكن لديهم عقدة الإحساس بالدونية التي تدفعهم للتحوّل لصورة ممسوخة من الآخرين. صحيح أنهم كانوا يسعوْن للتقرب من قياصرة الروم وولاتهم، ولكن فقط في حدود ما يلزم لحماية وتنمية تجارتهم المشتركة. وعندما انتشرت المسيحية بين العرب، لم يسمحوا لذلك بأن يكون ذريعة لأن يوضعوا تحت وصاية الروم باعتبار هؤلاء الأخارى كانوا يروِّجون لفكرة أنهم رعاة المسيحيين في العالم. وعندما حاول أحد نصارى مكة "عثمان بن الحويرث" أن يجعل من نفسه



واليًا على مكة من قِبَل قيصر بعد أن زار القسطنطينية وحصل على مباركة هذا الأخير، كان أهله وبنو عمومته هم أول من تصدّى له وخذله قائلين باستنكار: "معشر العرب... أملك بتهامة؟".

كانت مقاومة العرب إذن متمثلة في تمسكهم العتيد بأصالتهم، واعتزازهم الشديد بأنفسهم، وبحثهم عن مفردات البقاء والتطوُّر في داخل محيطهم دون أن يعني ذلك انفصالهم عن العالم أو انعزالهم عنه. وهي المعادلة التي حققت لهم البقاء أحرار طوال فترة سيطرة الرومان ثم البيزنطيين على أغلب العالم القديم.

نهاية حتمية... وبداية وشيكة

قتل الرومان إذن عولمتهم بخنجر الطغيان الذي أوغر صدور الأمم عليهم... وبينما كان الرومان الشرقيون –ورثة الإمبراطورية– يتيهون بقوتهم.. كانت قصة جديدة للعولمة تولد في مكان آخر... في المدينة –يثرب سابقًا– عندما خرجت الجيوش نحو بلاد الشام وفارس والعراق تحت راية الدولة الإسلامية الجديدة...



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – مصر القبطية: محمود مدحت.

4 – الأنباط... الولاية العربية الرومانية: جلين وارين بورسوك.

5 – المثل السياسية: دليل بيرنز.

6 – اختلال العالم: أمين معلوف.

7 – An encyclopedia of world history: William L. LANGER

8 – جزيرة العرب قبل الإسلام: برهان الدين دلُّو.

9 – حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.

10 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

11 – العالم البيزنطي: ج.م.هسي.

12 – مصر في عصر الرومان: د.الحسين أحمد عبد الله.

13 – تاريخ مصر في العصر البيزنطي: د.صبري أبو الخير سليم.

14 – الشرق الأدنى في العصرين الهللينستي والروماني: د.أبو اليسر فرح.

15 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د.عمر صابر عبد الجليل.

16 – التاريخ الوسيط: نورمان ف. كانتور.

17 – العولمة: د.جلال أمين.

18 – عولمة القهر: د.جلال أمين.

19 – عصر الجماهير الغفيرة: د.جلال أمين.

20 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د.جلال أمين.

21 – الإمبراطورية الأمريكية: محمد حسنين هيكل.

22 – تاريخ قريش: د.حسين مؤنس.

23 – موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.

24 – تاريخ العرب القديم: د.توفيق برُو.



(٦)

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر.]

هذه السورة -بالذات- كانت دستور الفاتحين العرب في مختلف الأقطار. الأمر الذي علّق عليه أحد المستشرقين قائلًا إن الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى لو كانت طبّقت مضمون تلك السورة على ألمانيا المهزومة -آنذاك- لكان من الممكن تجنب إيجاد ظروف القهر والإذلال التي أفرزت رجلًا مثل هتلر، وفكرًا مثل النازية. فسياسة العرب للبلدان المفتوحة وأهلها تجلّت في سعي هؤلاء الأخارى للتوحد والاندماج مع الإمبراطورية الجديدة الناشئة، لا كشعوب مقهورة خاضعة بل كجماعات بشرية راغبة في الانضمام لتجربة إنسانية راقية.

الحقيقة أنني قد احترت في كيفية بدئي الحديث عن تجربة العرب والمسلمين مع العولمة، وأخيرًا رأيتُ أن الأنسب أن أبدأ بأكثر المسائل إثارة للجدل وهي ذلك الاتهام المستمر لأصحاب تلك التجربة بأنهم لم يختلفوا كثيرًا عن الرومان والفُرس والأمم المستعمرة، وأنهم -بدورهم- لم يكونوا سوى غزاة مستعمرين متعطشين للثروات، وأن الفضل في قيام دولتهم كان للسيف والسيف فقط! إذن فلتكن تلك بداية حديثنا حتى لا ينقطع خيطه بعد ذلك بالتطرق لمسائل جانبية قد يفرضها تسلسل الأحداث.



تجربة العولمة العربية / الإسلامية هي الأكثر إثارة للتعجب والنظر واستفزازًا للتفكير والتحليل، فبخلاف كونها الأطول عمرًا والأوسع مساحة فقد تميزت بكونها "عولمة عنقودية" بدأت من العواصم الأولى: المدينة – دمشق – بغداد، ثم أصبحت لامركزية، وبعد أن كانت تنتشر بيد العرب المسلمين الأوائل أصبح الكل يشارك فيها سواء كان عربيًا أم لا، مسلمًا أم غير ذلك. والأمر الآخر اللافت هو أن قيادة سفينة العولمة لم تكن دائمًا للعنصر الأول الذي بدأها: العرب المسلمون، بل تم تبادل الراية عبر العمر الطويل للمسيرة بين عناصر عربية وتركية وحبشية وروسية وبربرية، سواء في أوقات اتحاد الإمبراطورية أو عصور تفرّقها.

هاتان الميزتان تثبتان أن الفتوح العربية لم تكن مجرد غزوات من جحافل من "البدو الحفاة العراة الجياع" لبلاد ذات خيرات وثروات، فلو كانت كذلك ما كانت تجربتهم لتستمر لأكثر من سبعة قرون، الأمر الذي تحقق بسبب توفر عوامل عدة؛ أهمها تقبُّل وتحمُّس الناس للمشاركة في ذلك المشروع العالمي الضخم.

لم يكن لسيف الفاتح إذن الدور الأكبر في تأسيس تلك الدولة العالمية التي امتدت – في أوسع أشكالها – من الهند والصين إلى المغرب وإسبانيا، كما يحلو للكثيرين القول. حيث يصورون الفاتح العربي رجلًا بدويًا جلفًا يمسك بسيفه ويصيح "أسلِموا تَسلَموا"، في صورة كاريكاتورية مشينة لأي عقل يصدقها! صحيح أن السيف والرمح وجدا لهما مكانًا هامًا في الدولة، ولكن بالعقل: هل تخلو منهما دولة؟ ألم يظهر مينا – نارمر على لوحته الشهيرة وهو يوحّد مصر بالجيش؟ ألم يكن الإسكندر فاتحًا وغازيًا في المقام الأول؟ ويوليوس قيصر الذي تحتفي به الكتابات الغربية ألم يقضِ نصف عمره في حروب وغزوات؟ من المنطقي إذن أن يكون للقوة العسكرية دورٌ في بناء "الدولة"، ولكن ثمّ فارقًا كبيرًا بين "تأسيس الدولة" و"إقامة الحضارة"؛ فالأولى بالفعل يكفيها سيف ورمح ويد باطشة، بينما الثانية لا يلعب فيها السلاح إلا أقل الأدوار. ولننظر إلى شهادات أصحاب العقول والأفكار من الغربيين ليكونوا بمثابة "شهود من أهلها".



"لقد صادَفَت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم... وإن الذين يتخيلون أنها انتشرَت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا".

(جورج سيل، مترجم القرآن إلى الإنجليزية)

"إن القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن".

"الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا سمحًا مثل دينهم".

(د. جوستاف لوبون، مستشرق فرنسي، كتاب: حضارة العرب)

"كان تاريخًا يزخر بالاختراع والإبداع، والأفكار العظيمة، ويعزز قيم التسامح والتعايش".

(مايكل هاميلتون مورجان، في حديثه عن تاريخ الحضارة الإسلامية، كتاب: تاريخ ضائع)

"الأسلمة والتعريب لم يكونا من النتائج المباشرة والحتمية للفتح. وبدلًا من ذلك كانت عملية التحول تدريجية، وتكاد تكون سلمية تمامًا؛ بسبب الحقيقة القائلة بأن المزيد والمزيد من الناس أرادوا أن يتماهوا مع الثقافة السائدة في عصرهم ويشاركوا فيها".

(هيو كينيدي، كتاب: الفتوح العربية الكبرى)

"بالنسبة لكثيرين من السكان غير المسلمين في المناطق البيزنطية والفارسية الذين كانوا خاضعين بالفعل لحكم أجنبي، كان الحكم الإسلامي يعني تغييرًا في الحكام، وكان الحكام الجدد غالبًا أكثر مرونة وتسامحًا، و لم يكن ضياعًا لاستقلاله. والكثير من هذه الشعوب بات يتمتع بقدر أكبر من الحكم الذاتي المحلي".

(جون ل. إسبوزيتو، كتاب: الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة)



"إن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام؛ فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سُمِحَ لهم جميعًا -دون أي عائق يمنعهم- بممارسة شعائر دينهم".

"هذه الإنسانية وهذا التسامح العربي هما اللذان دفعا الشعوب ذات الديانات المختلفة إلى أن تعيش في انسجام مدهش في هذا الضوء العربي الهادئ، وأن تبدأ نموها وتوسعها وازدهارها."

(د.زيجريد هونكه، كتاب: شمس العرب تسطع على الغرب)

هذه شهادات من مستشرقين ومفكرين ينتمون لنفس الثقافات التي خرجت منها الاتهامات للعرب بأنهم لم يكونوا سوى أمة غازية مستعمرة. والمتأمل في تلك العبارات الصادرة عن أناس لا مصلحة شخصية لهم تثير الريبة في احتمال انحيازهم للعرب تفسر ذلك العمر الطويل والنجاح الكبير اللذين حظيت بهما تجربة العولمة العربية الإسلامية. وأعتقد أن في تلك الشهادات ردًا بليغًا يغنيني عن التعليق على تلك الاتهامات المتكررة للحضارة العربية أنها "دولة قامت على السيف".

نقطة نظام

ثمة نقطة هامة تقتضي الأمانة ذكرها: إن وصف الدولة العالمية العظمى التي استمرت لأكثر من سبعة قرون بأنها "عربية إسلامية" لا يعني حصر فضل تكوينها لمن توفرت فيهم الصفتان، فإن كان المؤسسون الأوائل لها عربًا مسلمين، فإن من أعطوا عجلتها الدفعة كانوا من حيث العِرْق من المنتمين لأعراق عدة، ومن حيث الدين شهدت الإمبراطورية العربية تعددية دينية كبيرة لم تقتصر على أهل الديانات الثلاث: اليهودية، المسيحية، الإسلام، بل امتدت لتشمل المجوس والصابئة وأتباع الأديان الآسيوية كالبوذية وغيرها. وقد أسهم كل هؤلاء في إشعال وتغذية جذوة الحضارة العربية الإسلامية، فباتت صفتا العروبة والإسلام بمثابة الجنسية المتمتع بها كل من شارك في إقامة حضارتها، ولو لم يكن عربيًا أو مسلمًا. إذن فليكن هذا بمثابة اتفاق بين القارئ وبيني: أني حين أصف تلك الحضارة بأنها عربية أو إسلامية أو كلاهما فإني أعنيها ككل، بكل ما فيها من تنوع عِرقي وديني.



الجزية والذمة

بقي أن أتحدث عن نقطتين هامتين مستا حياة نسبة ضخمة من أهل الدولة العربية الإسلامية: الجزية والذمة. وربما يحسب القارئ أني بهذا أخرج عن موضوعنا، ولكني أنبهه لأن تلك المسألتين هامتان جدًا في تفسير وتحليل أسباب اندماج الشعوب تحت راية العرب والمسلمين، حيث إنهما مسألتان يسيء البعض استخدامهما لمهاجمة تجربة العولمة العربية. فعلينا فهمهما لنفهم طريقة وشكل تفاعل المسلمين مع غيرهم تحت اسم الدولة الواحدة.

"لك الذمة والمنعة، فإن منعناكم (حميناكم) فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم".

(من معاهدة بين خالد بن الوليد ومندوب أحد البلدان المفتوحة)

الجزية كلمة مشتقة من كلمة "كزيت" الفارسية، وهي ببساطة مقابل حماية من الأمة الغالبة لأهل البلدان المفتوحة، وهي ليست ابتكارًا إسلاميًا -كما هو شائع- بل هي مما جرت به قوانين الفتوحات في مختلف الأمم. ليست إذن "عقابًا" لغير المسلمين على عدم إسلامهم كما تقول بعض الكتابات المتشددة، فلو كانت "جزاءً لهم على عدم اعتناقهم الإسلام" لكانت قد فُرضَت عليهم جميعًا، ولكنها كانت مفروضة فقط على من يستطيع القتال، فقد كان يُستَثْنَى من دفعها المعاقون والشيوخ والنساء ورجال الدين والفقراء، أي أنها لم تكن تجب سوى على الرجل القوي المعافى الميسور الحال.

الدليل الآخر على كونها لم تعنِ "قهرًا" لأهل البلدان المفتوحة هو أنها كنت تسقط عن الواجبة عليهم في حال اشتراكهم في الدفاع عن البلد إلى جانب جيش المسلمين، وهذا ما حدث بالفعل أكثر من مرة، ثم سقطت تمامًا بعد أن أصبح "الرعايا" "مواطنين"، وأصبح الوضع الطبيعي هو الدفاع المشترك عن الوطن ضد الأخطار الخارجية.

أما الذمة فهي -بعكس الشائع أيضًا- لا تعني انتقاصًا من قدر أهلها -وهم غير المسلمين في أي بلد تحكمه أغلبية مسلمة- بل بالعكس، تعني أن حماية غير المسلمين وصون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم بمثابة "فرض كفاية" على المسلمين، وهي ذمة مرتبطة بالله ورسوله -عليه الصلاة والسلام- مما يعني أنها لا تنقضي إطلاقًا بطول الزمن.



ختام الجزء السادس

هكذا إذن كانت سياسة الفاتحين تجاه أهل البلدان المفتوحة، تلك السياسة الحكيمة التي حققت ذلك الإنجاز المتمثل في صهر عشرات المكونات الثقافية والعرقية -عبر التاريخ- في سبيكة واحدة، وهو أمر يشبه المستحيل في عصرنا الحالي، فما قولنا فيمن حققه في عصور سابقة كان صدام الشعوب هو الأغلب على طبيعتها؟

ولكن إن كان في كل ما سبق إجابة لسؤال: "كيف استمر تجانس تلك الأعراق في ظل حضارة واحدة لقرون كثيرة؟" فثمة سؤال لا يقل أهمية وهو: كيف استطاع أبناء الصحراء أن يُسقِطوا النظام العالمي السابق ليؤسسوا نظامهم الذي تحدثنا عنه؟"



مصادر المعلومات:

1 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

2 – الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي.

3 – الأحكام السلطانية: الإمام أبو الحسن الماوردي.

4 – البداية والنهاية: ابن كثير.

5 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

6 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

7 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

8 – مواطنون لا ذمّيون: فهمي هويدي.

9 – تاريخ الخلفاء الراشدين: د.محمد سهيل طقوش.

10 – تاريخنا المُفتَرَى عليه: د.يوسف القرضاوي.

11 – الإسلام في عيون غربية: د.محمد عمارة.

12 – شمس العرب تسطع على الغرب: د.زيجريد هونكه.

13 – تاريخ ضائع: مايكل هاميلتون مورجان.

14 – الله ليس كذلك: د.زيجريد هونكه.

15 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د.جمال بدوي.

(٧)

فَذاكَ وطني

- "العرب كانوا غزاة مَثَلهم مَثَل الرومان والتتار وغيرهم، ما الذي أخرجهم من صحرائهم إلا الطمع في ثروات جيرانهم؟ إن حجة خروجهم لتحرير الشعوب المظلومة تبدو مثالية أكثر من اللازم!".

تأملتُ صديقي قائل العبارة السابقة، وابتسمت وأنا أنظر للكوفية الفلسطينية المحيطة بعنقه وصورة جيفارا على التي-شيرت الذي يرتديه... جيفارا الذي قال: "أينما وُجِدَ الظلم فذاك وطني!".

كنتُ أحاول فهم سبب رفض البعض لمسألة وجود هذا المبدأ المثالي منذ أكثر من ألف سنة... نعم، فالمبدأ الذي جعل الثائر الأرجنتيني العظيم يترك بلاده ويحارب في كوبا وبوليفيا والكونغو، هو الحفيد المتأخر لذلك المبدأ الإنساني النبيل الذي جعل العربي يحمل سيفه ويحارب ظلم الفُرس والروم في الشام والعراق ومصر.

مبادئ عولمة العرب والمسلمين

نعم... فمن البداية زرعت رسالة الإسلام في ضمائر أتباعها أنهم رُسُل العدالة والخير والسلام للعالم كله، فالخطاب القرآني أكّد على ذلك من خلال توجيهه الحديث أكثر من مرة بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بُعِثَ "للناس



كافة"، مما كان يعني بوضوح أن مهمة المسلمين لا تقف عند حدود جزيرة العرب فحسب، وأضاف القرآن تأكيده أن ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ في أمر صريح وواضح للمسلمين ألا يُجبروا أحدًا على اعتناق دينهم.

أما الدليل الآخر على أن خروج المسلمين للغزو لم يكن عن طمع مُطلق فهو أن ما أخذوه من خراج الأراضي المفتوحة وجزية حماية أهل الذمة لم يكن شيئًا يُذكَر إذا قورن بما كان يسلبه الفُرس والرومان من مستعمراتهم، بل إن التاريخ يسجّل –أكثر من مرة– تنازُل العرب عن الجزية كمقابل للحماية في حالة مشاركة أهل البلد المفتوح في الحرب إلى جوارهم، وكذلك في حال اضطرار المسلمين للانسحاب من البلد، كما حدث في حِمص عندما أعاد أبو عبيدة بن الجراح الجزية لأهلها لاضطراره للخروج بجيش المسلمين من بلدهم.

لماذا السيف؟

لو كنت –عزيزي القارئ– لم تتعب من تنقلك بخيالك عبر الزمن، فتعالَ معي ننظر بشكل واسع لخريطة التاريخ، لو نظرت شمالًا نحو اليونان القديم، ودخلت معي تلك الزنزانة الكئيبة في أثينا، لوجدت رجلًا ضخم الجثة، دميم الملامح يجلس بهدوء بين تلاميذه وبيده كوب يحتسي ما فيه.. هذا الرجل اسمه "سقراط"، والكوب الذي يشرب محتواه بهدوء هو السُم الذي قُضِيَ عليه بالموت به.. فقط لأنه نادى بتحرير العقل من الجمود والتخلف، وطالب بالبحث والتفكير والسعي وراء الحقيقة...

تعالَ ننتقل جنوبًا، إلى مصر، هل ترى ذلك الرجل الهزيل وقد أحاط به أعداؤه من كل جانب في قلب قاعة عرشه؟ أنصِتْ إلى أنفاسه جيدًا، فهي الأخيرة، فكونه فرعون مصر "إخناتون" ابن ملكها السابق العظيم "أمنحتب الثالث" لا يشفع له عند الكهنة والقادة أن يُترَك ليبشر بدين جديد يجمع الناس كلهم –لا المصريين فقط– تحت راية إله واحد.

أما إذا انتقلنا شمالًا، إلى فلسطين، فمن المؤكد أنك ستُصدَم وأنت ترى شابة فاتنة تمسك بطست من فضة عليه رأس مقطوع لرجل كان اسمه "يحيى بن زكريا"، صوت صارخ في البرية ينادي في الناس أن توبوا؛ فقد اقترب ملكوت السماء! ولو اختصرت معي بعض السنوات لتضاعفت صدمتك وأنت ترى كهنة رب بني إسرائيل التُّقاة



يتحدثون ببساطة عن سفك دم مسيحه -عليه السلام- لأن حديثه لا يروق لهم!

وعبر تلك الرحلة الطويلة ستسمع أنات الآلاف من المصلوبين والمعذبين والذين ألقوا للنار والوحوش المفترسة عبر السنين؛ لأنهم مارسوا حقهم العادل في حرية العقيدة.

والآن... عُد إلى زمنك واسأل نفسك، ألم يكن قد آن الوقت للدعوة الجديدة المولودة في قلب أرض محاصرة من كل جانب بالدول العظمى وجيوشها وجبروتها، أن تتعلم الدرس ممن سبقوها من فلاسفة وأنبياء، وأن يكون السيف في يدها لا لتفرض نفسها به، ولكن لتحمي حق أتباعها في تقرير المصير؟

كان هذا أمرًا فرض نفسه، فرغم جنوح المسلمين الأوائل للسِلم مع الأمم المجاورة جوبهت دعوتهم بالعداء؛ فكسرى مزَّق رسالة النبي إليه، وأمر حاكمه على اليمن بالقبض عليه وإرساله مكبلًا إلى المدائن، وقيصر قام أحد ولاته على الشام بقتل رسول رسول الله إليه، واضطهد رجاله القبائل العربية المقيمة على حدود الشام والتي اعتنق أبناؤها الإسلام، فلم يكن من بدٍّ من إظهار أبناء الدين الجديد أن على الأنظمة الطاغية التي احترفت اغتصاب حرية الإنسان في اختيار مبادئه وأفكاره أن تزول ليحل محلها نظام جديد يكفل تلك الحريات.

الجانب الآخر

الفارق الآخر بين فتوحات المسلمين وغزوات الفُرس والرومان والأمم الأخرى، كان في ترحيب شعوب البلدان المفتوحة بالفاتحين الجدد. فأهل الشام والعراق -بالذات المناطق المتاخمة لجزيرة العرب- اعتبروا الحرب حرب تحرير لهم بحكم كونهم عربًا في الأساس، مما جعل كثيرًا منهم ينضمون لصفوف الجيش العربي، بل وتولى بعضهم -في مراحل تالية- مهام قيادية في الفتوحات التالية. وأما في مصر فقد أمر البطريرك بنيامين -أبو الكنيسة القبطية آنذاك- الأقباط أن يمدوا يد العون لـ"أبناء إسماعيل" القادمين من الصحراء، فكان من الأقباط من يساعد جيش عمرو بن العاص ببناء الجسور والقناطر لعبور الجنود، وكان منهم من يشارك العرب المعارك بإثارة الثورات والاضطرابات ضد البيزنطيين؛ ليكون الجيش البيزنطي بين مطرقة العرب وسندان المصريين.

أما عن باقي الأقطار -بالذات الآسيوية منها- فقد لاحظ المؤرخ الأمريكي "هيو



كينيدي" مسألة أكد عليها وهي أن كثيرًا من البلدان انضمت من تلقاء نفسها للإمبراطورية العربية الإسلامية، وهي المسألة التي يدلل عليها زميله المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون بأنه حتى الأمم التي تغلبت أحيانًا على العرب فيما بعد -كالأتراك والمغول- سرعان ما اعتنقت الإسلام، وذابت في نسيج الدولة العربية الإسلامية الكبرى، ووضعت إمكانياتها البشرية في خدمتها، وهي مسألة لم تكن لتتحقق لولا وجود عناصر الجذب والاندماج في بنيان العرب والمسلمين.

جملة اعتراضية... عن السعي خلف الثروات نتحدث

هنا يجب أن تكون لنا وقفة مع الاتهام الموجَّه للعرب بأن البحث عن الثروة كان وراء خروجهم للغزو. دعونا نعترف أولًا أن العرب المسلمين بشر كأية أمة أخرى، وقد كان قانون العالم آنذاك أن تغزو أو تُغزَى، كما كانت مسألة مبادرة الأمم الناشئة جيرانها بالغزو مسألة عادية مقبولة، أما ما كان محلًّا للقبول أو الرفض فهو أسلوب سياسة الأمة الفاتحة لرعاياها الجدد.

ومن الخطأ أن نُقيِّم أحداث الأزمان الماضية بمقاييس عصرنا الحالي، كما أنه من الخطأ أيضًا أن نتشبث بتفسير واحد فقط للأحداث؛ فالدوافع تكثر وتتنوع، ومن الوارد أن يكون بين المسلمين من خرج للغنيمة وثانٍ خرج للجهاد وآخر خرج لهما معًا.

أما دوافع السلطة السياسية للغزو فهي كذلك متنوعة عبر العصور، فبينما كانت في الفترة الأولى للإسلام مرتبطة بالجهاد لنشر الدين وتحرير الشعوب، فقد ارتبطت في الفترات التالية بدوافع أخرى كتحقيق المجد الشخصي أو إثراء الدولة أو الجهاد في سبيل الله، والمقياس هنا هو أسلوب التعامل مع الأمم المغلوبة -كما سلف القول- فإن غلب عليه التسامح الديني والتساهل فيما يخص جباية الخراج والجزية، كان هذا يعني تغليب الدافع الديني، أما لو ارتبطت الغزوات بالسلب والنهب فهنا يكون الدافع الدنيوي أقوى، ولكن المُلاحظ -بشهادة المعاصرين للفتوحات- هو غلبة الدافع الديني المعنوي؛ إذ إن أية وقائع للمبالغة في فرض الضرائب بأنواعها وجبايتها، كانت عادة مرتبطة بأحداث فردية عانت منها كل فئات المجتمع -من عرب ومسلمين وغيرهم- بسبب جشع الحاكم أو سوء إدارته أو تعصبه الديني تجاه أهل الذمة.



وعادة ما كانت الثورة على هذا الحاكم تخرج من صفوف الشعب كله بكل عناصره. وكثيرًا ما كان الخليفة يعزل هذا الوالي أو ذاك، وربما يعاقبه بالحبس أو المصادرة، لو خالف روح العدل فيما يخص جمع الأموال. مما يعني انتفاء سيطرة دافع الطمع المادي على خروج المسلمين للغزو.

الخلاصة:

إذن فحروب نشأة النظام العالمي العربي الإسلامي لم تكن موجهة ضد الشعوب بل ضد طغاتها. وهذه هي إجابة السؤال الذي طرحته في نهاية الجزء الماضي "كيف أسقط العرب النظام العالمي السابق؟" والإجابة هي أنهم قد أسقطوه بعناصر فساده، وبأن جاءوا للعالم بنظام جديد عادل أثار حماسة المقهورين للانضواء تحت رايته، فكان في هذا عوضٌ كبير عن الافتقار للعتاد المتوفر عند العدو.

بالتأكيد كان للعناصر المادية المتمثلة في التسليح.والخطط البارعة والخداع الاستراتيجي دورها العظيم الذي لو غاب لما تحقق أي إنجاز، ولكننا هنا لسنا في محل للحديث عن فنون الحرب والقتال بقدر ما نعنى بالحديث عن التغيير الذي حمله العرب معهم لإخوانهم في الإنسانية، وجعل هؤلاء الإخوان بمثابة جيش آخر وضع نفسه في عون الجيش العربي، فعوّض فارق القوة المادية بين العرب وخصومهم الطغاة، وأثبت للعالم أن مجرد اتفاق الإرادة بين المطالبين بالحرية -سواء كانوا محرَّرين أو محرِّرين- من شأنه إحداث انقلاب عنيف في موازين القوى...

ولكن هذا ليس كل شيء... فعولمة العرب كما تميزت بالعدالة السياسية والدينية، تميزت بأمر لا يقل أهمية لم يوجد في نظام عالمي من قبل أو من بعد، هو التنوع الثقافي والعرقي فيمن قادوا النظام العالمي العربي الإسلامي...



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – تاريخ بن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – مصر القديمة في عيون حديثة: د.جمال بدوي.

4 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د.جمال بدوي.

5 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

6 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

7 – حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي.

8 – جزيرة العرب قبل الإسلام: برهان الدين دِلُّو.

9 – فلاسفة أيقظوا العالم: د.مصطفى النشار.

10 – قصة الفلسفة اليونانية: د.أحمد أمين – د.زكي نجيب محمود.

11 – فجر الإسلام: د.أحمد أمين.

12 – موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.

13 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

14 – الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي.

15 – مصر القبطية: محمود مدحت.

16 – الوثنية والإسلام: ك. مادهو بانيكار.

17 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

18 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

19 – شمس العرب تسطع على الغرب: د.زيجريد هونكه.

20 – الإسلام في عيون غربية: د.محمد عمارة.

21 – أطلس التاريخ العربي الإسلامي: د.شوقي أبو خليل.

22 – أطلس تاريخ الإسلام: د.حسين مؤنس.

23 – تاريخ الخلفاء الراشدين: د.محمد سهيل طقوش.

24 – العالم البيزنطي: ج. م. هسي.

25 – تاريخ مصر في العصر البيزنطي: د.صبري أبو الخير سليم.



26 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: د.عمرو صابر عبد الجليل.

27 – المسلمون وأوروبا: د.قاسم عبده قاسم.

28 – اللاهوت العربي: د.يوسف زيدان.

29 – الإسلام رمز الأمل: هانز كونج.

30 – محمد نبيّ لزماننا: كارين أرمسترونج.

31 – تاريخنا المفترى عليه: د.يوسف القرضاوي.

32 – محمد والذين معه: عبد الحميد جودة السحار.

33 – خلفاء الرسول: خالد محمد خالد.

34 – المسيح عيسى بن مريم: خالد محمد خالد.



(٨)

الاندماج

"لكم ما لنا وعليكم ما علينا" هكذا من البداية قالت رسائل الرسول -عليه الصلاة والسلام- وخلفائه -رضي الله عنهم- لملوك وشعوب الأرض عندما آن للدعوة الإسلامية أن تخرج من النطاق العربي للعالم أجمع. كانت هذه العبارة البسيطة تعبّر بوضوح وقوة عن رسالة الدولة الوليدة في نشر فكرة "تقبّل الآخر"، أما من اختار البقاء على دينه، فقد تقرر وضعه من البداية أنه من "أهل ذمة الله ورسوله والمسلمين" أي أنه -بحكم قاعدة صارمة أبدية- في حماية المسلمين بأمر إلهي حاسم. هاتان القاعدتان أغلقتا أي باب للتمييز العنصري في الدولة، وأعلنتا من البداية احترام التعددية العرقية والدينية لأبناء الدولة الجديدة.

من هذا المنطلق أصبح الباب مفتوحًا للجميع للمشاركة في مختلف أوجه الحياة في ظل الدولة العالمية الجديدة. والحقيقة أن ذلك الاندماج فرض نفسه على مختلف المستويات. فعلى المستوى السياسي شهدت الفتوحات العربية للشام والعراق ومصر وحتى الأندلس، مشاركة من كثير من أبناء تلك البلدان في دعم الجيوش الإسلامية الفاتحة، رغبة منهم في التخلص من سيطرة الفُرس في العراق، والروم في مصر والشام، والقوط في الأندلس، بالذات في مصر حيث قام الأقباط ببناء القناطر والجسور لعبور الجيش العربي، وأشعلوا الثورات ضد البيزنطيين لجعلهم بين مطرقة العرب وسندان المصريين، وفي الأندلس قام اليهود بتكوين حاميات عسكرية لحماية ظهور الجيش المسلم خلال توغله في الأراضي



الأوروبية في بدايات الفتوح هناك... إذن فمجرد مشاركة أبناء المناطق المفتوحة في عمليات الدعم للفتوحات خلق لغة مشتركة بينهم وبين حكومة النظام العالمي الناشئ، واختصر مسافات من التوجس وضعف الثقة التي تنشأ عادة بين أي فاتحين جدد وشعوب البلدان المفتوحة، فتكونت الثقة المتبادلة سريعًا، مما ساعد على تفاعل الجميع إيجابيًا، ووصولهم لنقاط تفاهم مشتركة.

وعلى المستوى الثقافي، كان لدى العرب فضول لمعرفة كل ما يتعلق بذلك "الآخر" الذي سيتعايشون معه إلى ما شاء الله، فضلًا عن رغبة "المتدينين" منهم في نشر الإسلام، الأمر الذي يتطلب عقد جلسات الحوار بين المسلمين وغيرهم، بالإضافة لرغبة الفاتحين في فهم طبائع المجتمعات المنضمة حديثًا للدولة، وبالطبع كان كل ذلك دافعًا على نشأة حركات الترجمة -التي بدأها خالد بن يزيد بن معاوية- ونشأة العلوم المتعلقة بالجدال والكلام والفلسفة والمنطق، وقيام العرب بتلقي علوم المساحة والهندسة والجغرافيا من أهل العلم في الولايات المختلفة للإمبراطورية الإسلامية، وتطويرها بعد ذلك.

كذلك كان النظام الجديد متقبلًا للتنوعات الفكرية، فرفع الاضطهاد الروماني عن اليهود والمخالفين للمذهب الرسمي البيزنطي، ورفع الرقابة الفارسية على المخالفين للديانة الزرادشتية الرسمية للدولة، مما أعطى مساحات من الحرية للمفكرين والحكماء للقيام بعملهم دون خوف، مما صب في صالح الثراء الثقافي للدولة.

ومن الناحية الاجتماعية كانت قيادات الصف الأول من الفاتحين مكونة من رجال لديهم خبرات عميقة في التفاعل مع الآخر، فعمر بن الخطاب -الذي شهد عهده فتح مصر والشام والعراق- كان فيما قبل الإسلام سفيرًا لقريش لدى القبائل المختلفة، فكانت لديه خبرة التعامل مع الآخرين مع تعدد وتنوع طبائعهم وميولهم، وبين قادة الجيوش الفاتحة كان رجال احترفوا في حداثتهم التجارة والسفر فخبروا الاختلافات بين الثقافات، من هؤلاء الناس عمرو بن العاص الذي زار مصر قبل الإسلام وخبر أحوالها، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي كانت أسرته تحتكر جزءًا كبيرًا من تجارة قريش في الشام، والمثنى بن حارثة، الذي كانت قبيلته تعيش في المنطقة الحدودية بين الشام وجزيرة العرب... وغيرهم...

هذا فضلًا عن القدرة الفطرية للعربي على الانسجام مع من حوله، الأمر الذي بدا في سرعة قيام علاقات صداقة ومصاهرة بين العرب وأهل البلدان التي فتحوها، فسرعان ما نشأت أجيالٌ دماؤها مختلطة عربية شامية أو عربية فارسية أو عربية مصرية وعربية أندلسية... وهكذا.



بهذا الشكل كانت اللبنة الأولى لعملية الاندماج العظيم بين العرب وغيرهم والمسلمين وسواهم، ذلك الاندماج الذي صنع النسيج البشري للإمبراطورية الممتدة من الصين للأندلس.

عولمة القيادة

عندما نستعرض قيادات تاريخنا العربي فإننا نبدأ بأسماء عربية خالصة مثل عمر بن الخطاب، ومعاوية بن أبي سفيان، وهارون الرشيد، ثم تقابلنا وجوه نصف عربية أو مستعربة مثل صلاح الدين الأيوبي (كردي)، وأحمد بن طولون (تركي)، وكافور الإخشيد (حبشي)، ويوسف بن تاشفين (بربري)، ولو تقدمنا بالقرون سنجد ملامح وأسماء غير عربية إطلاقًا ك: تيمورلنك (مغولي)، وسيف الدين قطز (تركي)، والأشرف قايتباي (روسي)...

هذا التنوع العرقي في قيادة بعض أو كل البقاع المنتمية للإمبراطورية العربية الإسلامية، إنما يدلل بشدة على "عالمية" تلك الدولة، ومرونتها الكبيرة التي سمحت بهذا التنوع الشديد في أصول من قادوها. والمثير هو وحدة الانتماء العربي الإسلامي المسيطر على مختلف أوجه الحياة في تلك الإمبراطورية، فرغم تعرضها لفترات طويلة من التفرق السياسي، وقيام أكثر من نظام حاكم متزامنين، واختلاف أنماط الحياة لا فقط بين نطاق سيطرة نظام وآخر بل في داخل نطاق كل نظام، إلا أن قاعدة "الكل أكبر من مجموع أجزائه" كانت هي المسيطرة، ففي حسابات التاريخ الحضارة العربية الإسلامية هي كل ذلك الجزء الضخم من العالم الممتد من صحراء سيبيريا الجليدية وسهوب الصين مرورًا بالشام ومصر وانتهاءً بالأندلس، مهما كان تعدد الأنظمة الحاكمة بل وتنافرها وتحاربها، ومهما كانت أصول هذه الأنظمة وطرق قيامها وقصر أو طول عهودها، فهي محسوبة على "الكل" وهو "حضارة العرب". صحيح أننا نتحدث عن "الدولة الأموية" و"الدولة العباسية" و"الدولة الفاطمية" و"الدولة الأيوبية"... إلخ... لكننا نتحدث عن "دول وأنظمة حكم" لا "حضارات منفصلة". وهذا يعني أن التجربة العربية للعولمة لم تكن فقط تجربة "قيادة عربية عادلة للعالم" بل كانت بالفعل قيادة عالمية للعالم أعطيَت كل الأعراق المشاركة بها فرصة قيادتها في مختلف المجالات، وسواء حصلت على تلك الفرصة سلمًا أو بذلت لأجلها الدم والمال، فإن مجرد إتاحة الفرصة لها لم يكن لولا وجود بذرة تقبل الآخر في الأساس الذي قامت عليه تلك الحضارة.



شيء يدفع للسخرية

بعد قراءة ما سبق، أليس لي الحق أن يرتفع ضغطي غيظًا حين أفتح هذه القناة الإخبارية أو تلك، أو هذا الموقع الإخباري أو ذاك، فأجد "خواجة" متأنقًا متعجلًا يقف في لوبي فندق فاخر، ويتحدث في مؤتمر صحفي عن نصيحته لأبناء الطوائف أو العرقيات المختلفة في هذا البلد العربي أو ذاك أن "يحاولوا" الوصول للتفاهم المشترك بينهم، "لعلهم" يستطيعون أن يتعايشوا سويًّا؟ بالتأكيد كلامه مستفز، لكن ما هو أكثر استفزازًا أن يكون منا من فتح له الباب ليأتي من بلاده، و"يعلِّمنا" التعايش مع الآخر!

الخلاصة:

والحقيقة أن العبارة الأخيرة هي مربط الفرس فيما يلي... فلأن لكل دولة نهاية، ولكل حضارة أجل، فقد كان من الطبيعي أن تخضع حضارة العرب لتلك القاعدة الصارمة، وأن يأتي يوم تنهار فيه التجربة العربية العظيمة للعولمة... والمؤلم ألا تأتي النهاية بسيف غازٍ أو خنجر متآمر غريب، بل أن ينهار البنيان من الداخل؛ ليقدم دليلًا قويًّا أن الأمم العظيمة لا تُقتَل... بل تنتحر...

وهذا موضوع حديثنا التالي...



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

4 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

5 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

6 – شمس العرب تسطع على الغرب: د.زيجريد هونكه.

7 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

8 – الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي.

9 – تاريخ الخلفاء الراشدين: د.محمد سهيل طقوش.

10 – تاريخ ضائع: مايكل هاميلتون مورجان.

11 – تاريخ المسلمين في الأندلس: د.محمد سهيل طقوش.

12 – موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.

13 – تاريخ المغول العظام والإيليخانيين: د.محمد سهيل طقوش.

14 – تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند: د.محمد سهيل طقوش.

15 – عصر سلاطين المماليك: د.قاسم عبده قاسم.

16 – مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد: د.جمال بدوي.

17 – تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: د.محمد سهيل طقوش.

18 – تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين: د.محمد سهيل طقوش.

19 – تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة: د.محمد سهيل طقوش.

20 – أطلس التاريخ العربي الإسلامي: د.شوقي أبو خليل.

21 – ملامح تاريخ المغرب والأندلس: د.حسين مؤنس.

22 – الأحكام السلطانية: أبو الحسن الماوردي.



(٩)

السقوط

الأندلس – مشارف غرناطة – 1492:

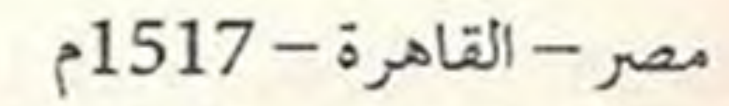
"لقد أضعتُ وقتًا طويلًا في التوافه. وأجد تعويضًا عن هذا التضييع في أنني كنتُ– وإن لم يكن بجدارة– سلطانًا لما تبقى من شعب حمل في يديه خلال عصر لامع صولجان المعرفة".

(رواية: المخطوط القرمزي – يوميّات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس – تأليف: أنطونيو جالا)

توقف بفرسه فتوقف الرَكبُ كله... نظر للخلف وأطلق زفرة حارة تحمل ألمًا وندمًا ومرارةً تليق بمن كُتِبَ عليه أن يكون آخر ملوك العرب في الأندلس... زفرة أطلق الإسبان على مكانها اسم "زفرة العربي الأخيرة"... سرعان ما انهارت بقايا كبريائه الملكي، فأجهش بدموع حارقة... رفع عينيه إلى أمه مستغيثًا مِن الحزن العميق، فهالته نظرة ازدراء بصقتها في وجهه قائلة: "ابكِ كما تبكي النساء، مُلكا لم تصنه كالرجال!".

هكذا كانت بداية المشهد الأخير...





مصر – القاهرة – 1517م

"وفي ذلك اليوم خُطِبَ باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة، وقد ترجم له بعض الخطباء، فقال: وانصر اللهم السلطان بن السلطان، مالك البرّين والبحرين، وكاسر الجيشين، وسلطان العراقين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر سليم شاه، اللهم انصره نصرًا عزيزًا، وافتح له فتحًا مبينًا، يا مالك الدنيا والآخرة، يا رب العالمين".

(محمد بن إياس – كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور – في وصف دخول السلطان العثماني سليم الأول إلى مصر)

هكذا كانت نهاية القصة كلها! فمصر –الحصن الأخير للنظام العالمي الإسلامي– أصبحت بين عشية أو ضحاها إلى مجرد "باشوية"..

واحدة من ولايات سلاطين بني عثمان المتربعين على عروشهم في الأستانة. هكذا انتهت القصة، فبعد أن انتشل المماليك النظام العالمي الإسلامي من سقطته أمام المغول في بغداد، وأقاموه مرة ثانية من القاهرة، وحكموا به أغلب العالم القديم، وتحكموا في مقادير الباقي منه، جاء سقوط الأندلس ليقوّي نفوس أعداء الحضارة العربية، ثم جاءت طعنة الانتحار بيد أحد المحسوبين على تلك الحضارة –سليم الأول سلطان العثمانيين– ليقضي على بنيان عظيم بدأ كنواة صغيرة في يثرب، وسقته دموع ودماء وعرق الملايين طوال ثمانية قرون من عمر الزمن...

ليكون سقوطه بفعل الانسياق لشهوة السلطة، وتسليط البأس على الإخوة في الدين والحضارة والكفاح المُشترَك. صحيح أن سليم الأول –والعثمانيين عامة– لا يتحملون وحدهم ذلك الوزر، ولكنهم يتحملون أغلبه؛ إذ إنهم هم من وضع المسمار الأخير في نعش الحضارة العربية، رغم قدرتهم على انتشالها من كبوتها، كما فعل أسلافهم المماليك.

طعنة من الداخل:

عندما قام السلطان محمد –الملقب بالفاتح– بإسقاط الدولة البيزنطية من خلال



فتحه القسطنطينية وتحويلها لعاصمة لدولته، ضجَّ العالم العربي والإسلامي بالفرحة، واعتُبِرَ ذلك علامة على انضمام جنود جدد للجبهة المدافعة عن الحضارة الإسلامية ضد الطامعين في إسقاطها.

وأكَّد ذلك اضطلاع الدولة العثمانية بلعب الدور الأعظم في تأمين حدود العالم الإسلامي مع أوروبا الشرقية، وفي الأسطول العثماني الذي حافظ على السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط.

إذن فقد سيطرت قوتان -مملوكية من القاهرة، وعثمانية من إسلامبول (إسطنبول فيما بعد)- على تلك الإمبراطورية الشاسعة، ورغم خلافات الدولتين -وصداماتهما أحيانًا- من أجل السيطرة على المناطق الحدودية بينهما، إلا أنهما أدركتا ضرورة وجود سقف للخلافات بينهما، وخط أحمر لا تتجاوزه إحداهما، حمايةً للإرث الهائل الذي تحكمتا به.

ذلك التفاهم المشترك شجَّع السلطانين -العثماني بايزيد الثاني والمملوكي الأشرف قايتباي- على نبذ الخلافات جانبًا والتعاون لأجل توجيه حملة مشتركة عثمانية مملوكية لإنقاذ غرناطة -آخر حصون العرب في الأندلس- من الحصار القشتالي. وبالفعل جرت التجهيزات على قدم وساق، رغم أن السلطانين المذكورين كانا في لحظة ما على شفا حرب طاحنة بينهما، إلا أنهما نحَّيا خلافاتهما العميقة جانبًا، ووضع كل منهما يده في يد رفيقه؛ لأجل الهدف الأسمى: الدفاع عن الحضارة الإسلامية.

كانت ملحمة عظيمة تُكتَب، ولكنها وُئِدَت في مهدها بانقلاب سليم بن بايزيد على أبيه، وتوليه الحكم باسم سليم الأول، وتوجيهه كل الجهود والتجهيزات لأجل هدف واحد: الاستيلاء على ممتلكات المماليك في الشرق، بل وعلى دولتهم ذاتها!

وهكذا تعطلت عملية إشغال أوروبا بصد الضربات العثمانية من شرقها، فتفرغ الأوروبيون لأطماعهم في بلاد الشرق، وأُجهِضَت عملية إنقاذ غرناطة، فكان ما كان من سقوطها عند أقدام الملكين فرناندو وإيزابيلا!

وتوالت الضربات العثمانية على إخوان الأمس -المماليك- حتى سقطت مصر في يد العثمانيين سنة 1517م.

سقوط الدولة المملوكية كان سقوطًا للنظام العالمي كله، فالسلطان المملوكي كان لقبه



الرسمي أنه" سلطان البرّين (مصر والشام) وملك البحرين (الأحمر والمتوسط) وخادم الحرم القدسي والحرمين الشريفين"، بالإضافة لخضوع الجزيرة العربية وأغلب المغرب العربي له، فكان سقوط النظام المملوكي سقوطًا للدولة كلها؛ خاصة أن المماليك طالما كانوا -رغم سلبياتهم الكثيرة- يدافعون عن هيبة السلطة الإسلامية في العالم كله.

وفاة النظام العالمي العربي الإسلامي:

طوال عمر الأنظمة المتتالية على الحضارة العربية الإسلامية، كان كل من يعيش -مقيمًا من الأصل أو مهاجرًا- داخل مناطق نفوذ العرب يُعتَبَر من رعايا الدولة، له ما لهم من حقوق، وعليه ما عليهم من التزامات، و لم يكن اختلاف الحقوق والالتزامات بحكم الانتماء العقائدي أو العرقي ليمنع حقيقة أن كل فرد في الدولة لديه فرصة للترقي والعلو وفق قدرته على الكفاح والمثابرة، فكان من القادة والوزراء ورجال السياسة والعلم والتجارة أناس من كل دين وكل عرق.

كما كان النظام الحاكم -باختلافاته وتنوعاته- يحافظ على النوافذ المفتوحة على العالم المحيط، فيأخذ من الآخر ما يلائمه وينبذ ما غير ذلك، وهذا من أهم ما قامت عليه حضارة العرب والمسلمين.

(وأكرر تنبيهي أن وصف "عربي" أو "إسلامي" هنا لا يُقصَد به بالضرورة أن يكون الفرد عربيًا أو مسلمًا، بل أن يكون ممن ينتمون للدولة العربية الإسلامية من كل عرق ودين).

أما النظام العثماني فقد كان نظامًا عنصريًا قائمًا على سيطرة العرق التركي، ومن يجيدون تملقه، على مقدرات الأمور، وكذلك قام على نبذ كل ما جاء من خارج الأقطار الإسلامية، باعتبار مصدره "كافرًا عدوًا للإسلام والمسلمين"، وهكذا فُرِضَت على العرب والمسلمين عزلة استمرت حتى قدوم الحملة الفرنسية سنة 1799م!

بهذا الشكل كتب العثمانيون شهادة وفاة أرقى نظام عالمي عرفته البشرية، وحوّلوه إلى قمقم لأهله، وبالتالي توقف الزمن عند العرب والمسلمين، أو توقفوا هم عند نقطة فيه، بينما استمر غيرهم معه في رحلته.



جريمة في حق الإسلام والمسلمين

كذلك ارتكب العثمانيون جريمة كبرى في حق الإسلام والمسلمين، فقد عملوا على رعاية نشر الخرافات والشعوذة والنوع الفاسد من التصوف، وربطوا ذلك بالدين، واستغلوا الشريعة لخدمة هدف واحد: خضوع الجميع للسلطان المتربع على دست الحُكم بتركيا، والمُتخَم -هو وأعوانه- بأموال الضرائب المنتزعة من أقوات أهل الدولة "السَنية العلية"، وأصبحت رسالة رجال الدين في ذلك العهد الأسْود هي أن يؤمن الفرد من الرعية بأن "الله في السماء، والسلطان ظله في الأرض"!

القسم الآخر من الجريمة، هو تغذية بذور التعصب الديني وكراهية الآخر لدى الناس، فبعد أن كان المسلمون ينظرون للآخر على أنه "إنسان" منه الصالح والطالح، نشر الفكر العثماني فكرة أن الآخر عدو للإسلام، ماله وعرضه ودمه ونساؤه وكل ما له غنيمة حلال للمسلمين، وعلى هذا الأساس ارتكبت الجيوش التركية خلال غزاتها في أوروبا الشرقية مجازر فاحشة، الإسلام بريء منها، بقيت آثارها حتى يومنا هذا في النظرة الأوروبية للمسلم، خاصة مع هجرة الناجين من تلك المذابح إلى روسيا والبلقان، وتوارثهم الحكايات البشعة عن أفعال المسلمين...

أعتقد أن معلومة كهذه يمكن أن تفسّر لنا سر تلك الوحشية التي حرّكت رجالًا مثل مجرمي الحرب الروس في الشيشان والصرب في البوسنة، وأنا هنا لا أبرر ما فعله الصرب والروس، ولكني أذكر نصيب العثمانيين من وزره!

وقفة هامة:

يقول المستشرق "جوستاف لوبون" أن العرب والمسلمين بدأ سقوطهم بتوجيههم سيوفهم لأنفسهم بدلًا من أن يوجهوها للخصوم. مما ينبهنا إلى أن بذرة الانهيار كانت مزروعة في جسد تلك الحضارة العظيمة منذ أول مرة ارتفع فيها سيف عربي على عربي مثله، أو مسلم على مسلم مثله، أي منذ حصار الثوار للخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ أي منذ البدايات الأولى للدولة.

هذا صحيح، ولكن تلك البذرة كانت تُجهَض كلما نشطت، حتى جاء من يذكيها ويسقيها وينميها...



فعليه وحده يقع الجزء الأعظم من تلك المسئولية المخزية عن انهيار ملحمة إنسانية عظيمة...

كانت في الحضارة أدوات انهيارها... هذا صحيح، ولكن ماذا كان سيصبح المصير لو أن سليم الأول ترك أباه يكمل مشروعه مع المماليك، أو كان هو أكمله؟

أو حتى ماذا كان سيحدث لو أن العثمانيين تعلموا الدروس من أسلافهم في قيادة الحضارة، وسخّروا إمكانياتهم العملاقة لقيادة دفة السفينة كما ينبغي؟ أعتقد أن على من يراني متحاملًا على العثمانيين أن يطرح على نفسه هذه الأسئلة السالفة...

ختام الجزء التاسع:

بالتوازي مع التجربة العربية للعولمة، جرت محاولة أوروبية، أقول من البداية إنها كانت فاشلة، ولكنها كانت الأخطر أثرًا... إذ زرعت بذرة تلك الحرب الطاحنة للعولمة التي يعيشها عالمنا اليوم...



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

3 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن ابن خلدون.

4 – غرناطة بني نصر: أنطونيو جالا.

5 – ملامح تاريخ المغرب والأندلس: د.حسين مؤنس.

6 – الدولة العثمانية: د.محمد سهيل طقوش.

7 – دولة المماليك في مصر وبلاد الشام: د.محمد سهيل طقوش.

8 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

9 – شمس العرب تسطع على الغرب: د.زيجريد هونكه.

10 – تاريخ المسلمين في الأندلس: د.محمد سهيل طقوش.

11 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

12 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

13 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

14 – كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة: ماريا دل كارمن بيسكادور دل أويو.

15 – إشراقات أندلسية: د.عبد الفتاح عوض.

16 – علاقة مملكتيّ قشتالة وأرجون بسلطنة المماليك: د.محمد محمود النشار.

17 – التاريخ الوسيط: نورمان ف.كانتور.

18 – العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا: د.نادية مرسي صالح.

19 – الحروب الأهلية في غرناطة: بيريث دي إيتا.

20 – حرب غرناطة: أورتادو دي مندوثا.

21 – الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي.

22 – موسوعة تاريخ العرب: عبد عون الروضان.

23 – تاريخ الدولة العلية العثمانية: محمد فريد بك المحامي.

24 – الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة: أوليا جلبي.

25 – عصر سلاطين المماليك: د.قاسم عبده قاسم.

26 – الأرض والمجتمع في مصر في العصر العثماني: أيمن أحمد محمود.



(١٠)

"هذه الموجة الأخيرة من تَصاعُد معدل العولمة لا يمكن إلا أن تُذَكِّر المرء بالهجمات الاستعمارية التي طغت على بلاد العالم الفقيرة وقليلة الحظ من التصنيع، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. صحيح أن لفظ "الاستعمار" نفسه لم يعد من الشائع استعماله الآن، ولكن ما أهمية تغيير الأسماء إذا كانت الظاهرة تحمل الكثير من السمات القبيحة للاستعمار؟"

(د. جلال أمين- كتاب: عولمة القهر)

أرمجدون الجديدة.. تُولَد:

قف أمام الخريطة... دقِّق جيدًا فيها... كُن مستعدًا للانتقال معي من محطة لأخرى عبر الزمان والمكان...

المحطة الأولى: مصر 1956م

الملايين يحتفلون بالهزيمة المدوِّية لقوات العدوان الثلاثي على مصر، آلاف الصور لعبد الناصر ترفعها أيادٍ متحمسة، تهتز على وقع هتافات حناجر بَحَّتها صيحات النصر.

إسرائيل تنكمش على نفسها، بريطانيا وفرنسا تلعقان جروحهما بعد الصفعة المدوية التي تمثلت في الرفض الأمريكي السوفيتي العنيف للعدوان. والحقيقة أن العملاقين الأخيرين لم يكونا يومًا من المدافعين عن حرية الشعوب، ولكن الحقيقة هي أن الأمر



لم يكن سوى فصل من قصة صراعهما معًا، فأمريكا -ببساطة- كانت ترغب في لفت نظر العالم لتدخُّل الجيش الروسي في دولة المجر؛ للقضاء على التمرد الشعبي والحكومي المجري على الهيمنة السوفييتية على أوروبا الشرقية، ولكن العالم كان مشغولًا بأحداث العدوان على مصر، مما تطلَّب من الولايات المتحدة أن تنهي الحرب المصرية بأية طريقة... وهكذا، خرج الإنذار الأمريكي، الذي استفزَّ السوفييت لإطلاق إنذار مماثل لكي لا تبدو أمريكا وحدها في صورة المسيطر على الأمور!

وهنا عرف العالم أن سادة جددًا للعالم قد ظهروا... وأن عهد الهيمنة البريطانية الفرنسية قد انتهى وولى!

المحطة الثانية: روسيا 1991م

العالم يحاول ابتلاع حقيقة أنه قد قرأ للتو شهادة وفاة الاتحاد السوفيتي، وأنه -العالم- سيكون منذ تلك اللحظة تحت رحمة قطب واحد فقط، ربما لأول مرة في التاريخ الحديث -وربما المكتوب كله- قطب أمريكي منتفخ بنشوة الإحساس بالتفرد بصنع القرار الدولي!

انهار "الستار الحديدي"... لم يَعُد السوفييت بالنسبة لشيوعيي العالم "السادة الحُمر الحاملين لمشعل العدالة الاجتماعية"، ولم يَعُد الأمريكيون بالنسبة للكتلة الشرقية السابقة هم "الإمبرياليون الرأسماليون مصاصو دماء الشعوب الفقيرة". جاء "رسل الحرية" إلى الشرق الأوروبي الأحمر سابقًا ليزيلوا عنهم عناء القهر السوفيتي الطويل، جاءوا ممتطين الشيفروليه والشيروكي والفورد، محملين بالبلو-جينز والهوت دوج، واعدين الشعوب العطشى للحرية بجنات تتفجر فيها أنهار البيبسي، وينهلون فيها من الهامبورجر حتى التخمة!

المحطة الثالثة: أمريكا 2001م

أمريكا تهتز! تمثال الحرية تعلو ملامحه نظرة غير مصدقة أن بعض الرعاع من رعايا "الأغيار" ضربوا برجيها التجاريين العالميين، بل وتمادوا فبلغت ضرباتهم البنتاجون نفسه!

أمريكا تنتفض!... تطلب الثأر... ترقص رقصة الحرب، وتعلنها صراحة: من ليس معي... فهو ضدي!

ربما يحسب البعض أن أحداث 11 سبتمبر 2001 كانت بداية "تغير" في السياسة



الأمريكية، ولكني -بشكل شخصي- أرى أنه لا شيء تغير من تلك السياسة. كل ما تغير هو أسماء أعداء الحلم الأمريكي، فعبد الناصر أصبح شافيز، وجيفارا تحول إلى ابن لادن، والشيوعية الشمولية حل محلها الإرهاب، وتم تغيير ساحات اللعب لتحل العراق وأفغانستان محل فيتنام وأمريكا اللاتينية! لا شيء تغير سوى أن العم سام قد أصبح أكثر مرحًا، فأضاف بعضًا من أصباغ الحرب لوجهه، وحرص على أن يؤدي جيدًا رقصة المحاربين ليسعد الجمهور!

المحطة الرابعة: أرمجدون

في ضوء كل ما جرى وما يجري... ومستوى تطور لعبة العولمة الأمريكية، أعتقد أني أُفضِّل أن أترك كُلًا لخياله... على أن يكون ذلك الخيال مُطلق العنان لأعتى الدرجات!

طارد الأرواح الشريرة:

في فيلم أمريكي كوميدي كان البطل يعمل "طاردًا للأرواح الشريرة"، وكان قد اتفق مع بعض الأشباح أن يساعدوه بأن يختبئوا في "آلة شفط الأشباح" الخاصة به، وعند دخوله المنزل يطلقهم سرًّا، فيعيثون فيه فسادًا، فيستغيث به السكان ليقوم بشفط الأشباح ويخرج ممتلئ الجيب بدولاراتهم، مشيَّعًا بالشكر والثناء لشجاعته ومهارته... هذا بالضبط ما تفعله أمريكا!

فهي تصنع "الشبح الشرير" وتطلقه وتسلِّطه على هذا وذاك، ثم تتخذ من وجوده ذريعة لتدخل البلدان وتبحث عنه و"تشفطه"، وتنهي مهمتها وقد أُتخِمَت بالدولارات والنفط، وزرعت في نفوس أهل السلطة في هذا البلد أنهم دون أمريكا كالأيتام على موائد اللئام! مَن صَنَع "القاعدة" وابن لادن ليضرب بهم الوجود السوفيتي في أفغانستان ثم حولهم لشياطين ينبغي القضاء عليهم؟ مَن دَعَم حرب صدام حسين ضد إيران، ثُم غزا بلاده واعتقله وأعدمه؟ الأمر لا يختلف كثيرًا عن النصَّاب سالف الذكر مدَّعي القدرة على طرد الأشباح، بينما هو صانعها ومروِّضها.

إن لجوء دولة محترمة لهذه السياسة طوال تلك السنوات في أغلب تدخلاتها في الخارج هو يعني -ببساطة- إدراك إدارة هذه الدولة أنها تعاني خواءً أيديولوجيًّا يجعلها مضطرة لأن تلعب تلك اللعبة، لتجد لنفسها موضع قدم خارج حدودها، فهي لم تكن ذات

فكر قادر على جذب بعض الأنظمة المؤيدة -كالشيوعية بالنسبة للسوفييت وحلفائهم- ولا هي قدَّمت رؤية للعدالة والمساواة والحرية كفرنسا ومن قلدوا نمطها من البلدان، ولا لديها مدرسة في نظام الحكم كبريطانيا التي تعلمت دول كثيرة من مدرستها... إلخ... إذن فالوسيلة الوحيدة أمامها هي أن تصنع المشكلة وتهرع لادّعاء حلها فتزيد الأمر تعقيدًا، مما يتطلب مزيدًا من "تمثيل الحل" وهكذا حتى تنال غرضها من هذا البلد / الضحية فتنتقل لغيره... إلخ.

هامبورجر.. CNN .. بيبسي.. أشياء من هذا القبيل:

"هذه الحضارات الجديرة بالتبجيل وصلت إلى حدودها، و لم تعد تجلب للعالم إلا تشنجاتها المدمِّرة، وأنها أفلست أخلاقيًا، أسوة -على كل حال- بجميع الحضارات الخاصة التي ما برحت تفرِّق الإنسانية، وأن الوقت قد حان للارتقاء إلى ما فوقها".

(أمين معلوف - كتاب: اختلال العالم)

لدي سؤال: ما المظاهر الحضارية للعولمة الأمريكية؟ ببساطة فكِّر معي: عندما تسير في الشارع، ماذا ترى فيه من مظاهر حضارية جاءت بـ"فضل" التجربة الأمريكية للعولمة؟ سترى محلات الوجبات الجاهزة، البيبسي والكولا، الجينز، وموسيقى الميتال، أو الراب المنطلق بسرعة مائة سباب في الدقيقة!

بالتأكيد قدَّمت أمريكا للعالم "بعضًا" من مظاهر الحضارة، فهوليوود قدّمت لنا مخرجين مثل" "سكورسيزي" و"سبيلبيرج" و"ريدلي سكوت"، والأدب الأمريكي أهدانا: "هيمنجواي" و"مايكل كريشتون" و"ستيفن كينج"، ولطالما استمتعنا بأصوات: "سيناترا" و"مايكل جاكسون" و"مادونا"، وتمثيل: "إليزابيث تيلور" و"دنزل واشنطن" و"كلينت إيستوود"... والمنظومة التعليمية والبحثية الأمريكية قدّمت للعالم جامعات: "هارفارد" و"ييل" ووكالة "ناسا".. ولكن ماذا بعد؟

إن كل ما سبق يُعدُّ من "مظاهر" الحضارة وشكلياتها، أما "مضمونها" فهو ما تقدِّمه للعالم من ميراث أخلاقي وإنساني متمثل في أخلاقيات ومبادئ التعامل مع الآخر -أيِّ آخر- فماذا يمكن أن تقول كتب التاريخ بعد مائة عام عما قدَّمته أمريكا بهذا الصدد للعالم؟



إنني لا أنكر إعجابي بالتجربة الأمريكية في الكفاح لأجل قيام أمة متعددة الثقافات، والحس الوطني الواضح في كل علم أمريكي مرفوع بعناية أمام أغلب المنازل مهما كانت فقيرة، وتبنّي المواهب من مختلف أنحاء العالم، ولكن عندما أحوّل نظري عن ذلك الوجه اللامع للعملة، وأنظر للناحية الأخرى أرى وجهًا جرّحته الحروب غير العادلة، والمحاولات المبذول فيها كل رخيص وغالٍ لأجل قهر الشعوب على اعتناق الرؤية الأمريكية للعالم، أو اعتبارها مارقة معادية للحضارة الإنسانية، غير مستحقّة لحريتها في تقرير المصير.

لو أن المحتوى الحضاري للعولمة الأمريكية كان بالعُمق الذي تشير إليه "مظاهر" تلك العولمة، لما كان الأكثر انتشارًا بين المتأثرين بالنمط الأمريكي في الحياة -على مستوى العالم- هو "شكلَ" ذلك النمط فحسب؛ من مأكل ومشرب وتقليد أعمى، بينما قلة هم من يتعاملون مع العمق الإنساني والثقافي للعولمة الأمريكية، وحتى هؤلاء ينتشر بينهم السخط على "عولمة القهر" التي تحاول أمريكا فرضها على العالم.

هل يمكن إذن أن نعتبر أن تجربة العولمة الأمريكية فاشلة؟ الحقيقة أن الأمر رهْن بإجابة سؤال واحد: هل أضافت تجربة العولمة الأمريكية شيئًا يستحق الاحترام للموروث الأخلاقي الإنساني؟

الختام:

أن يكون العالم كله بلدًا واحدًا تقوم فيه حضارة عالمية، هو حُلم جميل، ولكن تطبيق هذا الحُلم بالقهر وسحق ثقافات وحريات الشعوب، يُحوّله لكابوس من الأفضل للعالم ألا يتحقق... فلتبقَ الحدود طالما أن وجودها يسمح لكل شعب بالحد الأدنى من الحرية. إن التضحية بالحرية، وقبول مسخ الهويات والتسليم بالعبودية لقطب واحد مسيطر، هو ثمن للعولمة أكثر مما تستطيع الإنسانية دفعه!

والتجارب الناجحة للعولمة -كتجربة الإسكندر، وتجربة العرب- تقف شاهدة ومُدينة لكل من يدّعي أن العولمة لا تكون إلا بقهر الأقوى لكل من حوله، وتحويل نفسه لصنم معبود لهم... فالعولمة -كأية فكرة راقية- هي ابنة الإنسانية، وتجريدها من أجمل ما في الإنسانية مثل الحق والعدل والخير والمساواة واحترام الآخر، يُجردها من تلك البنوة.. ويجعل منها مسخًا ستكون الحياة أفضل في حالة عدم وجوده...



"بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صدق الله العظيم

"لتعارفوا"..

من هنا تكون البداية الصحيحة...



مصادر المعلومات:

1 – لمصر لا لعبد الناصر: محمد حسنين هيكل.

2 – الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق: محمد حسنين هيكل.

3 – أسامة: جوناثان راندل.

4 – اغتيال الديمقراطية: عبد القادر شهيب.

5 – نظرية الواحد في المائة: رون سسكند.

6 – تاريخ الاستشراق وسياساته: زاكاري لوكمان.

7 – بلاك ووتر: جيرمي سكيل.

8 – الإرهاب.. الظاهرة وأبعادها النفسية: د.ماجد موريس إبراهيم.

9 – الخطر الإسلامي.. خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

10 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

11 – عولمة القهر: د. جلال أمين.

12 – العولمة: د.جلال أمين.

13 – خرافة التقدم والتخلف: د.جلال أمين.

14 – أمريكا والعالم: د. رأفت غنيمي الشيخ.

15 – القاعدة وأخواتها: كميل الطويل.

16 – اختلال العالم: أمين معلوف.



على اسم مصر

(١)

"على اسم مصر، التاريخ يقدر يقول ما شاء...

أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء"

(صلاح جاهين)

في مصر، في زمن قديم، عاش الملوك العظام في المُدُن العملاقة التي أقاموها على ضفتي النيل، وحصَّنوها بالطلاسم المدمِّرة للعدو، وأمَّنوا مداخلها بتماثيل نحاسية تنفث النار التي تحرق جيوش الغزاة، وأطلقوا في سمائها طيورًا عاقلة تصيح حول الغريب إذا دخلها، وامتلكوا في قصورهم مرايا سحرية تريهم ما يجري في أركان الدنيا، من هؤلاء الملوك من حكم مائة عام، ومنهم من بلغ حكمه الخمسمائة، وغيرهم جاوز الألف، وأرسلوا الجيوش الجرَّارة تُخضع الأرض لسطوتهم، وللأجيال التالية كتبوا أسرار الكون ونبوءات المستقبل على جدران المعابد، وبنوا الأهرمات ليحفظوا فيها علومهم من دمار الطوفان، ووضعوا أبا الهول بجوارها ليسحق من يريدها بعدوان.

أعتقد أن القارئ العزيز قد دار رأسه مع هذا الكلام، الذي يشبه قصص أساطير القدماء، وحكايات "تولكين" صاحب سلسلة "سيد الخواتم"...

والحقيقة أن ما سبق كان هو المكتوب بالفعل في كثير من كتب تاريخ ما قبل فكّ رموز حجر رشيد... فعن هذا النوع المثير من التاريخ... عن تاريخ مصر في كتابات القدماء



وأساطير الأسلاف نتحدث... فقط أرجو من القارئ العزيز أن يحرِّرَ عقله من كل ما درس وعرف عن تاريخ مصر، وأحيانًا كذلك من بعض المنطق، حيث سندخل منطقة تاريخية غير مألوفة له، تحتاج إلى كثير من الانطلاق للعقل!

أول أيام المصريين

1 - كتابات العرب

هؤلاء السُمر المبدعون الذين أقاموا أول مدنية عرفها الإنسان، ماذا تقول هذه الكتب عن بداياتهم الأولى؟

أكثر القصص ترددًا في كتابات المؤرخين والرحالة العرب والمسلمين اثنتان؛ الأولى تتحدَّث عن أن نوح عليه السلام –بعد نهاية الطوفان– قام بتقسيم الأرض على ذريته، فكانت مصر من نصيب "بيصر بن حام بن نوح"، فانتقل إليها "بيصر"، ولما وصلها ورآها دعا الله، فقال: "اللهم إن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح، وجعلتها لنا منزلًا فاصرف عنا وباءها، وطيِّب لنا ثراها، واجمع ماءها، وأنبت كلأها، وبارك لنا فيها، وتمِّم لنا وعدك، إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد". وعاش فيها "بيصر" وأبناؤه، ثم ورث ملكها عنه ابنه "مصر بن بيصر"، ومن اسمه اشتُق اسم أهلها "المصريين"، وبعد "مصر بن بيصر" تولى الحكم ابنه الأكبر "قبط بن مصر"، والذي حمل شعب مصر اسمه أيضًا "الأقباط".

أما الثانية فتتحدث عن أن آدم –عليه السلام– لما أراه الله تعالى العالم وأركانه، أراه مصر، فدعا لها بالرحمة والبرِّ والتقوى والبركة في الضرع والنبات وكثرة الرزق، ولملكها بالعز، ولنيلها بالبركة، وبارك نيلها وجبلها (لعله المقطم) سبع مرات، ثم هاجر إليها ابنه "شيث" ومعه أبناء أخيه "قابيل"، فسكن "شيث" جبلها وأبناء أخيه وادي نيلها، وملكها أبناء "شيث"، وتكاثر نسلهم ونسل أبناء "قابيل" حتى عمروا أرضها، ثم جاء من نسل "شيث بن آدم" إدريس عليه السلام، فعلم الناس الزراعة والكتابة ولبس المخيط وعلوم النجوم والري والهندسة (وهو نفس ما يقوله المصريون القدامى عن أوزوريس)، وبنى فيها 140 مدينة عامرة، فازدهرت البلاد، وأصبحت أولى الدول القوية المعروفة تاريخيًّا.



2 - الجبتانا

أما "الجبتانا"، وهي أسفار التكوين الفرعونية التي كتبها المؤرخ مانيتون في العصر البطلمي، فتقص الأمر بشكل أسطوري بحت.

فوفقا لـ"الجبتانا" كانت بداية مصر والمصريين عندما قرر الإله رع/ الشمس أن يجعل الآلهة التي يتسيدها ذكورًا وإناثًا -وكانوا جنسًا واحدًا أول الأمر- فرفضوا؛ خوفًا من أن يصبحوا فانين مثل باقي المخلوقات ثنائية الجنس. فقرر رع إغراءهم بالأنثى، وخلق "قمة الغرب" وهي ربة أنثى فاتنة. فأراد أتوم أن يتزوجها لينجب منها آلهة تنصره على رع في صراعها على السيادة، فأنجب منها على مرات متتالية الآلهة خنم وبتاح وآمون وآتون، ودخلوا جميعًا تحت قيادته صراعًا ضد رع وباقي الآلهة، خلقوا جميعًا خلاله الشياطين والمسوخ وحيوانات أبي الهول والمردة والتنانين؛ ليستعينوا بها على حرب بعضهم بعضًا. وفي آخر ولادة لـ"قمة الغرب" أنجبت توأمًا ملتصقًا من الظهر هما ذكر "جبتو" وأنثى "جبتانا" التي أحبها الإله خنم، وأنجب منها توأمًا ملتصقًا آخر، وبقيت تلك التوائم الملتصقة يتزاوج ذكورها من إناثها، ويتكاثرون -رغم صعوبة ذلك بالنسبة لوضعهم الجسدي- فخشي رع زيادة قوة حزب أتوم و"قمة الغروب" فشقَّ في الأرض نهر "النيلوس/ النيل" وحوَّل ماءه إلى خمر، وشرب منه التوائم الملتصقة وأثناء نومهم قام رع بفصل التصاقهم، فتحولوا من صورتهم الإلهية الخالدة إلى بشر فانين، وعاشوا حول وادي النيل، وأصبحوا شعب "الجبتوس"، وعندئذ توحَّد الجن والشياطين والمسوخ من الجانبين في جبهة واحدة، فاتَّحدت الآلهة بدورها، وأصبح الصراع صراع تحالف البشر والآلهة من جانب، والشياطين والمسوخ من جانب آخر، فتركت الآلهة الأرض -وكانت تعيش فيها سابقًا- للبشر، وصعدت للسماء، وإن بقيت على تحالفها مع "الجبتوس".

عاشت عائلات "الجبتوس" صراعًا داميًا فيما بينها على الثمار والماء، ولكن خطر تهديد المردة والمسوخ وحيوانات أبي الهول لها جعلها تتَّحد في جبهة واحدة، هي قبيلة "جبتو" الكبرى... تحت قيادة أكبرها سنًّا وخبرة "جبتو مصراييم".

ولأن المسوخ كان محكومًا عليها إلهيًّا بأن تكون أحادية الجنس -كلها ذكور- فقد كانت تغير على القبيلة وتخطف بعض نسائها وتغتصبهن؛ ليحملن مسوخًا جددًا، ولذا أمر "جبتو مصرايبم" ببناء سور للقرية لحمايتها، ولكن الحذر لم يمنع القدر، فهاجمت المسوخ القرية في ليلة وقتلت أهلها، ولم يفلت سوى غلام منها اسمه "جبتو" على اسم



سيد القبيلة الذي قُتِلَ في المعركة، وفتاة اسمها "جبتانا"، تزوجا ثم أخذا يجوبان الوادي بحثًا عن "جبتيين" ناجين، وبالفعل كانوا يجدون هنا أو هناك عائلات ناجية هربت من المذبحة، فتجمعوا ثم بعد ذلك بدأوا في التفرق وبناء مدن بطول الوادي تخضع كلها لقيادة "جبتو" الذي صار رجلًا ناضجًا قويًّا... ومن بعد موته انتقلت السيادة لحفيده أوزوريس الذي قاد الرحلات لاستكشاف الوادي، وأقام المدن وعلَّم الناس الزراعة والكتابة (لاحظ التشابه مع إدريس)، ثم دار الصراع المعروف بينه وبين أخيه ست، وخلاله تمزَّقت وحدة مصر، وفي النهاية حكمت الآلهة برفع أوزوريس وحورس لمراتب الآلهة، وخذلان ست وأتباعه، ليتولى "مينا نارمر" -أمير الجنوب وقريب أوزوريس- قيادة المصريين نحو الوحدة.

هكذا تحدثت أسفار التكوين الفرعونية عن بدايات المصريين ومصر..

طبعًا من السهل على القارئ العزيز إدراك أن لفظة "جبتو" تطوَّرت وتحوَّرت إلى "قبط"، وانتقلت للغات الأجنبية فأصبحت "كوبتوس" -والتي ينطقها العامة "كوفتس" للدلالة على الأقباط و Egypt و Egypte و Ägypten و Egitto.. و"مصرايم" - المقطع الثاني من اسم "جبتو مصرايم" تحوَّل إلى "مصر" بالعربية.. بالطبع توجد تفسيرات أخرى للاسم، ولكني أتحدث هنا عن تلك المرتبطة بالأساطير أو كتابات القدامى.

ختام الجزء الأول

هكذا نقلت لنا أقلام أسلافنا -عربًا وفراعنة- البدايات الأولى لمصر.. ولكنهم لم يتوقفوا عند ذلك، ففي الجزء القادم -إن شاء الله- نزور عبر كتاباتهم عالم مصر ما بعد الوحدة، حيث الملوك العظماء الذين استخدموا السحر في حماية مصر، ودوَّنوا النبوءات على جدران المعابد، وسُخِّرَ لهم الجن والطير والرياح ليخوضوا معارك أسطورية مثيرة..



مصادر المعلومات:

1 – الجبتانا.. أسفار التكوين المصرية: مانيتون السمنودي.

2 – الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين: د.عمر عبد العزيز منير.

3 – حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: الإمام جلال الدين السيوطي.

4 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

5 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

6 – شخصية مصر: د.جمال حمدان.

7 – تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: الأب يوحنا النقيوسي.

8 – كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي.

9 – البداية والنهاية: ابن كثير.

10 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

11 – وصف إفريقيا: الحسن بن الوزان المعروف بليون الإفريقي.

12 – أساطير اليهود: لويس جنزبرج.

13 – سياحت نامه: أوليا جَلَبي.

14 – مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.

15 – الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

16 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

17 – تُحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة.

18 – عبر وادي النيل: إدواردو تودا.

19 – ديانة مصر القديمة: أدولف إرمان.

20 – الديانة المصرية القديمة: د.عبد الحليم نور الدين.



(٢)

عندما طال الأمد بالمصريين، وتوالى عليهم الفُرس، واليونان، ثم الرومان، فالعرب..

بدأت المساحة تتسع بين الحقيقة والأسطورة، فيما يخصُّ كيفية حماية الملوك المصريين القدماء بلادهم من المخاطر والعدوان.

وهذه لمحات من تلك الكتابة الأسطورية للتاريخ بهذا الشأن.

الأهرام

"أنا بنيتُ الأهرام في ستة أعوام، فهل يستطيع من يأتي من بَعدي من الملوك أن يهدمها في ستمائة عام؟".

(قول منسوب للملك سوريد)

يختلف القدماء في باني الأهرام، فمنهم من يقول إنه "عاد بن شداد" -وهم من ينسبون بناءها لقوم عاد- ومنهم من ينسبها لملك أسطوري اسمه سوريد، وهو النَسَب الأكثر انتشارًا، لكن الغالبية يتفقون على أنها لم تُبنَ لتكون قبورًا فحسب، بل مخازن للسلاح والكنوز والعلم، بناها المصريون بعد أن تنبأ كهنتهم بالطوفان، فقرروا إيداع علومهم وفنونهم وأسرار سحرهم تلك الأهرام؛ لكي لا تندثر الحضارة. وحصَّنوها بالتعاويذ كي لا يمكن هدمها أو الاعتداء على حرماتها وما بها. حتى إن ثمة قصة شهيرة عن محاولة الخليفة المأمون هدم الهرم الأكبر بحثا عن الكنوز، وفشله في ذلك، ثم هبوب



رياح عاتية عصفت بجنده فور قراءته العبارة المنسوبة لسوريد، وإحجامه عن رغبته في الهدم نتيجة لذلك.

وثمة أقوال أسطورية أخرى عن الأهرام، تقول إن من بناها وكَّل بكل منها روحانيًّا (جنّ أو ملائكة)، فالهرم الأكبر تحميه روحانية في صورة امرأة عارية تغري العابر بالهرم، والأوسط يحميه غلام أمرد عارٍ كذلك يقعد أحيانًا على جانبي الهرم، والأصغر يحميه شيخ عليه زي الرهبان، يحمل مبخرة. وهؤلاء الروحانيون يحمون حرمة الأهرام، فنرى قصة لرجل وامرأة دخلا الهرم الأكبر؛ للخلوة فأصابهما الصَرَع، وأخرى عن رجال دخلوه مع غلام للفسق به، فخرج عليهم روحاني في هيئة غلام أسود ضربهم وطردهم وسلبهم ثيابهم وطعامهم. ويرجِّح الدكتور عمرو عبد العزيز منير في كتابه "الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين" أن هذا النوع من الأساطير -المرتبطة بعقاب الفسق في الأهرام والروحانية الفاتنة والغلام الأمرد- إنما ظهرت في العصور الوسطى في مصر في بعض فترات انتشار الزنا، وعشق الغلمان، واستغلال بعض الناس خلوة الأهرام لذلك، فخرجت تلك الأساطير من الوجدان الشعبي؛ لفرض دفاع معنوي عن ميراث الأجداد.

أبو الهول

أما أبو الهول، فيقال إنه بُنِيَ في عهد قديم؛ لحماية مدخل عاصمة مصر القديمة -منف- من العدوان وعواصف الرمال، وكانت له مقدرة النطق، فكان ينبئ المصريين عن قدوم جيش معادٍ أو عاصفة أو طوفان أو وباء أو قحط، وكان يقول لمن سُرِقَ ماله مَن الذي سرقه، وتقول الأسطورة إن موسى -عليه السلام- قد جاءه، وقال له إنه ما دام ينطق ويعقل فهو مكلَّف، وعليه أن يؤمن بالله وبرسالة موسى، فأبى أبو الهول، فضربه موسى بعصاه على أنفه، فمنه جاء هذا الكسر الشهير (تلك الأسطورة جاءت في كتابات سبقت الحملة الفرنسية، مما ينفي ما نُسِبَ لنابليون من ضرب أبو الهول بالمدافع) وأصابه الخَرَس.

ويتحدث القدماء عن طلسم (أي تعويذة) مرتبط بأبو الهول، كان يحمي مصر من عواصف الرمال العاتية، فجاء رجل صوفي متعصب -فيما بعد الفتح الإسلامي- وحاول هدم التمثال، فبَطل الطلسم، وأغرقت عواصف الرمال مزارع البلاد، فهجم الناس على الصوفي وقتلوه.



زخرت الأساطير المصرية كذلك بالقصص عن الطلاسم الحافظة لمصر من الغزاة، ومقابرها من النبَّاشين، فنرى قصة تقول إنه بعد غرق فرعون ورجاله، فرغت مصر من القادرين على الحكم من الرجال، فتولَّته امرأة عجوز داهية اسمها "دلوكة" -الملقبة بـ"العجوزة"- وأقامت لحماية البلاد "بربا" (بناء حجري يشبه المعبد) عليه صور لمقاتلين على البغال والخيول والمراكب، وجُعِلَ عليه طلسم، فإن جاء العدو تحرَّكت الصور التي تشبهه، فإن كان على الخيول تحركت صور الخيول، وإن جاء من البحر تحرَّكت صور المراكب، فيقوم السحرة بإيذاء الصور، فيجري مثل ذلك للمقاتلين الحقيقيين الذين ترمز لهم تلك الصور، أي أنه شيء أشبه بـ"العروسة" التي تقوم بعض النساء في الأوساط الشعبية بعملها وخرقها، ليجري المثل لمن تمثله.

ويتحدث المؤرخ المسعودي عن الملك نقراوس الذي بنى مدينة عظيمة اسمها أمسوس، وجعل على بابها تمثالين مطلسمين لو مرَّ بينهما سارق أمسكاه، ليحمي المدينة من السرقة، ثم حكم ابنه مصرام الذي روَّض الأسود، وكان يمتطي أسدًا، وتحمل عرشه الشياطين عند خروجه للحروب.

أما المقريزي فيتحدث عن نموذج لحفظ المصريين كنوزهم، فيذكر أن في العصر الأموي حاول الوالي عبد العزيز بن مروان فتح مقبرة بها كنز مزعوم، وعندما تمَّ فتح الباب وحاول أول رجل العبور هوى فوقه سيفان متقاطعان فمزقاه، ثم ظهر تمثال لطائر ذهبي، وصدر عنه صفير حاد أدى لموت نحو ألف رجل ممن يعملون في التنقيب بشكل مفاجئ! كما يتحدث عن الملك نقراوس سالف الذكر، فيقول إنه جعل على مدخل مدينة أمسوس تماثيل نحاسية كبيرة، في جوف كل منها مادة الكبريت، ووكَّل بكل منها روحانيًّا، فإذا حاول جيش العدو العبور بينها أخرجت من أفواهها نحوه نارًا تحرقه تمامًا.

ويذكر المقريزي كذلك ملك اسمه أرياق الأثيم، كان قد صنع دواء يتسلط به على الأسود والحيوانات المفترسة، فإذا غضب على أهل بلدة سلَّطهم عليها، وأنه صنع شجرة بها خطاطيف، إذا مر بها ظالم اقتنصته تلك الخطاطيف و لم تتركه حتى يقرَّ بظلمه. وثمة قصة مثيرة يذكرها السيوطي عن تمثال لرجل عربي يرتدي العمامة ويمتطي الجمل، كان إذا ظُلم رجل جاء بمن ظلمه عنده، وقال له: "أنصفني قبل أن يخرج هذا الرجل وينصفني



منك" فينصفه من ظلمه.. وعندما جاء العرب لفتح مصر قام الروم بإخفاء التمثال كي لا يكون شاهدًا عليهم!

كذلك يتحدث المؤرخون عن تدابير المصريين لرصد الأخطار، ففضلًا عن نبوءات أبو الهول عن الأوبئة والغزاة، يتحدثون عن تمثالين في مدينة أمسوس الأسطورية، لطائرين كانا يصفران كل صباح صفيرًا يستدل منه الناس على ما قد يجري للمدينة، والإمام السيوطي يذكر منارة الإسكندرية فيقول إنه كان فوقها تمثال موجَّه نحو البحر، إذا ما أقبلت سفن الغزاة أحدث صوتًا رهيبًا مفزعًا ينبّه الناس. ويقول كذلك إن ذا القرنين حين جاء مصر وضع فوق الفنار مرآة تعكس أشعة الشمس نحو السفن الغازية فتحرقها... أما الملك سرياق فصنع بطة نحاسية على باب مدينة أمسوس، كان إذا دخل غريب صفقت بجناحيها، فيُقبَض عليه ويتم استجوابه؛ لمعرفة هويته ولماذا جاء، والملك سوريد -الذي يقال إن الطوفان جاء بعد عهده مباشرة- كانت لديه مرايا يرى فيها ما يجري في أرجاء العالم المختلفة.

بين الأسطورة والعلم

كل تلك الإنجازات الأسطورية يذكر كثير من المؤرخين أن الطوفان قد دمَّرها، ولكن فليلاحظ القارئ أن ثمة روايات تذكر أن مصر من الأساس لم توجد إلا بعد الطوفان، مما يعني أمرًا من اثنين: إما أن وجه الخلاف هو وقوع تلك لأحداث الأسطورية قبل الطوفان أو بعده، أو أن ثمة طوفانًا آخر جاء على الأرض، الأمر الذي ورد ذكره في بعض الكتابات.

الله أعلم ماذا تعني تفسيرات تلك الأمور المبهرة للعقل، ولكن لو تأملناها بعقلية العصر الحالي لراودنا تفسير أن الأسلاف عرفوا تطوُّرًا تكنولوجيًّا مبهرًا، انهار لكارثة ما، ثم جاء من بعدهم أبناؤهم و لم يستطيعوا تفسير ذلك علميًّا، فكانت الأسطورة ملجأهم للتفسير.

الله أعلم.. فقد ترك لنا الأجداد ميراثًا يدير الرأس حقًّا!



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – الخطط المقريزية: تقي الدين المقريزي.

3 – حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: الإمام جلال الدين السيوطي.

4 – تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون.

5 – سياحت نامه: أوليا جلبي.

6 – الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين: د. عمرو عبد العزيز منير.

7 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

8 – مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.

9 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

10 – الذين هبطوا من السماء: أنيس منصور.

11 – الذين عادوا إلى السماء: أنيس منصور.

12 – التاريخ والفولكلور: د. قاسم عبده قاسم.

(٣)

كثير من النظريات قد خرجت لتقول إن ديانة الفراعنة كانت في الأصل دينا سماويا سليما، ثم تم تحريفه لديانة متعددة الآلهة.

والمتأمل في كتاب الجبتانا (أسفار التكوين الفرعونية) التي تقصُّ قصة خلق العالم ونشأة مصر، يستفزّ عقله ذلك التشابه الشديد بين نظرة أسلافنا الفراعنة للخلق والتكوين والحياة والموت والثواب والعقاب، ونظرتنا الحالية لنفس الأشياء من منطلق أدياننا السماوية، خاصة مع قراءة بعض كتب التراث الإسلامي التي تناولت نفس الموضوعات، كالبداية والنهاية لابن كثير، ومروج الذهب للمسعودي، وغيرها.

الأمر ليس مدهشًا للحد الذي قد تصوَّره البعض، فمن المنطقي جدًّا أن تحمل الأديان غير السماوية نقاط تشابه عِدة مع تلك السماوية؛ لأن أصل كل هذا هو الدين الحق الذي عَلَّمه الله تعالى آدم عليه السَّلام، فإن حدث بعد ذلك انحراف عن هذا الدين، ونشأت عقائد أخرى فإن تلك العقائد لا تستطيع الانفصال تمامًا عن أصلها الصحيح الأول.

وما يلي ليس محاولة لتأكيد تلك النظريات سالفة الذكر -أو حتى التلميح بصحتها- وإنما هو مجرد عرض لبعض مظاهر التشابه التي جاءت في كتابات الأقدمين والمؤرخين، وأثارت دهشة علماء التاريخ والأديان.

قصة الخَلق

"في البدء لم يكن إلا ماء وضباب... ولم تكن حياة... ولم تكن نباتات ولا دبابات

(أي من يدبُّ على الأرض)... طبقتان متلاصقتان من المياه... بينهما فاصل فضِّي من النور".

(الجبتانا – سِفر انبثاق الآلهة والعالم – الإصحاح الأول)

"كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

(إجابة الرسول –صلى الله عليه وسلم– عن سائل سأله عن أين كان الله تعالى قبل خلق السماوات والأرض – المسند للإمام أحمد – البداية والنهاية لابن كثير).

من ينظر في الاقتباسين السابقين يلاحظ مدى التشابه بين قصتي الخلق –الفرعونية والإسلامية والمسيحية– فكلها تبدأ بالماء الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. وكلها تبدأ بذلك المشهد: فراغ مطلق به ضباب أو دخان وماء، يعقبه بدء خلق الكون.

ثم يأتي التشابه الأعمق بعد ذلك في مسألة الخلق باللفظ؛ فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، والجبتانا كذلك تؤكد أن الآلهة كانت تخلق بـ"الكلمة"، أما الكتاب المقدَّس فيقول إنه "في البدء كان الكلمة". هناك ذلك الاتفاق الكامل أن الكلمة كانت مفتاح الخلق ومحرِّكه.

ولأن للكلمة قدسيتها، فإن المصريين قد اهتمُّوا بها، فلم يقتصر تقرُّبهم للآلهة بالقرابين والهدايا، بل شمل صلوات لفظية تُقرأ عند الشروق وعند الغروب، وعند الأحداث المهمة كالميلاد والموت والزواج، تلك الصلوات كان بعضها في شكل نصوص ثابتة لا تتغير، ورد اسم الواحدة منها في كتاب الجبتانا باسم "سورَتا"، ومن الملاحظ التشابه مع اللفظ العربي "سورة"، بغضِّ النظر عما إذا كانت ثمة علاقة فعلية بين اللفظين، فقد يكون التشابه محض صدفة، ولكن المشكلة أن التشابه هنا ليس في مجرد اسم النصوص، بل كذلك في طبيعتها كنصوص مقدَّسة. واستفزاز الذهن يتضاعف حين نقرأ في الجبتانا سالفة الذكر أن الذين كانوا يُعَرِّفون المصريين بكيفية الصلاة والتعبد، وتعاليم الخير والنواهي عن الشر، كانوا أناسًا يوصفون بأنهم على اتصال مباشر بالآلهة، وأفعالهم ليست بشرية المصدر بل هي وحي سماوي، وهؤلاء الناس كان الواحد منهم يُسمَّى باللغة القديمة "نَبو"، والتي يؤكد بعض علماء اللغة أنها أصل اللفظ العربي "نبي" الذي استخدمه القرآن بعد ذلك؛ للدلالة على من يختارهم الله لتذكير الناس بالدين الحق.



بين إدريس وأوزوريس

التشابه الذي لا يقلُّ إثارة هو ذلك الذي بين قصتي إدريس عليه السلام، وأوزوريس، فبغضِّ النظر عن تشابه الاسم، نرى في كتب التراث الإسلامي لكبار المؤرخين الثقات أن إدريس عليه السلام عاش بأرض مصر، وكان نبيًّا من عند الله تعالى، عَلَّم الناس الزراعة والكتابة وعلوم الفلك والهندسة، وهو أول من لبس المخيط، وبنى بمصر مدنًا كبيرة عظيمة، ثم انتهت حياته بأن رفعه الله تعالى إلي السماء ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 56].

أما "الجبتانا" فنقرأ فيها أن أوزوريس كان أحد أحفاد "جبتو" –مؤسس مصر القديمة وفقًا لهذا الكتاب– وكان أوزوريس قائدًا محبوبًا ومبتكرًا صاحب ذهن خلاق، فعرف قواعد جديدة للزراعة، واستحدث حروفًا جديدة للكتابة المصرية، وعرف بالتجربة قواعد الهندسة والفلك والبناء، وبنى المدن في أنحاء مصر ليعمرها بعد أن كانت موحشة، وهو أول من لبس المخيط، ثم دار الصراع الشهير بينه وبين أخيه غير الشقيق "ست"، والذي انتهى بتدخُّل مجلس الآلهة وحكمهم بإنصاف أوزوريس، ثم رفعه للسماء لَيكون إلها بينهم.

ولا يخفى عنا هنا أن ست لم يكن عند المصريين القدماء مجرد رجل شرير، بل كان إلها للشر ذاته، وارتبط بكل ما هو سيء ومدمِّر كالصحراء والضواري. وجدير بالذكر أن لفظ "ست" انتقل من المصرية القديمة إلى العبرية فتحول إلى "ساتان" –أي "شيطان"– وكلمة "سَاتان/ Satan" بأغلب اللغات تعني الشيطان، بل إن اللفظ "ساتان" هو أصل كلمة "شيطان" العربية، وفي أغلب اللغات ينسب الفعل الشيطان للكلمة فيقال "Satanic/ شيطاني".

ما بعد الموت

كثير من الأديان الشرقية القديمة عرفت صورًا للحياة بعد الموت، ولكن لم يبلغ أحدها ذلك الشبه الذي بلغته الديانة المصرية القديمة مع الأديان السماوية في هذا الموضوع.

فالمصري القديم كان يحرص على أن يضع في قبر الميت كتابًا به ما يشبه التعليمات؛ لكيفية المرور بالطريق بين الحياة الدنيوية المنتهية وتلك الأخروية الأبدية، هذا الكتاب



هو "كتاب الموتى"، والذي يشبه كثيرًا من حيث المضمون والفكرة عملية "التلقين" التي يقوم بها المسلمون مع موتاهم، حين يلقِّنون الميت كيف يلقى الملائكة القائمين بمساءلته في قبره، وكيف يجيبهم.

ويؤمن الفراعنة كذلك بأن الميت يمرُّ خلال تلك الرحلة باختبار صعب هو السير على حبل رفيع بين جبلين، تحت هذا الحبل هاوية بها من الأهوال ما بها، فإن كانت روح الميت طيبة فإنه يمر مرورًا سهلًا، أما إن كانت روحًا خبيثة فإنه يهوي لتتلقفه الأهوال، ويُحرَم نعيم الآخرة. هذا الاختبار والحبل الرفيع يطلقون عليه اسم "الصِراطا"، وهو إضافة لقائمة التشابهات مع الديانات السماوية، حيث يعرف المسلمون نفس المرحلة باسم "الصراط"، ويدعون في فاتحة الكتاب في الصلوات قائلين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: 6].

وبَعد مرحلة الصراط تنتهي رحلة الميت بأن يقف في المحكمة الإلهية، فيتبرأ من الذنوب والخطايا؛ كالظلم والسرقة والعدوان وتلويث مجرى النيل وخيانة الوطن، ويتمّ وزن قلبه في ميزان إلهي دقيق، وفي المقابل توضع ريشة تمثِّل الصدق والعدل، ولهذا فإن من دعاء المصريين القدماء لما بعد الموت: "يا قلبي الخاص بي لا تقف شاهدًا ضدي"، وهو تشابه يضاف لما سبق، فالله تعالى يحدِّثنا في القرآن الكريم قائلًا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65].

عندما يتمُّ وزن قلب الميت مقابل الريشة المذكورة، يتحدد مصيره على أساس رُجحان كفَّته أو كفَّة الريشة، وهذا الذكر للميزان لا نراه في ديانة غير سماوية سوى ديانة المصريين القدماء، وهو تقريبًا نفس ما جاء في الإسلام من وجود الميزان يوم القيامة أداة لوزن أعمال الإنسان، وتحديد مصيره، وفق وضع موازين عمله الخَيِّر وعمله السيئ.

ثم تنتهي المحاكمة بتحديد مصير الميت، إما إلى الحياة الأخروية الناعمة، أو إلى العذاب الأبدي الأليم، وهو وضع يقترب من الديانات السماوية أكثر مما تفعل كثير من الأديان الشرقية القديمة، كتلك القائلة بأن المخطئ يُعاقَب بأن تتناسخ روحه لروح حيوان مهان، أو تلك التي لا تفرِّق بين مصير الصالح والطالح، وتضع كليهما في حياة أبدية شقية.

ختام الجزء الثالث

الأسطورة هي دين القدماء وعلمهم، أما لنا فهي صورة لكيفية تفكيرهم وتفسيرهم



للعالم، وكذلك لكيفية نظرتهم لما وراء هذا العالم، ولكن تفسير الأساطير لا يقف عند هذا فحسب، بل يمتدُّ ليصل لمحاولة ربط الأسطورة بالحقيقة؛ للوقوف على الناتج الفكري لخيال من سبقونا للعالم بآلاف السنين، لنفهم كيف عاشوا وتفاعلوا مع الماديات، وكذلك مع الغيبيات.. لا حرج في ذلك؛ فمحاولة فهم كيف فكر من قبلنا لا تتعارض مع إيماننا بما بين يدينا من الكتاب.



مصادر المعلومات:

1 - القرآن الكريم.

2 - الكتاب المقدس.

3 - البداية والنهاية: ابن كثير.

4 - النهاية في الفتن والملاحم: ابن كثير.

5 - تفسير ابن كثير.

6 - مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.

7 - أساطير اليهود: لويس جنزبرج.

8 - الجبتانا.. أسفار التكوين المصرية: مانيتون السمنودي.

9 - فجر الضمير: جيمس هنري بريستيد.

10 - الديانة المصرية القديمة: د. علي نور الدين.

11 - موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

12 - الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

13 - المدخل في تاريخ الأديان: د. سعيد مراد.



(٤)

"لا خَلَتكِ يا مصر بركة، ولا زال بكِ حفظ، ولا زال منك مُلْك وعزٌّ، يا أرض فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سالَ نَهرك عسلًا، كثَّر الله زَرعكِ، ودَرَّ ضرعك، وزَكَّى نباتك، وعظُمت بركتك وخصُبَتِ، ولا زال فيكِ الخيرُ ما لم تتجبري وتتكبري، أو تخوني وتسخري؛ فإذا فعلتِ ذلك عراكِ شَر، ثم يعود خَيركِ".

(دعاء لمصر، يُنسَب لآدم عليه السلام حين آراه الله عزّ وجل مصر، فيما كان يُريه من خلقه)

خلال قراءتي التاريخ، حاولتُ كثيرًا أن أضع يدي على ذلك الشيء الذي استفزَّ كثيرًا من المؤرخين القدامى، وجعلهم يولون مصر اهتمامًا لم يحظَ به بلد. بحثتُ كثيرًا، وفكرتُ كثيرًا، وفي النهاية سَلَّمتُ بأن هذا الأمر العجيب مما يُضاف لكثير من الأمور المرتبطة بمصر، وليست لها تفسيرات سوى أنها مصر... خذها هكذا كما هي!

تعالوا ننظر بعض ما قيل في كتب التراث عن مصر وبعض ما فيها.. وأُنبِّه القارئ أن بعض ما قد يَرِد من أحاديث منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم، أو للأنبياء عامة عليهم السلام، أو للصحابة رضي الله عنهم، قد يكون متراوحًا بين قوة السند أو ضعفه، أو ربما لا يكون له سند من الأساس؛ لكننا نستعرضها لنتأمل كيف نظر الأسلاف لمصر.

بين المَدح والقَدح

اختلفت الأقوال بين مادح لمصر، يصل لجعل أرضها مقدسة مباركة من عند الله، وذامٍّ



لها، جعلها موطنًا للذلّ والفتَن؛ فنرى حديثًا للصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه يصفها بأنها "بلد معافاة، وأهلها أهل عافية، وهي آمنة ممن يقصدها بسوء، من أرادها بسوء كَبّه الله على وجهه"، أما كعب الأحبار فيضيف: "من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة؛ فلينظر إلى أرض مصر إذا ازدهرت"، وعبد الله بن عمر يُردفهما قائلًا: "البركة عشر بركات؛ ففي مصر تسع، وفي الأرض كلها واحدة، ولا تزال في مصر بركة أضعاف ما في الأرضين".

وفي أهلها يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: "قبط مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يدًا، وأفضلهم عنصرًا، وأقربهم رَحِمًا بالعرب عامة، وبقريش خاصة"، وفي كتاب "فتوح مصر" لابن عبد الحكم، حديث منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "قبط مصر؛ فإنهم أخوال وأصهار، وهم أعوانكم على عدوكم، وأعوانكم على دينكم"، وثمة حديثٌ آخر يؤكد الإمام السيوطي صحته، يقول: "الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله".

أما ما جاء في ذمِّها؛ فمنه تفسير بعض العوام قول الله تعالى ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أنه قيل في مصر. وثمة قول منسوب لأبي هريرة رضي الله عنه، يقال إنه نقله عن الرسول صلى الله عليه وسلم: أن مصر هي "أول الأرضين خرابًا". ومما يُنسَب لعمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال في وصف مصر: "ترابها ذهب، ونيلها عجب، ونساؤها لُعَب، ورجالها عبيد لمن غلب"، ويضيف الرواة لتلك العبارة إردافه: "يجمعهم مزمار وتُفرِّقهم عصا!".. إضافة لذلك، قيل قديمًا عن خَلق مصر، أن الله تعالى حين خلق العالم، ذهبت كل صفة طيِّبة إلى بلد، وفي ذيلها صفة ذميمة؛ فلما جاء دور مصر قال الرخاء: "أنا ذاهب"؛ فانطلق الذُل في إثره قائلًا: "وأنا معك"!

والأرجح أن كثيرًا من تلك الأقاويل به من المبالغات ما به؛ خاصة مع ازدياد جرأة بعض الكُتَّاب والمحَدِّثين على اختلاق الأقوال والأحاديث لأجل خدمة رجال الحُكم؛ تلك السُّنة التي سنَّها بعض السياسيين العباسيين، وبقيت في تصاعُد؛ خاصة في العصرين المملوكي والعثماني؛ الأمر الذي دعا رجلًا ثقة هو الإمام جلال الدين السيوطي رضي الله عنه -خلال توليه مهام القيادة الدينية في مصر- أن يمنع المُحَدِّثين الجوَّالين من رواية الأحاديث على قارعة الطريق، وأن يضع في كتاباته قوائم بأسماء المُحَدِّثين والفقهاء والمؤرخين ممن كانوا في مصر، بترتيب قوة أسانيدهم ومصداقيتهم.



النيل... المقطم... الإسكندرية

أكثر ما ذُكِرَ في كتب القدماء: النيل والمقطم والإسكندرية، وهذا مفهوم لما لهؤلاء الثلاثة من دور كبير في الحياة اليومية المصرية.

أما عن النيل، الذي كان في "الجبتانا/أسفار التكوين المصرية"، مفتاح بدء تجمُّع المصريين الأوائل؛ فقد زخرت الكتابات بالأقوال عنه؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "النيل، وسيحان، وجيحان، والفرات، من أنهار الجنة". وكعب الأحبار يقول رَدًّا على من سأله عن خبر النيل في كتاب الله: "إني لأجد في كتاب الله، يوحَى إليه (أي النيل) في كل عام مرتين"، ويضيف مؤكدًا أن النيل هو نهر العسل في الجنة، والعرب القدماء قالوا في النيل إنه -على حد قول المسعودي- من سادات الأنهار، إذا زاد غاضت (قلَّ ماؤها) له الأنهار والأعين والآبار، وأنه لعَظَمَته هو النهر الوحيد الذي يسميه أهل مصر "البحر"، وتلك تسمية مستمرَّة حتى الآن بالذات في الجنوب.

والمقطم عند المؤرخين جبل مبارك؛ ففي رواية للإمام جلال الدين السيوطي، أن المقوقس -بعد فتح مصر- طلب من عمرو بن العاص شراء المقطم من المسلمين بمبلغ مالي كبير؛ فاستأذن ابن العاص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي نبَّهه لأن الأمر مريب، وطلب منه أن يسأل المقوقس عن سرِّ طلبه؛ فلما سأله، أجابه المقوقس أنه يجد في الكتب الدينية أن سفح المقطم ينبت فيه شجر الجنة، وهذا لأن الله تعالى حين أراد تنزيل الوصايا العشر على موسى عليه الصلاة والسلام سأل الجبال: أيها يحتمل وطأة هبوط الرسالة؛ فكلها رفض؛ عدا طور سيناء؛ فقضى الله عليهم أن كلًا منهم يعطي لطور سيناء من شجره جزءًا؛ فكلهم فعل ذلك إلا المقطم؛ فقد جاد بكل ما عليه من شجر؛ فلهذا هو أجرد؛ فكافأه الله بأن جعل ما ينبت فيه من شجر الجنة؛ فلما علم عمر بن الخطاب بذلك، أَمَر عمرو بن العاص أن يجعل المقطم مقبرة للمسلمين.

وفي أهم الأحداث التاريخية في مصر، كالأوبئة والمجاعات، كثيرًا ما نرى الناس يصعدون للمقطم للصلاة والدعاء، ويسجِّل التاريخ أن في المرض الأخير للحاكم المحبوب أحمد بن طولون، صعد حشد غفير من الناس إلى المقطم: اليهود بالتوراة، والمسيحيون بالإنجيل، والمسلمون بالقرآن، وأخذوا جميعًا يُصلُّون ويدعون الله وهم يبكون بحرارة، أن يشفي ابن طولون، ويُطيل بقاءه بينهم.

أما الإسكندرية فكان لها نصيب كبير من الاهتمام؛ ففضلًا عن دورها كأهم ميناء



تجاري مصري منذ إنشائها وحتى يومنا هذا؛ فإنها حظيت بأقوال وأساطير وأوصاف، منها قولهم إن الرهبان الأقباط ارتدوا السواد لأن الإسكندرية كانت تضيء بشدة ليلًا في ضوء القمر لشدة بياض ونقاء رخامها وكثرته، وأن الإسكندري عندما بناها قال: "هذه مدينة فقيرة إلى الله تعالى، غنية عن الناس، فبارك الله فيها". ويقول بعض المؤرخين إن أهل الإسكندرية عند الله مرابطون في سبيل الله إلى يوم الدين، وهذا لأنهم أول من يلاقي العدو إذا غزاها، وبالغ البعض فقالوا: إن الميت فيها له أجر شهيد؛ لأنها "كنانة الله، فيها خير سهامه". وتتصاعد المبالغة بذكر أنها المقصودة بـ"إرم ذات العماد"، وقيل في أحد الأحاديث الضعيفة إن "أربعة أبواب من الجنة منفتحة في الدنيا: الإسكندرية، وعسقلان، وقزوين، وجدة".

مصر في النبوءة

وثمّة نبوءة في حديث سنده منسوب لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن مما يجري في مصر -قُرب يوم القيامة- أن عدوًّا للمسلمين قادم من بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال حاليًا)، يُغير على شمال إفريقيا فيقتل ويخرّب؛ فيفرُّ المسلمون وهو خلفهم؛ حتى يصل مصر؛ فيخرج له منها جيش يردعه ويطرده، ثم يطلب ذلك الرجل الأمان ويُسلِم طوعًا، وبعدها يخرج آخر من الحبشة ويغزو جنوب مصر؛ فيفرُّ الناس منه إلى الفسطاط والجيزة، ثم يخرجون في جيش كبير ويهزمون الجيش الحبشي، ويأسرون منه عددًا كبيرًا؛ حتى يُباع الواحد من الأحباش بعباءة.

وهذا الحديث يُقال إنه "صحيح موقوف".

الختام

العبقري صلاح جاهين لخّص الأمر في قوله: "على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء"؛ فبالفعل لم يعرف التاريخ بقعة من الأرض جَرَت في ذكرها الأقلام مثل مصر، ولا قوم أثاروا -بجميلهم وقبيحهم- الأذهان والأقوالِ أكثر مما فعل المصريون؛ فمنذ فتحها على يد العرب منذ نحو 1400 سنة، وهي مُلهِمة الكُتّاب بين مؤرخ أمين ومؤرخ مأجورٍ، ومُحَدِّث ثقة، وآخر نَصّاب، وشاعر عاشق، ومستشرق مجذوب إليها... وهي من قَبْلُ،



حتى امتزاج طميها بالدم العربي، قِبْلة المؤرخين الأوائل أمثال: مانيتون، وهيرودوت، وهي الأوفر ذكرًا في القرآن؛ فهي -بكل ذلك- مبتدأ التاريخ، وما سواها خبره.

مصر أطول قصة في التاريخ، من قَبلنا كتبوا فصولها، وما سيكتبه القادمون بأقلامهم، يقف منتظرًا ما نكتبه نحن بأفعالنا.



مصادر المعلومات:

1 – البداية والنهاية: ابن كثير.

2 – حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: الإمام جلال الدين السيوطي.

3 – مُرُوج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي.

4 – وصف أفريقيا: الحسن بن الوزّان الفاسي الشهير بـ"ليون الأفريقي".

5 – تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ابن بطوطة.

6 – الخطط المقريزية: تقي الدين المقريزي.

7 – سياحت نامه: أوليا جلبي.

8 – عبر وادي النيل: إدواردو تودا.

9 – القاهرة مدينة الفن والتجارة: جاستون فييت.

10 – الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين: د.عمرو عبد العزيز منير.

11 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

12 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

13 – الجبتانا: مانيتون السمنودي.



نحن العنف!

(أ)

المصري لم يعد مسالمًا أو حالمًا

"الشعب المصري شعب طيب ومسالم، وهو ينفر من العنف، ويميل إلى حلّ مشكلاته بالتفاهم والتراضي"..

هل ما زالت تلك المقولة محلًّا للإيمان والاقتناع؟

ربما، لو أضفنا لها الفعل "كان"؛ فالمصري اليوم أصبح خلال معظم نشاطه اليومي مُمارِسًا للعنف أو موضعًا لممارسة العُنف عليه!

تأمَّل اليوم الطبيعي لمواطن عادي التعليم والثقافة من الطبقة المتوسطة، منذ استيقاظه وحتى دخوله للنوم، مرورا بذهابه للعمل وإيابه منه، ويوم عمله، ومشاويره الجانبية من تسوُّق وزيارات محتملة وربما عمل إضافي. تخيَّل معي الضغوط النفسية والعصبية والاستفزازات التي يتعرَّض لها خلال يومه، وحاول أن تحسب كم مرة يُمارس العنف اللفظي -وأحيانًا المادي- أو يُمارَس أي من هذين النوعين من العنف ضدَّه؟

ولكي أسهِّل لك العملية الحسابية فهذه قائمة بـ"بعض" العوامل المساعدة للضغط على هذا المواطن، ولاحظ أننا ما زلنا نتحدَّث عن الفرد "المتوسِّط" أو من اصطلحنا على تسميته "المواطن المصري الغلبان":

ارتفاع الأسعار - محدودية الدخل - الاختناقات المرورية - الزحام - التلوث - الضوضاء - الإهمال في المصالح الحكومية - القهر البوليسي - الالتزامات الأسرية - الروتين اليومي.

مع كل تلك العوامل لم يعد المجال بنفس الاتِّساع للحديث عن الطبيعة المسالمة الهادئة الوادعة للإنسان المصري!



هذا إن تغاضينا عن أي عوامل/ ضغوط خاصة أخرى ترتبط بالحياة الشخصية أو العملية لكل فرد على حدة، أو ترتبط باهتماماته الثقافية والسياسية بل والرياضية أيضًا، وإن تغاضينا أيضًا عن أية استفزازات طارئة قد يتعرَّض لها؛ بسبب سوء تفاعل أحد أو بعض من يحتك بهم يوميًّا معه.

ولاحظ كذلك -عزيزي القارئ- أنني أتحدَّث عن المواطن البسيط الذي يمارس عملًا تقليديًّا روتينيًّا، ذلك المواطن متوسِّط التعليم والثقافة، لم أتحدَّث عمن يرتبط عمله بالمسئوليات الإدارية أو القيادية الثقيلة، ولا من لديه نشاط سياسي معارض مثلًا، وأيضا لم أتعرَّض لمن ينتمون لطبقات تعليمية وثقافية ومادية متدنية، أو من يمارسون أعمالًا يأنف منها البعض، كجمع القمامة، وتنظيف المجاري، والخدمة في المنازل! ومن يعيشون في بيئات غير آدمية من النواحي الصحية والاجتماعية والأمنية، فكل هذه تمثِّل مضاعفات لنتيجة تلك "المسألة الحسابية".. أي أنها ببساطة عوامل تشبه بارودا بجوار مرجل يغلي يرفع حرارة الجو ويمهِّد للانفجار.

والانفجار ليس أمرًا نتحدَّث عن أنه "خطر يقترب"... بل إني أتحدَّث عن خطر واقع بالفعل!

ومجالات تعرُّض الفرد للاستفزازات المستفزَّة بدورها للغريزة الحيوانية العنيفة تتزايد، من استفزازات مهنية (تسلُّط رئيس على المرؤوس)، وبوليسية (تسلط رجل الشرطة على المواطن)، ودينية (تعصُّب ديني)، وسياسية (قمع النظام للمعارضة)، واجتماعية (حقد طبقي من المطحونين على المقتدرين)، وأسرية (تسلط الأب/ الأخ الأكبر على الابن/ الأخ الأصغر)، وجنسية (صعوبة الزواج مع انتشار عوامل الاستثارة الجنسية) وغيرها... من الاستفزازات التي يصل بعضها لإخراج المرء عن تحكمه بأعصابه لو كان سهل الاستفزاز، ولو تكررت بشكل يستنفد الصبر البشري الطبيعي.

فهل ما زلت ترى حديثي عن انفجار العنف مبالغة مني؟

الموجة الأولى للانفجار

وما دمنا قد بدأنا الأمر بعملية حساب للضغوط على أعصاب ونفسية المصري، فلنستمرّ في النظر للأمر بطريقة حسابية، ولتقُم معي بعملية حساب لعدد الأخبار



التي نتلقّاها بمختلف الوسائل، أو نحضرها بأنفسنا كل أسبوع لحوادث العنف -البدني واللفظي- من أبسط المشاجرات الكلامية لأعتى جرائم القتل، وصدقني ستجد عددًا مخيفًا منها. وليتسع صدرك يا عزيزي وتستمرّ في مسايرتي في لعبة الحسابات، وتقول لي كم مرةٍ هذا الأسبوع مارست العنف أيًا كانت درجاته؟ أو حتى فكرت في ممارسته لسبب متعلّق بضغوط الحياة؟ ولتدعني أثقل عليك أكثر وأطلب منك أن تطلق العنان لخيالك، وتتخيّل معي كم عدد من تعرَّضوا للشيء نفسه على مستوى المجتمع كله خلال نفس الأسبوع؟!

حسنا، اضرب هذا الرقم -لو أمكنك إيجاده- في محصلة..

النتيجة لهذه العملية الحسابية مخيفة.. أليس كذلك؟

أعتقد أن كل تلك المعطيات تتعارض -بشدة- مع فكرة أننا مجتمع يتّصف أفراده بالمسالمة والوداعة! فالظواهر المحيطة تقول إن سلوكنا قد اتّسم بالعنف والحدّة، وأن هامش قابليتنا لممارسة الإيذاء المادي والمعنوي قد ازدادت، وهذا يعني -بشكل مباشر- أننا قد تغيَّرنا للأسوأ!

وبذرة العنف التي نمت فينا لم تقف عند حدٍّ معين، بل إنها تزايدت وتتزايد يوميًا، والنتيجة الطبيعية هي الانفجار سالف الذكر.. فالعنف يحتاج إلى "ممارس للعنف" و"متلقٍّ للعنف"، والمتلقي يتحوَّل بدوره لممارس، وهكذا، بشكل أشبه بالانفجارات المتسلسلة متضاعفة القوة، هل تتذكَّر محصلة عملياتنا الحسابية التخيلية عن عدد من يمارسون العنف، وعدد مرات ممارسته، وكمّ الضغوط على الفرد العادي، فضلًا عن أصحاب الضغوط الخاصة سالفة الذكر؟ إن المحصلة الضخمة لكل تلك العمليات هي مجرد الموجة الأولى فحسب للانفجار الذي أتحدَّث عنه! فثمة مراحل تالية أكثر عنفًا ومباشَرة! وعلى من يعتبر أن تلك مبالغة أن يفكر معي: ألم نكن يومًا شعبًا طبيعته المسالمة والتفاهم، ثم عرف العنف طريقه لما بيننا؟ فما الذي يمنع انتقالنا لمستوى أسوأ إذن؟ بصراحة في ظلّ كل العوامل المساعدة المتصاعدة يمكنني أن أردِّدَ مقولة اعتاد صديق لي تكرارها هي "الأسوأ لم يأتِ بعد!".

عندما أصبح الغضب جزءًا من ثقافة المصريين

هل معنى كلامي هذا أن المصري لم يمارس العنف و لم يعرفه إلا هذه الأيام؟ لا أقول هذا، ولكني أقول إن المصري كان يعرف ضدَّ من يوجّه قوته وبأسه، ضدَّ عدو يهدِّد



أمنه، أو حاكم يظلمه، أو محتلٍّ يسلبه حريته، وحتى عندما كان المصريون القدماء يمارسون الغزو ويبدأون غيرهم بالهجوم، كان ذلك بغرض الدفاع، في زمن كان قانون العالم فيه هو أن تغزو غيرك أو أن يغزوك هو، بلا جدال! وحتى وقت قريب جدا -بعمر الأمم- لم يكن المصري يوجِّه أذاه المادي أو المعنوي لابن بلده، والآن أصبح مستوى الأذى يصل لحد توجيهه من الأخ لأخيه! وغالبًا بشكل منهجي معتاد، بل ومقبول من بعض طبقات وثقافات المجتمع.. أي أن بأسنا الذي كان على عدونا قد أصبح بيننا شديدًا!

عن هذا الأمر أتحدَّث... عن إجابة ذلك السؤال: متى وكيف تحوَّل العنف إلى جزء من ثقافة حياة المصريين؟

الغضب بين التفسير والتبرير

هل تشعر في كلامي هذا أنه دعوة لممارسة العنف أو حتى تبرير لذلك؟ إذن فقد أخطأتَ فهمي يا عزيزي؛ فالعوامل التي تضفي الشرعية على ممارسة العنف محدودة جدًّا، وكلها تدور في إطار الدفاع الشرعي عن النفس بالشكل والحدود التي يقرُّها المجتمع. أما فيما سبق، فأنا أتحدَّث عن غريزة العنف المجرَّدة من أية اعتبارات مجتمعية -دينية وأخلاقية وقانونية وعرفية- ولكن مع وضع هذه الاعتبارات سالفة الذكر في الحسبان، فالأمر بالتأكيد يختلف.. ثمة ضوابط حضارية لكل شيء، وما قمتُ به فيما سبق من حديث لم يكن سوى محاولة لقراءة ما يدور داخل النفس الغاضبة، قبل أن يمر على "مصفاة" الضوابط التي تجب مراعاتها.. بمعنى أوضح أنا أحاول "التفسير" لا "التبرير"، وبينهما فارق شاسع.



مصادر المعلومات:

1 – علم الإجرام والعقاب: د. رمسيس بهنام.

2 – وجع المصريين: د. خليل فاضل.

3 – ماذا حدث للمصريين: د. جلال أمين.

4 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د. جلال أمين.

5 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

6 – عصر الجماهير الغفيرة: د. جلال أمين.

7 – تشريح الشخصية المصرية: د. أحمد عكاشة.

8 – ثقوب في الضمير: د. أحمد عكاشة.

9 – النفس والجنس والجريمة: د. خليل فاضل.



(٢)

كلمة الحق والسلطان الجائر

إن عبقرية القول النبوي الشريف عن خير الجهاد أنه "كلمة حق عند سلطان جائر" تكمن في أن "كلمة الحق" أي التعبير الصادق عن الرأي والشعور، تُفرغ شحنة كبيرة من الطاقة السلبية التي يُكوّنها الغضب في نفس ذلك الذي تعرّض للجور تجاه من جار عليه. أما لو لم يُتح له أن يقول كلمة الحق تلك بحرية، فإنه لن يجد سوى العنف وسيلة للتعبير.

لو تأمّلنا التاريخ لوجدنا هذا؛ فخلال العصر الأموي مثلًا كان الصدام شبه مستمر بين السلطة الأموية وكل من الخوارج والشيعة، كلٌّ على حِدة، وكان العنف يتصاعد بالذات في عهود الطغاة من الخلفاء، بينما بلغ أقلَّ درجاته خلال عصر أول خليفة أموي -معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما- لأنه كان معروفًا بالحِلم وإتاحة المساحة الواسعة للمعارضين للتعبير، بينما انعدم العنف تمامًا في عصر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ لأنه خطا خطوة واسعة نحو حرية التعبير، بلغت حدَّ فتح حوار سلمي مع الخوارج!

ومن العصر الحديث لدينا تجربة مصرية؛ فقبيل ثورة 1919 سعي المصريون لإقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر، عن طريق توكيل سعد زغلول ورفاقه للتحدُّث باسم المصريين أمام الأمم الأوروبية الكبرى، ولما لجأت سلطة الاحتلال للقهر بنفي سعد زغلول ومن معه اندلعت الثورة، وهذا منطقي ما دام باب الحوار السلمي قد أُغلِق.

وخلال العقود التالية ارتبط العنف دائما بتصاعُد الكبت، حتى وإن مرٍ بمراحل كُمون نسبية لقوة قبضة النظام -خلال العهد الناصري مثلًا- فإنه كان يستغلُ الفرصة

المواتية لينفجر، كما حدث في تفجُّر حرب الإرهاب ضد الدولة منذ اغتيال السادات -رحمه الله- وحتى أواخر التسعينيات. والمثير للتأمل أن دوامة العنف تلك لم تتوقَّف إلا بالتحاور مع العناصر المتطرِّفة واستتابتها بالحوار. صحيح أن ذلك تمَّ بعد أن أثبتت الدولة قوّتها، ولكن دعونا لا ننكر أهمية التعبير المتبادل عن وجهات النظر في انتزاع مبرر الجانب المتطرِّف، في أنه لا يجد قناة للتعبير عن موقفه إلا بالسلاح، فبطلت حجته، واضطر للتوقّف عن العنف.

الحَطّ المتبادَل

عندما كان مؤرخو العصر المملوكي يصفون قيام السلطان بإهانة وإيذاء شخص بشدَّة كانوا يصفون ذلك بأنه "حَطَّ عليه" فيقولون: "أخذ في الحَطِّ عليه"، والغريب أن هذا التعبير قد عرف طريقه -يعلم الله وحده كيف- للعامية، فهو يستَخدَم لنفس الغرض!

والحقيقة أن هذا اللفظ يعبِّر بشدَّة عن حال المصريين فيما بينهم؛ فالمصري -غالبًا- إما حاطٌ أو محطوط عليه! أغلب المصريين ممارسون للقهر أو خاضعون له. في البيت، العمل، لجان المرور في الشارع، المصالح الحكومية، المدارس، الجامعات... إلخ. هناك عنف -مادي أو معنوي- متبادل، فلماذا؟

الإجابة هي أن المصري محروم من "التعبير" عن الشعور والرأي! مستوى المساحة المتاحة له للتعبير لا تتوافق مع كمِّ مثيرات الغضب التي يتعرَّض لها لا كل يوم بل كل لحظة.

نحن نتحدَّث عن بلد يعاني عددًا من المشكلات مجرد محاولة حصرها مشكلة في حد ذاته! بين بطالة وفقر ومرض وفساد إداري وإهمال وتلوث وزحام وغلاء، ورغم ذلك مطلوب من الفرد منا ألا يعترض؛ في البيت لا يعترض على تجبر الأب أو الأخ الأكبر؛ لأنه "الكبير" و"عيب" معارضته، والزوجة عليها عدم الردِّ على زوجها؛ لأنه "رجل البيت"، والطالب عليه تحمّل ظلم المدرسين وعنفهم؛ لأنه "كاد المعلم أن يكون رسولا"، في الجامعة أنت مهدَّد بـ"سحب الكارنيه" أو "شيل المادة" لو اختلفت مع "دكتور المادة"، وفي الشارع قد يقوم الضابط بـ"بهدلتك" لو بدا على وجهك أنك "مش عاجبك" افتراؤه عليك أو على غيرك، وفي العمل قد تُبتَلَى بالمدير المفتري الذي يستطيع أن يقطع عيشك، فتصمت؛ لأنك تريد أن تعيش و"تاكل عيش"!

وكل واحد في هؤلاء غالبًا يقوم بـ"الحَط"عليك؛ لأن هناك من يقوم بـ"الحط" عليه،

وهو يريد أن يقوم بتفريغ غضبه، لا حلّ إذن لديك سوى البحث عمن تمارس قهره؛ لتتخلص من الشعور بالقهر! توجد سلسلة طويلة من القهر والتكميم، لو تتبعتها من فرد لآخر؛ فستجد نفسك قد وصلت في آخرها للمصدر الرئيسي الذي لا أرانا نجهله!

المعادلة الواضحة

المعادلة واضحة إذن؛ القهر العام يتدرَّج نزولًا من قمة هرم المجتمع، وينتقل من شخص لآخر عبر المراكز والمناصب حتى يهبط لقاعدته، خلال تلك الرحلة ووصولا لقاع قاعدة الهرم تكون مساحة القهر وتكميم التعبير قد اتسعت، وأصبحت عملية متبادلة من شخص لآخر، أضف إلى ذلك التدهور المستمر للأحوال الاجتماعية والمادية والصحية للمواطن البسيط، وتزامن ذلك مع التناقض بين تراجع الوازع الديني عند البعض والتعصُّب والتشدُّد عند البعض الآخر، وكذلك مع تراجع مستويات الثقافة والتعليم وانتشار الجهل...

لا يحتاج الأمر لخبير ليقول إننا نتحوّل لشعب يأكل بعضه! مساحة المشاعر الإيجابية من التسامح وحُسن الظن وسعة الصدر تتراجع لتفسح مساحتها لمشاعر سلبية من نوعية التربُّص وافتراض سوء النوايا والعدوانية، لدينا شحنة "تلوث نفسي" لا نستطيع تفريغها حيث يجب وكيفما يجب، فلا نجد سوى تفريغها في بعضنا بعضًا ماديًّا ومعنويًّا.. لماذا أشعر أن هذا مقصود بشكل أو بآخر لشغلنا عما هو أجدر بتوجيهها نحوه؟ حاول أن تتخيَّلَ أنك مواطن حرٌّ في التعبير عن رأيه، وأنك تعيش في بلد يكفل لك حماية قانونية لكي لا تضار على أي مستوى -العمل أو المنزل أو الطريق العام- لو عبَّرت عن شعورك براحتك.. من المؤكَّد أن هذا سيجعل لديك -وللجميع- الطاقة النفسية والذهنية الكافية للتفكير في هموم مجتمعك، ولعب دور إيجابي لخدمته ولمحاسبة القائمين بإدارته... هذا حقك، وكما أن للحق مؤيدين فله خصوم.

متى بدأ ذلك التحوُّل في طباعنا؟ هل في عصر كانت معارضة الرئيس فيه "خيانة للثورة وجريمة ضد الشعب"؟ أم في عهد يُصَنَّف فيه الاعتراض أنه "عيب" في حق "كبير العائلة المصرية؟ أم في زمن أصبح مجرد الاستفسار فيه عن صحة الرئيس "جريمة قذف" لا منجى من عقابها سوى عفو رئاسي؟

السؤال الأهم: نحن لا تنقصنا الكفاءات العلمية القادرة على رصد وفهم نبض الشارع واتجاهاته، وقراءة معطيات المجتمع ومتغيّراته، فكيف يُعقَل أن يكون أصحاب



القرار بغفلة عن قراءة المعطيات الخطيرة التي تقول إن مستوى العنف المتصاعد حاليًا يهدِّد بدخول المجتمع في موجة عنف عاتية يعلم الله مداها؟

أعتقد أنه على المؤسسة الحاكمة والمؤسسات التابعة لها التنبّه لمستوى الخطر الذي بدأت بوادره تظهر بقوة، وأن تستغلَّ بشكلٍ جدِّي الكفاءات سالفة الذكر، وتيسير السبل لها بإخلاص؛ لإغلاق صمام "تسرُّب العنف" الذي يمكن أن يطول كل قطاعات المجتمع بلا استثناء!



مصادر المعلومات:

1 – وجع المصريين: د. خليل فاضل.

2 – النفس والجنس والجريمة: د. خليل فاضل.

3 – مصر والمصريون في عهد مبارك: د. جلال أمين.

4 – الإرهاب.. الظاهرة وأبعادها النفسية: د. ماجد موريس إبراهيم.

5 – ثقوب في الضمير: د. أحمد عكاشة.

6 – تشريح الشخصية المصرية: د. أحمد عكاشة.

7 – علم الإجرام والعقاب: د. رمسيس بهنام.

8 – لماذا لا يثور المصريون: د. علاء الأسواني.

9 – هل نستحق الديمقراطية: د. علاء الأسواني.

10 – مصر تريد حلا: فهمي هويدي.

11 – ماذا حدث للمصريين: د. جلال أمين.

12 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

13 – الرئيس البديل: د. عبد الحليم قنديل.

14 – خريف الغضب: محمد حسنين هيكل.



(٣)

"إنما أهلَك الذين من قَبلكُم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحَدّ".

(حديث شريف)

قانون العنف

تعالـوا نتأمَّـل معنـى الحديـث الشريف، أن هـلاك القـوم كان بمحاباتهـم للشريف والسكـوت على تجاوزه للقانـون، وقَصْر تطبيق القانون على الضعـاف الذين بلا عصبة أو "ظهـر" يناصرهـم، بالتالي فإن تكاثـر غبن الضعفاء سيؤدي لتكويـن عقيدة لديهم في عدم جدوى القانون الذي يحكمهم، وأن عليهم التقارب فيما بينهم، وتكوين عصابات تنتـزع ما يعتبرونه حقوقهم بالقـوة. ولأن طعم القوة مُسكِر، فـإن الأمر لن يقتصر على انتـزاع الحقـوق فحسب، بـل سيتطوَّر لمـا يُسمَّى "تجـاوزَ حدود الدفـاع الشرعي" إلى الاعتداء على حقوق الآخرين، وهكذا تظهر فئة أخرى من المظلومين، وتدور الدائرة... وهكـذا في حلقة مفرغة تُفرز مزيدًا مـن "العُنف المكتسب صفة قانون المجتمع"، وبهذا يأكل المجتمع نفسه، ويستغرق في صراعاته الداخلية، وسباقات السيطرة والقوة، ويُلهَى عـن تحقيق طموحاتـه وتطوُّره، وصدِّ أعدائه عن تدميره، فسيقـط في النهاية محققًا معنى "الهلاك" في الحديث الشريف سالف الذكر.

إذن فببساطة ظلم الضعيف ومحاباة القوي يؤديان للكفر بفاعلية القانون كوسيلة



للتفاهم بين الناس، و"التناصف" (أي تبادل الإنصاف) بينهم، مما يشجِّع على انتهاج وسيلة أخرى هي استخدام العنف لدفع الضرر، ثم الانتقال لمستوى أعلى من "الايمان بالعنف" كوسيلة لـ"جلب المنفعة المشروعة التي لا تتحقَّق إلا للقوي"؛ باعتبار أن ذلك أسرع وأجدى من جلبها بالطرق العادلة المشروعة. وبتحقق هذين الايمانين بالعنف كوسيلة حصرية لمنع الضرر وجلب المصلحة، أو كما يعبِّر عنه المطربون الشعبيون بعبارة "الطيب في الزمن ده بيقولوا عليه ضعيف"، يصبح العنف هو القانون الوحيد، ولغة التفاهم الأكثر انتشارًا.

وبالتأكيد فإن انعدام المساواة أمام القانون ليس الدافع الوحيد للجوء البعض للعنف لتحقيق المصالح ودفع المضارّ، فتبقى نسبة تمارس العنف "استسهالا" له، ولكن انعدام المساواة يبقى الطريق السريع لـ"شرعنة" العنف وتبريره!

والمقصود بالعنف هنا ليس حصره في العنف البدني المباشر، وإنما في مجرد التلويح باستخدامه؛ فلجوء شخص للتوسُّط برجل صاحب سطوة لقضاء مصلحة هو تلويح ضمني بإيذاء من يقف في طريق ذلك، سواء كان الإيذاء رسميًا –كالعقاب التعسُّفي وتلفيق المخالفات– أو غير رسمي؛ كالتوسط ببلطجي مشهور أو الانتماء لعصابة ما أو رجل شرطة فاسد يستخدم العنف.

كل تلك الصور من العنف تفرز الايمان به، وتؤدِّي في حالات تدهور سلطة القانون والدولة إلى حالات انفجار أمني عنيف!

بذرة العنف فينا

يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8-7] تلك الآية كانت استهلالية كُتاب مادة "علم الإجرام" التي درستها بالكلية.. وبعد دراسة هذا العلم العميق فهمت معناها.

فهي تعني أن كلًّا منا فيه بذرة للصلاح وللفساد، وتجتمع العوامل الداخلية والخارجية لتحدِّد ما إذا كان سيكون صالحًا أم طالحًا؛ النتيجة إذن أن كل إنسان قابل لهذا وذاك، لا يوجد ذلك الإنسان الخالي بنسبة 100 % من الاستعداد للأفعال الشريرة أو العدوانية، والعنف منها بالتأكيد، إلا ذلك العنف المشروع للدفاع عن النفس دون تجاوز.

والتاريخ يُثبت صحة ذلك؛ فالتاريخ المصري لم يخلُ من حالات "تفجُّر" للعنف

الشعبي العشوائي، وهو يختلف عن ذلك الموجَّه ضد عدو غازٍ أو محتلٍّ أو نظام فاسد.

ولأن العصر المملوكي هو الأكثر شبهًا بعصرنا الحالي في انتشار الفساد الإداري والمحسوبية وانعدام المساواة؛ فإني أراه الأكثر ملائمة للمقارنة والربط، فكُتُب مؤرِّخي هذا العصر -بالذات في نصف الثاني- تزدحم بعبارات تصف العنف المتبادل بين العامة؛ فتجد أوصافًا لأن "الزعار" (العاطلين) و"العيارين" (البلطجية) و"الشطار" (محترفي قطع الطريق) استغلوا ارتخاء قبضة القانون عليهم فـ"عاثوا فسادًا"، و"نهبوا بيوت الأعيان"، و"هتكوا النسوان في الطرقات، وأحدثوا بأهل الحشمة بهدلة عظيمة"، و"كبسوا المحال والأسواق"... إلى آخر تلك الأوصاف لأعمال العنف، والمُلاحَظ أن بعض هؤلاء الخارجين على القانون يلقون التمجيد الشعبي، بدلًا من استنكار الخروج على القانون؛ لأن هذا الأخير قد صار أشبه بـ"خيال المآتة" الذي لا يُظهِر قوة إلا على الضعفاء، بينما أصبح العنف هو القانون!

لماذا لا تحدث أفعال كهذه عندما تكون للقانون سطوة وقوة على الجميع بالتساوي، كما في أيام الفراعنة أو الخلفاء الراشدين أو كثير من فترات العصور الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية، بل وبدايات العصر المملوكي؟

هؤلاء الخارجون على القانون الذين عاثوا فسادًا لم يخرج تصرُّفهم عفويًّا كما قد يحسب البعض، بل إن كلًّا منهم يتبع عصابة ما لها مناطق نفوذها ورجالها والمنتفعون من حمايتها -بالرضا أو الإجبار- بل وأحيانًا تتبع كل منها أحد الأمراء المماليك! ألا تجد -عزيزي القارئ- تشابهًا ما ها هنا؟

ألا نرى في عصرنا الحالي مناطق معينة -بطول مصر وعرضها- لا تخضع للقانون، وإنما تخضع لمجرم ما -تاجر مخدرات أو بلطجي غالبًا- يفرض حمايته وحكمه عليها، ويتَّبع بدوره أوامر ضابط ما في القسم التابع له، أو على الأقل يُقيم مع هذا الضابط علاقة منفعة متبادلة غرضها كفُّ أذى كل منهما عن الآخر؟ ألا يعتبر هذا إهدارًا لمساواة الجميع أمام القانون، وتشجيعًا لـ"تقنين العنف"؟ ماذا عن تمييز بعض "ذوي الحيثية" و"العلاقات العليا"؟ ألا يُشعر المواطن البسيط بانهيار قيمة "الشرف"، ويخلق لديه حقدًا طبقيًّا يمكن أن يولِّد بعض مَظاهر العنف ضدَّ من يرى أنهم يملكون ما لا يملك، عن طريق التحرُّش بهم أو سرقتهم بالإكراه مثلًا (عَنف مادي)؟ وكذلك يجعله يحكم مسبقًا على كل صاحب ثروة أو نفوذ أنه "حرامي" أو "فاسد" أو "نصاب" يستحق أية مصيبة تصيبه



(عنف معنوي)؟ إن هذا يبرر ملاحظة أن كثيرًا من حوادث السرقة بالإكراه قد تقترن بالقتل أو الإصابات غير الضرورية لتحقّق الغرض الإجرامي، السرقة.

الدولة الرخوة

عندما يختلُّ ميزان العدل والمساواة ويصبح تطبيق القانون أمرًا متوقفًا على مكانة الفرد، ويصبح العمل غير القانوني مستساغًا عاديًا يقبله العنف، يصبح الوصف الأكاديمي للدولة هو أنها "دولة رخوة"، أي دولة -عمليًا- بلا قانون.. "بلد سايبة" كما يقول التعبير العامي. تتعرّض للسرقة فتلجأ لصديق متصل بالوسط الإجرامي، تختلف مع شخص فتسعى لتسليط بلطجي عليه، أو إذا كنت أكثر رقيًا تؤذيه من خلال "فلان باشا" قريبك. ولو كنت من "أهل ذلك" فإن نزولك بنفسك لممارسة العمل الإجرامي العنيف ليس أمرًا مستبعدًا.

ومفتاح باب الشر هذا هو "انعدام المساواة أمام القانون"، والمسئول عن ذلك ليس من الصعب استنتاجه، إنه القائم على تطبيق هذا القانون..

لا أجد تعليقًا أفضل من الآيتين 9 و10 من سورة الشمس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ صدق الله العظيم.

فبالله، ألم يحن الوقت لأن "يزكوها" (أي يطهّروها) كي لا يخيبوا؟!



مصادر المعلومات:

1 – علم الإجرام والعقاب: د.رمسيس بهنام.

2 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.

3 – تشريح الشخصية المصرية: د.أحمد عكاشة.

4 – ثقوب في الضمير: د.أحمد عكاشة.

5 – النفس والجنس والجريمة: د.خليل فاضل.

6 – وجع المصريين: د.خليل فاضل.

7 – مصر تريد حلًا: فهمي هويدي.

8 – لماذا لا يثور المصريون: د.علاء الأسواني.

9 – هل نستحق الديمقراطية: د.علاء الأسواني.

10 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

11 – بين التاريخ والفلكلور: د.قاسم عبده قاسم.

12 – عصر سلاطين المماليك: د.قاسم عبده قاسم.

13 – بدائع الزهور في وقائع الدهور: ابن إياس.

14 – دولة المماليك في مصر والشام: د.محمد سهيل طقوش.



(٤)

أخطر أنواع المجرمين هو ذلك المجرم صاحب العقيدة، ذلك الذي يعتقد أن عمله الإجرامي العدواني عادل ومشروع، بل ومطلوب إلى حد اعتباره واجبًا.

ذلك النوع من الجريمة متوفر جدًّا لدينا فيما يخصُّ العنف، فكثير من مظاهر ممارسة العنف بشكليه المادي والمعنوي تكون بدافع "نبيل"! وهذه كارثة، فما يمكن أن يوقف المجرم العادي عن إجرامه هو وجود شيء بداخله يقول له أنه مخطئ، هذا الشيء إما أن يجعله يعود عن جريمته أو أن يهزَّ موقفه فيوقعه في خطأ يوقع به وينهي شره. أما ذلك المؤمن بعدالة فعله فهو كالعاصفة الكاسحة التي لا تجد ما يوقفها إلا بصعوبة بالغة، وهو يفعل فعل الدبّ الذي قتل صاحبه!

لعلَّ أشهر تلك النماذج نموذج "رجل الأمن العنيف" الذي يعتبر أن لجوءه لمختلف صور العنف من تعذيب وضرب وقمع هو أمر واجب عليه، صحيح أن بين هذا النوع من رجال الأمن نسبة كبيرة تمارس عنفها بدافع السادية، ولكن الأكثر خطورة هو من يؤمن بصحة موقفه، والأخطر على الإطلاق من يجمع بين السادية والإيمان بموقفه، فهذا وحش مسلَّح شديد الخطورة، اجتمع فيه التعصُّب والوحشية وضيق الأفق والنظرة الضيقة للناس، والسادية!

من شاهدوا فيلم "البريء" -بطولة أحمد ذكي وإخراج عاطف الطيب- شاهدوا هذا النموذج في شخصية الجندي الريفي "أحمد سبع الليل" الذي يلقِّنه رؤساؤه أن يستبيح ممارسة أعتى أنواع العنف ضد المعتقلين السياسيين؛ بحجة أنهم "أعداء الله والوطن".

هذه الصورة ليست بعيدة عن الواقعية، ففي شهادة لأحد ضحايا التعذيب الأمني أكَّد أن الضابط الذي تولى تعذيبه كان فور سماعه الأذان ينتفض للوضوء والصلاة بكل خشوع، ثم يعود لمواصلة العنف الوحشي! وأنا نفسي مررتُ بتجربة حين أمسكنا -أنا والجيران- بلصٍّ واقتدتُه للقسم، وأثناء تحريري المحضر أخذوه ليعود وقد تمزَّقت ملابسه وبدت عليه علامات الضرب الوحشي، فقال رجل الشرطة تعليقًا على ذلك: "يا باشا إحنا بنظلم صحيح... بس بنظلم مين؟ بنظلم دُول!".

هذا رجل ضعيف الثقافة ضيق التفكير، يرتكب يوميًّا ببساطة شديدة جرائم في حقِّ الإنسانية والأخلاق والقانون، وكل الضوابط، عن إيمان أنه على صواب! وهو -وأمثاله- لا يختلفون عن المتطرف الذي يحمل السلاح ويقتل الأبرياء، فقط هذا الضابط هو من يحمل النجمة على كتفيه والنسر على قبعته، هذا هو الفارق الوحيد!

الأمر قديم

هذا الأمر شديد القِدَم مرتبط ببعض طبائع الإنسان منذ نشأته، فبمجرد أن يجتمع في شخص التعصب للرأي والطبيعة العدوانية ورفض فهم الآخر، يستبيح كل ما يمكن وما لا يمكن تخيُّله من شرور. والنماذج موجودة. ففي العصر الأموي وخلال عهد يزيد بن معاوية، جرى تمرُّد في المدينة فأرسل "يزيد" جيشا بقيادة "مسلم بن عقبة المُري"، اجتاح المدينة وانتهك قدسيتها، وأحدث فيها مذبحة مروِّعة، عُرِفَت بوقعة "الحَرَّة"، بل ووردت أخبار عن وقوع حالات هتك واغتصاب للنساء بها. "مسلم بن عقبة" لم يراعِ حرمة المدينة المقدَّسة، ولا مَن بها من الصحابة والتابعين، فضلًا عن الحرمة العامة للنفوسِ البشرية، وهذا إيمانًا منه بصحة موقفه، وحين داهمه الموت وهو في طريق العودة وسُئِلَ عن عمل طيب يرجو لقاء ربه به قال بدون تردد أن هذا العمل "الطيب" هو وقعة "الحَرَّة" سالفة الذكر!

والحجاج بن يوسف الثقفي، قَتل مائة وعشرين ألف نفس واعتقل خمسين ألفًا آخرين، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وقتل الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير، وصلب جثته، وروَّع الآمنين، وأحدث من الفساد ما لا يوصف، هذا الرجل كان حين يصلي يخشع ويبكي، وكذلك حين يقرأ القرآن. أي أنه كان نموذجًا يستحقُّ الدراسة النفسية لرجل يؤمن بالعنف المطلق لحماية الدولة!



ومع ذلك كان هؤلاء مجرد "حالات"، لكن مع الوقت استسهل بعض الحكام أسلوب العنف، وسعوا لتحويله إلى "منهج مقبول التطبيق"، حتى وصلنا لمرحلة أن في أيامنا هذه يجري تعليم رجل الأمن القسوة والعنف الماديين والمعنويين بحجة أن حفظ الأمن يتطلب ذلك!

التجارب التاريخية تؤكد أن تبني المؤسسات الأمنية للعنف باعتباره أسهل طريق لحفظ الأمن يؤدي لاستفزاز غريزة العنف الكامنة في كل منا، ومن هنا ينشأ العنف المضاد الذي يأخذ صورًا فردية ثم ينتقل لمرحلة العنف المنظم المضاد للنظام! والكارثة تكون حين يلقى المتجهون لهذا النوع من العنف أنفسهم في أحضان التيارات المنحرفة مثل الجماعات المتطرفة.

نعم.. فعودة للتاريخ الأموي حيث عانت الدولة جراء حركة "الخوارج" المسلحة، وعانى كذلك الأفراد الأبرياء، كان كثير من المنضمين للخوارج ينضمُّون لا إيمانًا بعدالة قضيتهم، بل لمجرد النكاية في الدولة التي قمعتهم... وكل حركة تمرُّدية أو مسلحة عبر التاريخ كان جزء من المنضمين إليها من المتضررين من العنف الأمني الموجَّه ضدهم، وفي العصر الحديث شهدت مصر تجربة مماثلة، فكثير ممن انضمُّوا لتيارات العنف الديني كانوا من المعتقلين السابقين الذين تعرَّضوا للتعذيب أو الاعتقال التعسفي غير القانوني، أو تعرض أحد المقربين منهم لمثل تلك الممارسات.

إذن فببساطة... العنف لا يحمي الأمن، بل يدمِّره! بينما يتحقق الأمن بالعدل واحترام حقوق الإنسان، لأسباب كهذه ربط رسول ملك الروم العدل بالأمن حين قال: "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر".

البـذرة

مع الأسف الإيمان بجدوى العنف جزء من الموروث المصري! يبدو هذا في تضمُّن أساليب وتطبيقات التربية في البيت والمدرسة كثيرا من مظاهر العنف، تتمثل في العقاب البدني الذي يصل أحيانًا لحد العنف المفرط أو التعذيب. كم من جريمة ضرب مفضٍ لموت أو عاهة من أب لابنه أو معلم لتلميذه تبلغنا يوميًّا؟ منها بالتأكيد ما هو بدافع السادية –كما في جرائم "الدافع الأمني"– ولكن كثير منها يكون عن إيمان بجدوى

العنف تربويًا... كرة ثلج هي إذن تتدحرج وتكبر مع نمو الطفل في مجتمع يتقبل العنف كشكل من أشكال "الحماية" و"الرعاية"، طفل كهذا لن يصعب تخيل منهجه الأمني لو أصبح يومًا رجل أمن!

من هنا يأتي المجرم ممارس العنف عن إيمان بـ"أخلاقيته"!



مصادر المعلومات:

1 – تشريح الشخصية المصرية: د.أحمد عكاشة.

2 – ثقوب في الضمير: د.أحمد عكاشة.

3 – علم الإجرام والعقاب: د.رمسيس بهنام.

4 – ما وراء التعذيب: بسمة عبد العزيز.

5 – لماذا لا يثور المصريون: د.علاء الأسواني.

6 – هل نستحق الديمقراطية: د.علاء الأسواني.

7 – البروج المشيدة: لورانس رايت.

8 – القاعدة وأخواتها: كميل الطويل.

9 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.

10 – الدولة الأموية: د.محمد سهيل طقوش.

11 – البداية والنهاية: ابن كثير.

12 – الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

13 – تاريخ المذاهب الإسلامية: الإمام محمد أبو زهرة.

14 – الفرق والجماعات الدينية: د.سعيد مراد.

15 – الجماعة الإسلامية المسلحة: د.سلوى سليم العوا.

16 – الطغاة والبغاة: د.جمال بدوي.



(٥)

لأن بداية العلاج هي الاعتراف بالمرض، فإن علينا أن نعترف أن مجتمعنا قد أصبح مريضًا بالعنف، بعد أن كان العنف مجرد زائر عابر في تاريخه الطويل. وأنا هنا أعني ذلك العنف غير المبرر ولا المشروع بين أبناء الوطن الواحد، وليس ذلك العادل في مواجهة عدوان خارجي أو احتلال.

ثمة هامش منطقي من العنف في التعاملات اليومية للأفراد والمجموعات البشرية، ولكن هذا الهامش يجب أن يبقى استثناء لا قاعدة، خاصة لو كان المجتمع بطبيعته نابذًا للعنف، لكن أن يتغير ذلك الموقف 180 درجة، ليتبنَّى المجتمع العنف كثقافة مقبولة –بل ومطلوبة أحيانًا– فهنا موطن المرض.

تتبع خَطّ سير العنف

عندما نتأملِ خَط سير العنف في مصر منذ بدايات القرن العشرين وحتى الآن، نلاحظ أنه قد قطع شوطًا كبيرًا في وقت قياسي، فمائة عام في تاريخ مصر ليست بالكثير، ووقوع تغير كهذا في طبيعة شعبها في ذلك الوقت القصير هو أمر ليس بالذي يمكن استسهاله.

في النصف الأول من القرن العشرين كان العنف عادة موجَّهًا من وإلى الاحتلال البريطاني، أما ذلك العنف المتبادل بين المصريين فكان هامشه شديد الضيق، وكانت أبسط جرائم الضرب أو القتل كفيلة بإثارة أعتى موجات الاستنكار والرفض؛ أما العنف



البوليسي فكان موجودًا، لكنه لم يكن بتلك الصورة المرعبة التي نعيشها.

أما في النصف الثاني –تحديدًا ما بعد 1952– فقد أخذ العنف مكانًا قويًا في السياسة الداخلية للدولة؛ إذ إن حكم العسكريين لمصر أدى –بطبيعة الحال– إلى "عسكرة الدولة"، وبالتالي فإن الحكام الجدد قد وقعوا في خطأ المزج بين التعامل العسكري الصارم –الذي يحمل بعض العنف– مع مخالفة النظام أو معارضته، وبين ضرورة مراعاة "مدنية المجتمع" بأن يتاح هامش التعبير عن الرأي والمعارضة، بل ومخالفة النظام العام أحيانًا بشكل مقبول، دون خشية من أن تهبط "عصا الحكومة" على رأس المخالف أو المعارض.

أنا لم أعِشْ تلك الفترة التي تحوَّل فيها العنف إلى ردِّ فعل جاهز من النظام ضدِّ المعارضة، لكن من قراءاتي عنها أستطيع أن أقول بكل ثقة إن المجتمع المصري عاش فترة من الصدمة والحيرة والعجز عن تصديق أن التعامل الدموي القاسي الذي تلقَّاه المعارضون لم يعد يأتي من الإنجليز أو البوليس السياسي المتَّهم بالعمالة، بل هو يأتي من مصريين ضدَّ مصريين، ربما هذا ما يبرِّر لي معلومة تكرَّرت كثيرًا في الكتابات عن تلك الفترة، من أن المعتقلين كانوا يهتفون بحياة عبد الناصر وهم يُعَذَّبون في معتقلاته بأيدي زبانيته! البعض يقولون إنه لم يعلم مطلقًا، والبعض الآخر يقول إنه كان يعلم بوجود "بعض القسوة" وليس "كل القسوة"، ولكنني أحيل هؤلاء وهؤلاء إلى عبارة الفاروق رضي الله عنه: "لو عثرت بغلة بأرض العراق لسألني الله عنها".

بعد فترة الصدمة تلك أصبح المجتمع وقد تقبَّل فكرة وجود العنف المنظم داخله كأمر واقع، ولأن الناس على دين ملوكهم، فقد كان من الطبيعي أن تتسرَّب ثقافة العنف من قمة هرم المجتمع "الحكام" إلى باقي طبقاته من واحدة إلى التي تحتها، وهكذا، حتى تحوَّل "تقبل العنف" إلى شيء طبيعي، وانتشر العنف المادي والمعنوي في مختلف قطاعات المجتمع، في المدرسة والبيت والجامعة والشارع والمواصلات والإعلام والمصالح الحكومية... وغيرها، في صور وأشكال مختلفة، فهو في البيت والمدرسة "تربية"، وفي العمل "حزم إداري"، وفي الإعلام "تشهير متنكر في شكل كشف للحقائق"..

وإن كان ذلك العنف قد شهد انحسارا خلال فترة ما بين 1967 – 1973 فإنه عاد بضراوة بعد كارثة الانفتاح، التي وجَّهت ضربة عاتية للقيم الأخلاقية؛ لتزيحها عن الوجدان المصري، وتضع مكانها القيم المادية المطلقة التي جاءت للمجتمع بالمزيد من العنف، سواء هو عنف المتجبِّرين بثرواتهم من "الأثرياء الجدد" أو عنف المطحونين ماديًّا،

الذين اكتسبوا حقدًا على طبقية المجتمع، أو عنف من وجَّهتهم المتغيرات والصدمة الحضارية للتطرُّف الديني المقيت!

ثم شهدت العقود الثلاث الماضية "توحشًا" للنظام في تكميم المنافذ المشروعة للتعبير عن الرأي والمشاركة الإيجابية في إدارة المجتمع، وتزامن ذلك مع تزايد التحديات الخارجية للمشاعر الوطنية والدينية والقومية، والتحديات الداخلية للاحتياج الإنساني العادل للحياة الكريمة الآمنة، وعدم ملائمة تحركات النظام وتصرفاته لهذه التحديات أو تلك، حتى تحوَّل هو نفسه إلى تحدٍّ كبير.

ومع تلازُم الفقر الطاحن مع الجهل وضياع القيم والمعايير انتشرت الجريمة، بل وأخذت طابعًا عنيفًا قد يفوق ما تقتضيه الجريمة ذاتها! وتزامن ذلك مع ثورة المعلومات والانفتاح الإعلامي على العالم، وما صاحبه من حالة غليان سياسي داخلي جرت -وتجري- مواجهته بزيادة العنف الحكومي... كل هذه المعطيات تقول إن العنف قد أخذ مكانه، واستقر فيه وباض وأفرخ، و لم يعد سوى العدِّ التنازلي على الانفجار الكبير!

وبَعد؟

العنف ليس "دور برد" يمكن علاجه بقرص "بنادول" لنتحدث عن حلٍّ في بضعة أسطر! فيما سبق قمتُ بعرض سريع للخطوات التي قطعها العنف ليأخذ مكانه بين مفردات حياتنا، المطلوب إذن هو فصل كل خطوة وكل عنصر والتعامل معه على حَدة؛ بحيث يتم "تجفيف منابع" العنف.

منابع العنف التي نستخلصها مما سبق هي "الجهل" و"القهر السياسي" و"الفقر الطاحن" و"غياب الوعي الديني والأخلاقي" و"التجاهل الحكومي للرأي العام" و"انتهاج الشرطة للتعذيب" و"انفصال الموقفين الرسمي والشعبي من قضايا الأمة" و"تهميش أهل الخبرة والكفاءة"... والمنبع الرئيسي هو عدم الاعتراف بوجود مشكلة عنف في مصر، والتغنِّي الدائم بأننا "شعب طيب"... الحقيقة أنني حين أعلم بموت شابٍّ جراء التعذيب في قسم شرطة، وسقوط ضحايا "غلابة" في طابور العيش، وفقء عين تلميذ بيد مدرِّس، وتمزيق جسد شاب بسنجة أو مطواة في مشاجرة على موبايل أو حفنة قروش، وتعذيب أب لابنه بالكي بالنار، حين أطالع كل تلك الفواجع بالكثافة المريعة الحالية أشعر أن الحديث عن "الشعب الطيب" هو قمة السخف والحماقة والانفصال عن الواقع!



المبتدأ والخبر

لو نظرنا لما سبق للاحظنا أن "مبتدأ" العنف كان من النظام، و"خبره" هو حال المجتمع، وبالتالي فإن مبتدأ طرد العنف أيضًا بيد النظام. فبدون تدخُّله إيجابيًا لن يكون هناك حل للمشكلة، بل غالبًا ستتطور ليصبح العنف هو "بضاعته التي تُرَدّ إليه". من الصعب أن أحدِّث البلطجي عن المسالمة وهو يعيش تحت خطِّ الحدِّ الأدنى من الحياة الإنسانية الكريمة، ومن المستحيل أن أنصح المدرس بانتهاج أسلوب تربوي غير عنيف وهو يدرس لفصل به مائة طالب، ويتلقى آخر كل شهر الملاليم، ومن غير المنطقي أن أتوقع من رجل الشرطة عدم ممارسة التعذيب وهو يعلم أن توقُّفه عنه يعني تصنيفه رسميًا على أنه غير كفء لعمله.. ولنقِسْ على ذلك كل قطاعات المجتمع. الأمر بدأ من قمة الهرم وبالتالي فإن حله بيد أهل تلك القمة، وعلى باقي درجات هرم المجتمع التعاون، ولكن بشرط وجود رغبة رسمية حقيقية في ذلك، وإلا فإن الحديث عن انهيار الهرم كله لن يكون نوعًا من التشاؤم المفرط!



مصادر المعلومات:

1 – وجع المصريين: د. خليل فاضل.

2 – لماذا لا يثور المصريون: د. علاء الأسواني.

3 – هل نستحق الديمقراطية؟: د. علاء الأسواني.

4 – خريف الغضب: محمد حسنين هيكل.

5 – لمصر لا لعبد الناصر: محمد حسنين هيكل.

6 – النفس والجنس والجريمة: د. خليل فاضل.

7 – علم الإجرام والعقاب: د. رمسيس بهنام.

8 – ما وراء التعذيب: بسمة عبد العزيز.

9 – تشريح الشخصية المصرية: د. أحمد عكاشة.

10 – ثقوب في الضمير: د. أحمد عكاشة.

11 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د. جلال أمين.

12 – ماذا حدث للمصريين: د. جلال أمين.

13 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

14 – ضدّ الرئيس: د. عبد الحليم قنديل.

15 – كارت أحمر للرئيس: د. عبد الحليم قنديل.

16 – الرئيس البديل: د. عبد الحليم قنديل.

17 – الإرهاب.. الظاهرة وأبعادها النفسية: د. ماجد موريس.



مسألة أمن قومي



(١)

"دور مصر الرائد في المنطقة!"

لماذا مصر بالذات؟!!

عندما نراجع المتغيرات المصرية على المستويين الداخلي والخارجي، ونحسب قدر تراجعنا الهائل في مختلف المجالات، لا نستطيع أن نغفل تراجع أدائنا السياسي الخارجي، ولا نمنع أنفسنا من الشعور بالمرارة عندما نرى هذه الدولة العربية الصغيرة أو تلك تحتل مكاننا في دور طالما لعبناه في المنطقة. المؤلم أن كثيرًا من المصريين -وأعني بهم رجال الشارع العاديين والشباب المهتم بالسياسة- يفاجئونني عند مناقشتهم في هذا الأمر بأنهم يعتبرون ذلك "علامة صحية" من منطلق أن مشاكل دول المنطقة "باب يأتينا منه الريح" علينا أن "نسدُّه ونستريح"!.

هناك حالة إغفال لحقيقة أن الدولة -أي دولة- حين تقرر أن تنفق وقتًا ومالًا وجهدًا للتفاعل مع الأوضاع السياسية المجاورة فإن ذلك لا يكون على سبيل "التطوُّع" بل يكون -غالبًا- لخدمة الأهداف والتطلعات السياسية لها، ولحماية أمنها القومي ومصالحها الخارجية... فنطاق التحركات العاطفية في عالم السياسة ليس بالاتساع الذي يظنه البعض، ومصر لا تَعتبر مشاكل دول المنطقة مشاكلها الخاصة من منطلق عاطفي بقدر ما يكون ذلك من منطلق عملي يصب في النهاية في مصلحة الدولة، بغض النظر عما يُقال في وسائل الإعلام من عبارات منمَّقة تتحدث عن "شعور مصر بالواجب نحو دول المنطقة" و"مصر الشقيقة الكبرى" و"مصر السبَّاقة لمد يد العون للإخوة العرب"!.



"مباحثات ومناقشات ومشاورات وكبار مسئولينا يتنقلون هنا وهناك، وما المكسب؟ ما الذي يمكن أن نجنيه من دخولنا طرفًا في شئون دول ومجتمعات تقع خلف حدودنا، بل وأحيانًا فيما وراء تلك الحدود بدولة أو دولتين أو أكثر؟ ألم تلسعنا نيران تلك المناطق المشتعلة بما فيه الكفاية؟ من استشهاد سفيرنا السابق في العراق في 2005 وقبلها بعامين الاعتداء بالضرب على وزير خارجيتنا في المسجد الأقصى، فضلًا عن تصديع رؤوسنا بما يجري في السودان! ومع ذلك ما زلنا نواصل نفس السياسة في الاهتمام بأمور الآخرين بإصرار عجيب!".

"لماذا لا نأخذ لأنفسنا فترة نقرر فيها أن تكون مصر دولة منغلقة على ذاتها لتتفرغ لإعادة بناء نفسها، كما فعلت أمريكا فيما قبل الحرب العالمية الأولى؟ لماذا لا نتعلم من نموذج سويسرا الدولة الأكثر حيادًا في العالم، التي بلغ من حيادها أنها لم تنضم للأمم المتحدة سوى في 2002؟".

كثيرًا ما أسمع القولين السابقين عندما أكون طرفًا أو متابعًا لنقاش بين وجهتي النظر؛ الأولى التي تنادي بحفاظ مصر على دورها السياسي في المنطقة، والأخرى المُطالبة بأن تعزل مصر نفسها عن مشكلات الجوار وتتفرغ لمشاكلها الداخلية. بالتأكيد فإن قائل العبارة سالفة الذكر يكون من أصحاب الرأي الآخر، في حين أني أنتمي لأصحاب الرأي الأول. جدير بالذكر أن تلك المناقشات عادة ما يكون أطرافها شبابا من مرحلتي العمرية، بهم ما بهم من إحباطات وهموم ناجمة عن المتغيرات السلبية بالمجتمع، مما ينعكس – غالبًا– على آرائهم. (وأنا هنا أتحدث عن "بعض" هؤلاء الشباب لا عن مجملهم).

بصراحة شديدة.. مَن منا لم تدُرْ هذه التساؤلات في ذهنه ولو لمرة واحدة عابرة؟

تساؤلات أخرى

أعترف أن الأفكار سالفة الذكر قد زارت ذهني كثيرًا، وصالت فيه وجالت، ولكني كنت حين أتتبعها أجدني أمام سؤالين هامين:

الأول هو: "لماذا حين أتتبع في تاريخ سعي مصر للعب دور ما في المنطقة أجد الخيط طويلًا ممتدًا لعهود موغلة في القدم كعهد الدولة الفرعونية القديمة؟" مصر الفرعونية مقسّمة فترات حكمها بين 30 أسرة، ويضيف إليها دكتور ناصر الأنصاري في كتابه "المجمل في تاريخ مصر" 18 أسرة أخرى (والأسرة هنا لا تعني الارتباط الأسري بل مجموعة الحكام المنتمين لنظام واحد) ما بين أسرات رومانية وعربية وطولونية وأيوبية

ومملوكية وعثمانية وجمهورية وغيرها... أي أن المجموع 48 أسرة (نظام حاكم)... كل تلك الأسرات كانت من أولوياتها القصوى أن يكون لمصر دور إقليمي ممتد لمساحة شاسعة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.. وممن حكموا مصر في تلك الأنظمة حكام أقوياء محنَّكون لهم من الخبرة السياسية ما يثبت أن تفعيلهم للدور المصري في المنطقة لم يكن اعتباطيًّا أو عاطفيًّا مجردًا أو عبثيًّا.

إن مطاردة أحمس للهكسوس في فلسطين، وحرب رمسيس الثاني ضد الحيثيين في العراق، وسعي أحمد بن طولون للسيطرة على الشام، وحملة محمد علي باشا على الوهابيين في جزيرة العرب، وحملات الخديوي إسماعيل في السودان، وإرسال عبد الناصر قوات لليمن لم تكن بالتحركات غير المدروسة ولا المهمِلة لمصلحة مصر. والأمر سواء فيما إذا كانت مصلحة النظام أو مصلحة الدولة، ففيما يخصُّ الأمن القومي تتقارب المسافات بين هذين النوعين من المصالح، فسقوط الدولة سيؤدي بالضرورة لسقوط النظام، مما يعني اضطرار هذا الأخير للحفاظ على الأمن القومي للدولة، وتأمين النطاق الخارجي لهذا الأمن.

السؤال الثاني: "هل زمننا هذا ما زال زمن التحركات السياسية غير القائمة على مصلحة معلنة أو خفية؟".. هل ما زالت مساحة التفاعل السياسي القائم على العاطفة والمعنويات بنفس الاتساع الذي كانت عليه قديمًا؟ ألا نلاحظ أن مواد صناعة القرار السياسي قد تغيَّرت؟، فتراجعت مواد: "الأخوَّة التاريخية" و"علاقات الدم والعِرق" و"الانتماء الطائفي والثقافي" لصالح مواد أخرى نفعية مثل: "المصالح المشتركة" و"ارتباط المنافع" هذا هو نمط العالم، ومصر حتى لو كانت لها خصوصيتها الثقافية والفكرية فإنها تبقى جزءًا من هذا العالم وعليها التحدث بلغته أو على الأقل فهم تلك اللغة وإجادة التعامل بها عند اللزوم.

إذن لا يوجد أدنى سبب لافتراض أن مصر تتعامل مع قضايا المنطقة بطريقة "الأجر على الله"، وهذا ينطبق على أية دولة في العالم، فإذا كانت أنظمة الدول المختلفة تتحرك داخليًّا -في الغالب- لأجل تحقيق مكاسب سياسية لا مجرد الشعور بالرضا عن النفس، فماذا يكون دافعها خارجيًّا؟

عالم بلا جدران

قد يقول البعض إن مصر يُمكنها أن تحقق مصالحها دون "التورُّط" في أزمات الآخرين،



ولكن ماذا عن حماية الأمن القومي المصري؟ هذا بيت القصيد! فثمة أمر واقع يقول إن فكرة أن نغلق بابنا على أنفسنا ونستريح هي فكرة خيالية أكثر من اللازم، فالتاريخ -والواقع الحالي- يثبتان حقيقة أن كل دولة أو نظام حكم أو مؤسسة لا بد لها من عدو ما يخطط ضدها أو خصم يتربص بها.

نحن نعيش في عالم بلا جدران على الإطلاق، وكم من مجتمع حسب نفسه آمنًا لمجرد أنه ليس طرفًا في أية أزمات أو مشكلات، ثم فوجئ بضربة قوية توجَّه لأمنه واستقراره، سواء تمثَّلت تلك الضربة في عمل عسكري صريح أو جريمة إرهابية أو مخطط سري لزعزعة الاستقرار، وكلما كان ذلك المجتمع ثريًّا بالموارد ومتميزًا من الناحية الجغرافية ارتفعت احتمالات تعرِّضه للخطر. هذه قاعدة يفرضها الأمر الواقع، ومصر ليست استثناءً، بل إنها تعتبر على أساس تلك القاعدة من أكثر المجتمعات عرضة للخطر.

فلنأخذ مثالًا بمصر في العصر العثماني -عصر الانغلاق الأكبر لمصر على نفسها- في 1798م تعرّضت لحملة عسكرية منظمة من فرنسا بقيادة نابليون بونابرت، الذي كان يخطط لجعلها قاعدة شرقية لدولته، لماذا؟ لأجل توجيه ضربة موجعة لإنجلترا وقطع طريق تلك الأخيرة على مستعمراتها في آسيا! أي أن المصري البسيط استيقظ يومًا فوجد مدافع "ساري عسكر بونابرطه" تدكّ منزله، وجنوده يقتطعون من رزقه؛ فقط لأن هناك صراعًا تاريخيًّا يدور بين دولتين تقعان في قارة أخرى، وتبعدان عنه بأميال كثيرة! كل ذنب هذا المصري أن وطنه ثري بالموارد ويقع في منطقة محل أطماع الناس.

إذن فهذا قدرنا؛ أن نلعب دورًا ما خارجيًّا ولو رغم أنوفنا، فليكن ذلك إذن بإرادتنا ووفق تخطيطنا ولخدمة مصالحنا ما دام سيحدث لا محالة! أليس هكذا يقتضي العقل؟

بداية الكلام

والخلاصة؟ ليس هذا وقت "الخلاصة" بَعد، فكل هذا من قبيل بداية الكلام عن الأسباب المنطقية لأن تتحمل مصر "صداع الرأس" الناجم عن دخولها طرفًا فاعلًا في شئون الآخرين.. هذا إن افترضنا أنها بالفعل شئونهم وحدهم! صحيح أن دور مصر الخارجي يتعرض أحيانًا لتذبذب قوي وأوقات تراجُع، ولكنه موجود على أية حال، وثمة واقع تاريخي يقول إن وجود مصر كلاعب على الساحة الإقليمية هو الأصل، وغيابها هو الاستثناء..

بداية الكلام.. هي أن ننظر للساحات التي تلعب فيها مصر ذلك الدور القديم، ولتكن أمثلتنا ثلاثة مناطق: فلسطين والشام، السودان ووادي النيل، العراق ومنطقة الخليج.. لعلنا بالتعرض لتلك الأمثلة نفهم إجابة السؤال: لماذا يجب أن نعتبر أن دور مصر الإقليمي مسألة أمن قومي؟

فلنبدأ الكلام إذن..



مصادر المعلومات:

1 – المجمل في تاريخ مصر: د.ناصر الأنصاري.

2 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

3 – شخصية مصر: جمال حمدان.

4 – المصريون والفرنسيون في القاهرة 1798 – 1801: أندريه ريمون.

5 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

6 – تاريخ الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين: د.محمد سهيل طقوش.

7 – محمد علي وأولاده: د.جمال بدوي.

8 – لمصر لا لعبد الناصر: محمد حسنين هيكل.

9 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

10 – أمريكا والعالم: د.رأفت الشيخ.



(٢)

"إن من يسيطر في المعركة على تقاطع الطرق يصبح سيد الأرض".

نابوليون بونابارت

"دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل".

ديفيد بن جوريون

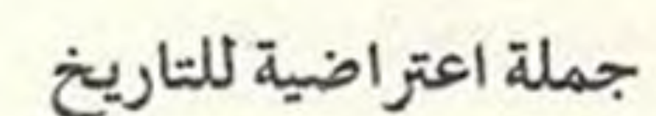
"إن حدود إسرائيل الدولة هي المسافة التي يستطيع أن يصل إليها السلاح الإسرائيلي".

السياسة العسكرية الإسرائيلية

****

لو تأملنا تلك العبارات الثلاث بالشكل الكافي لعرفنا لماذا يكون شأن فلسطين والشام شأنًا مصريًا خالصًا؛ فتلك المنطقة -بالذات فلسطين- هي "تقاطع الطرق" التي تحدَّث عنها نابوليون بونابارت، وهي جزء من "أرض إسرائيل" التي قال ابن جوريون إن "دولة إسرائيل" تقع عليه؛ ذلك الجزء الذي يشمل المساحة الشاسعة الممتدة من النيل للفرات، والتي أثبت التاريخ إمكانية وصول السلاح الإسرائيلي إليها بالغزو أو بالإغارة.





والمسألة هنا غير مرهونة بالوجود الإسرائيلي فقط؛ فالأنظمة الحاكمة لمصر -منذ أقدم العصور- اهتمت دومًا بالشام كجزء من نطاق الأمن القومي المصري؛ فأولًا: طالما لعبت تلك المنطقة -التي تشمل حدودنا الشرقية وما حولها- دور الممر والمدخل لمختلف الغزوات المؤثرة في التاريخ المصري، الآشورية والفارسية واليونانية والعربية والصليبية والعثمانية، وثانيًا: حَرِص القادة بعيدو النظر على أن ينقلوا إليها المعارك المتصدية للأخطار الموجَّهة لمصر؛ بحيث تكون المسافة بعيدة بين أرض المعركة والعمق المصري، بدا هذا واضحًا في العصور القديمة عندما حارب رمسيس الثاني الحيثيين في قادش (العراق)، وخروج تحتمس الثالث للتصدي لأعدائه في مَجِدُّو (الشام)، وكذلك في العصور الوسيطة في ذهاب الجيش المصري المملوكي لمحاربة المغول في عين جالوت بفلسطين ومحاولات المماليك وقف زحف العثمانيين على مصر بالخروج لمحاربتهم بالشام.

والحرص المستمر لأغلب من حكموا مصر في تاريخها الطويل على وضع الشام تحت اليد المصرية ينبغي أن يستفزَّ تفكيرنا لمعرفة "لماذا هذا السعي الشديد منهم لذلك؟" فالدولة البطلمية خاضت أعتى الحروب ضد شقيقتها السلوقية في سوريا في سباق على ضم منطقة فلسطين ولبنان، والفاطميون في مصر عاشوا سنوات من الصراع مع العباسيين في العراق لضم نفس المنطقة، والمماليك ضموها فعليًا واعتبروها جزءًا من الدولة الواحدة، ومحمد علي سعى لنفس الشيء.

وتكرار نفس السياسة على ذلك المدى الزمني الطويل من حكام مشهود لهم بالحنكة والبراعة، هو أمر يدعو للنظر والتفكير والثقة بأن جهودهم تلك لم تكن اعتباطية أو مجرد طمع في مجد عسكري.

إذن فالمبدأ نفسه يُلَخَّص في أمرين: الأول هو حرص أي نظام حاكم خبير على نقل معارك الوطن خارج نطاق أرضه، والثاني هو خلق نطاق واسع للأمن القومي لإضاعة عنصر المفاجأة على أي عدو يطرق أبواب الدولة من الخارج.

إسرائيل... أمر واقع يدعو للتفكير

وعودةً للأمر الواقع -فالمفروض ألا ينفصل تفكيرنا عنه ولا ينفصل هو عن أفكارنا-



يوجد أمر واقع يقول إن بجوارنا بالملاصقة دولة معادية؛ بغضِّ النظر عن أية اتفاقيات أو معاهدات أو تعاونات؛ فهي أمور أبرمتها "أنظمة" مع "أنظمة أخرى" لتقرر "خلق وضع جديد"، أي أن ذلك الوضع الجديد جاء طارئًا على وضع أقدم لا يمكن إنهاؤه بضغطة زرٍّ.

وليكون كلامي أوضح؛ فلننظر لتلك النقاط المتعلقة بإسرائيل:

1 – إسرائيل دولة قامت على "الإحلال"، أي طرد شعب مقيم والاستيلاء على أرضه ليحلَّ شعب جديد عليها، لم تقم إذن بالاندماج بين دولتين أو بالانفصال من دولة عن دولة، ولكن بـ"الحلول" الذي لا يتمُّ إلا باستخدام العنف واغتصاب الحقوق التاريخية للشعب المقيم، وكذلك لا يرتبط بأرض معيَّنة يتوقف عندها؛ بل بأقصى ما يستطيع السلاح الوصول إليه!

2 – السياسة الأمنية الإسرائيلية تؤكد ضرورة نقل معارك إسرائيل خارج العمق الإسرائيلي، والمبادرة بالضربة الاستباقية للخصم المتوقَّع مهاجمته للمصالح الإسرائيلية، وكلا الأمرين يعنيان أن تسمية الجيش الإسرائيلي بـ"جيش الدفاع" هي تسمية تمويهية؛ فهو في حقيقة الأمر "جيش هجوم" لا يعتمد تدخُّله على الردِّ على الهجوم بل على البدء به.

3 – الدولة الإسرائيلية دولة وظيفية أي أن من وضعوها (الغرب) وضعوها لتلعب دور الوكيل لمصالح رعاتها في الشرق، وهذا لأن فكرة تجنيد أنظمة حاكمة عربية لصالح المصالح الغربية قد تكون ممكنة، ولكن ليست لها دائمًا الاستمرارية المطلوبة كوضع كيان يدين من البداية بالولاء للراعي الرئيسي له.

4 – المنطقة التي تمَّ زرع الكيان الصهيوني فيها لم تُختَر عبثًا؛ فهي منطقة "مفترق الطرق" التي تحدَّث عنها نابليون، وهي تمثِّل الطريق الوحيد المباشر بين جناحي الوطن العربي، الآسيوي والإفريقي؛ فضلًا عن سهولة وصول الدعم الخارجي لها من الدول الكبرى المؤيدة، عن طريق البحر أو الجو، لإطلالها على طريق مفتوح مباشرة نحو الغرب.

5 – التيار القائل بأن دولة إسرائيل لا تضمُّ حصريًا كل "أرض إسرائيل" ليس



بالضعيف لا في المجتمع الإسرائيلي ولا في الأوساط المتعاطفة معه في الخارج، والاعتماد على بقاء الأنظمة الحاكمة في إسرائيل التي ترى عكس ذلك مراهنة خطرة؛ فالأنظمة تتبدل، والوضع قد ينقلب رأسًا على عقب، وعندها ستكون الكارثة.

المتأمل في تلك النقاط الخمس يدرك أن حالة "السلام" بيننا وبين إسرائيل ما هي إلا جملة اعتراضية في حالة العداوة التاريخية بينها وبين مصر؛ خاصة مع حقيقة أن السلام الآمن هو السلام القائم على رغبة الشعوب والأنظمة لا ذلك القائم على احتياج الأنظمة لحالة سلام، والمعاهدة بيننا وبين إسرائيل تنتمي للنوع الآخر؛ فبقاؤها مرتبط بلحظة إدراك الإسرائيليين أنهم لم يعودوا في حاجة للسلام مع مصر!

نتيجة المعطيات السابقة

النتيجة ببساطة هي أن ثمة أمرًا واقعًا يقول بوجود كيان معادٍ لنا في منطقة ما، العقل يقول إن علينا دائمًا أن نتعامل بحساسية شديدة مع كل ما يجري بتلك المنطقة وأن نعتبره شأننا الخاص؛ صحيح أن الرسميات تلزمنا بالحديث عن سيادة الدول وعدم تدخل دولة في داخليات دولة أخرى؛ ولكن دعونا نعترف أن تلك المنطقة منذ قديم الأزل لم تعرف هذا المبدأ بدرجة الصرامة التي يُمارَس بها في غيرها من مناطق العالم! ثم إن منطقة الشام بالذات طالما كان سقوطها في يد قوة ما نذيرًا بأن تتبعها مصر إن عاجلًا أو آجلًا، وتكرار الحال عبر التاريخ يعطيه قوة أشبه بقوة القواعد الفيزيائية.

خطورة الاطمئنان

للأسف، ثمة تقصير شديد -حاليًا- تجاه التعامل مع هذا الجانب، يتمثل في الاطمئنان الشديد إلى أن الكيان الصهيوني لن يقلب لنا ظهر المِجَنّ، مع تنامي عداء أكثر قوى المقاومة الفلسطينية واللبنانية تأثيرًا (حماس وحزب الله)، وخصومة النظام السوري كله؛ مما يعني -ببساطة- تزايد خصوم مصر في المنطقة يومًا بعد يوم، بكل ما لهم من قاعدة شعبية ودعم خارجي، بل وتعاطف داخلي من بعض فئات الشعب المصري؛ الأمر الذي يجعل مصر في معزل حقيقي عن الواقع، ويُفقِدها ميزة وساطتها الحصرية بين مختلف الأطراف



المتصارعة، ويهدد بجعلها عرضة لأية أعمال انتقامية من أية قوى طائشة قد تتطرف في تصنيفها –مصر– كدولة معادية!

من الطبيعي –والمفهوم– أن تكون لمصر خلافات مع هذا النظام أو ذاك، أو هذا الاتجاه أو ذاك؛ ولكن ما دمنا جميعًا في مركب واحد؛ فعلينا –بأي شكل– الوصول لنقطة تفاهم!

والجانب الآخر من التقصير يبدو بشدة في إهمال الجناح الآسيوي لمصر (سيناء) سواء بمقتضى الاتفاقية التي تقلّص معها الوجود العسكري المصري في سيناء من 1000 دبابة إلى 30 فقط والقوات من 77 ألف فرد إلى 7000 فقط.

هذا فضلًا عن الإهمال الحكومي لسيناء من حيث المرافق والخدمات ومظاهر سيادة الدولة، ومعاملة بدوها وكأنهم رعايا "تحت الاحتلال".. وخلق حالة احتقان وعداوة منهم لوطنهم في عصر أصبح فيه النظام هو الدولة، والدولة هي النظام؛ مما يعني أن كلًا منهما سيؤخذ عند لحظة الانفجار بجريرة الآخر!

كل ذلك يضرب الجانب الشرقي من أمننا القومي بمِعْوَل صلب، ويهدد في أي وقت بكارثة حقيقية تأتينا من بوابة طالما أثبتت أنها الأصلح لغزو مصر!

ختام الجزء الثاني

هل عرف –عزيزي القارئ– إجابة ذلك السؤال: لماذا على مصر الاهتمام بالشأن الشامي (الفلسطيني – اللبناني – السوري) باعتباره شأنها الخاص؟!

حسنًا.. ماذا عن العراق والخليج؟



مصادر المعلومات:

1 – الأيام الأخيرة: د.عبد الحليم قنديل.

2 – العروش والجيوش: محمد حسنين هيكل.

3 – سيناء شأن مصري آسيوي: د.رأفت الشيخ.

4 – شخصية مصر: جمال حمدان.

5 – الصهيونية والعنف: د.عبد الوهاب المسيري.

6 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب المسيري.

7 – تاريخ تطور حدود مصر الشرقية: د.ألفت الخشاب.

8 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

9 – تاريخ المماليك في مصر والشام: د.محمد سهيل طقوش.

10 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.



(٣)

نعمة الوطن العربي -ونقمته- أن كل جناح منه تتوفَّر به عناصر جذبه الخاصة بشكل لا يقلُّ كمًّا وكيفًا عما لغيره من أجنحة ومناطق الوطن العربي الكبير، سواء تمثَّلت تلك العناصر في موقع جغرافي متميِّز، أو ثروات معدنية وبترولية، أو سيطرة على معابر مائية مهمة. ربما لذلك يلاحظ قارئ التاريخ أن المنطقة العربية أكثر منطقة في العالم تعرَّضت لمحاولات الغزو والاستعمار والسيطرة.

والناظر بسطحية للقطاع الخليجي من العالم العربي يراه عالمًا خاصًّا منفصلًا عنا بكل ما فيه من مظاهر الترف المفرط والثراء الفاحش والإغراق في الاستهلاكية "السفيهة"، ومن التناقض بين "انتحال" الطابع الإسلامي للمجتمع، والسير في ركاب أمريكا، الدولة التي يعتبرها الإسلاميون الأصوليون العدو الأكبر للإسلام. بينما المتأمل بتركيز للساحة الخليجية يُدرِك أنها بمثابة ثغرة كبيرة في أمننا القومي علينا وضعها تحت أعيننا واعتبارها شأننا الخاص.

لماذا؟ إجابة هذا السؤال تتطلَّب أن أقصَّ عليكم قصة صغيرة لكن مهمة.

قصة صغيرة:

توارث الروس -عبر الأجيال- نصيحة القيصر بطرس الأكبر (1725-1672) بأن يسعوا للوصول إلى "المياه الدافئة"، أي أن يمدوا نفوذهم لسواحل المتوسط والخليج والمحيط الهندي.



وبالفعل وقعت عدة محاولات روسية لذلك، سواء من خلال المحاولات الروسية لغزو تركيا خلال العقود الأخيرة للحكم العثماني، أو محاولة السيطرة على إيران في منتصف القرن العشرين خلال عهد الشاه السابق، وأخيرًا عملية غزوهم لأفغانستان في 1979 فيما اعتبره بعض المراقبين خطوة لغزو باكستان أو إيران بعد ذلك، الأمر الذي كان يمثّل كارثة حقيقية للمصالح الأمريكية في المنطقة.

فأمريكا تعرف أن مَن يسيطر على هذا الجانب من الخليج العربي يكون قد سيطر على مضيق "هرمز"، الذي تمر عبره يوميًا كميات من البترول تقدَّر بالملايين، ويكون كذلك على مرمى ضربة مدفع من الجانب العربي من الخليج، والذي تشغل أغلبية مساحته السعودية التي لا تكفي طاقتها السكانية لتكوين جيش يستطيع تحقيق الحد الأدنى من الحماية للدولة، مما يعني سهولة اجتياحها من قِبل القوة السوفيتية العاتية، آنذاك.

هنا كانت فكرة الأمريكيين إذن في إقناع الدول الإسلامية –بالذات السعودية ومصر– بمساعدة الأفغان المقاومين للاحتلال السوفيتي، ثم بعد ذلك انتهاز أول فرصة مع غزو العراق للكويت (1990) وحرب الخليج (1991) لزرع الوجود العسكري الأمريكي الصريح في جسد السعودية –والخليج عامة– بمباركة كاملة من بعض الأنظمة كالسعودي والكويتي والقطري. وتركت تلك الأنظمة الصقر الأمريكي يبيض ويفرخ على أراضيها بمباركتها ودعمها بل وطلبها أيضًا، حتى تحوَّلت تلك الأراضي إلى قواعد انطلاق للهجمات الأمريكية على العراق، حتى سقوط نظام صدام حسين واحتلال الأمريكيين لدولة عربية كاملة تمثل البوابة بين العالم الإسلامي العربي والعالم الإسلامي غير العربي! وبذلك نفّذت أمريكا نصيحة بطرس الأكبر لصالحها، وسيطرت على المساحة الكبرى من الخليج العربي، ولم يبقَ أمامها سوى فرض سيطرتها على الجانب الإيراني منه ليتحوَّل الخليج إلى بحيرة أمريكية.

الإنجاز الأمريكي لم يكن ليتحقق لولا تعاون الأنظمة الخليجية معه، فالسعوديون هم الذين طلبوا تدخُّل الأمريكيين صراحة لحماية السعودية من المخطط العراقي لغزوها بعدما اجتاح العراقيون الكويت. ثم بعد تحرير تلك الأخيرة ترسَّخت لدى الأنظمة سالفة الذكر فكرة أن حمايتها لا تكون إلا باستمرار الوجود الأمريكي. ودعونا هنا نلاحظ أن الأمريكيين هم الذين ساهموا من قبل في صناعة جزء لا يستهان به من قوة الجيش العراقي من خلال تزويدهم العراق بالسلاح خلال الحرب العراقية الإيرانية، أي أن أمريكا فعلت

كالدجَّال الذي يأتي بالثعابين في كمِّه ويطلقها في بيتك في غفلة منك، ثم يدَّعي أمامك القدرة على طرد الثعابين، ويُشعِرَك أنها كانت ستلتهمك لولا نجدته لك، ولكن ذلك الدجال لم يحمل ثعابينه ويرحل، بل بقي عندك بعد أن أقنعك أن وجوده هو الضمان الوحيد لحماية بيتك من الثعابين.

نعمة الوطن العربي –ونقمته– أن كل جناح منه تتوفَّر به عناصر جذبه الخاصة بشكل لا يقلُّ كمًّا وكيفًا عما لغيره

الخليج شأن مصري... لماذا؟

ربما يسأل البعض: وما علاقة القصة السابقة بأمننا القومي؟

والإجابة هي أن ما يجري على الضفة الأخرى من البحر الأحمر الذي يحدُّ معظم جانبنا الشرقي هو بالتأكيد يمسُّنا، ولننظر للأمر في نقاط لتكون أفكارنا أكثر تنظيمًا:

1 – الاهتمام الأمريكي بمنطقة الخليج قديم، وكذلك نشاط الأمريكيين فيها، ولكن هذا النشاط تضاعف فيما بعد حرب أكتوبر، والمحنة التي مرَّ بها الغرب عندما قُطِعَ عنه النفط العربي دعمًا لمصر في حربها مع إسرائيل، وردًّا على الدعم الأمريكي لتلك الأخيرة... المتأمل لتلك الحقيقة يدرك –ببساطة– أن من يضع يده على نفط الخليج فإنه يكون قد حرَم مصر –والعرب عمومًا– من سلاح أثبت فاعليته سابقًا... والسعي الجدي من الأمريكيين لذلك لا يمكن أن يُفَسَّر بحسن النوايا، خاصة أن العلاقات الدولية لا تستمر دائمًا على نفس الوتيرة، فاليوم نحن –رسميًّا– أصدقاء أمريكا، ولكن ماذا عن الغد؟

2 – كما أسلفتُ القول فإن العلاقات الدولية لا تبقى كما هي، وإن كان النظام المصري اليوم على وفاق مع نظيره الأمريكي فمن يدري ما قد يأتي غدًا، والمفترض من رجال السياسة أن يطلقوا للنظر البعيد عنانه للمستقبل، ويراعوا كل السيناريوهات المستقبلية، هل من الأمان عندئذ أن يكون الجيش الأمريكي على الضفة الأخرى من بحر يحدُّ معظم جانبنا الشرقي وفوق أرض لا تفصلنا عنها سوى كيلو مترات ليست بالكثيرة؟

3 – تعالوا نتحدَّث بصراحة... الوجود الأمريكي في الخليج حوَّل بعض دوله إلى



"دول وظيفية" أي دول وظيفتها تنفيذ أجندةٍ خاصة بالدولة الكبرى الراعية لها، ولنلاحظ أن أنظمة أغلب تلك الدول لم تتشكل على أساس من وجود تاريخي أو مبايعة شعبية أو أهداف قومية موحدة، بل على أساس تقسيمات قام بها الاستعمار قبل أن يحمل عصاه ويرحل، وتمت بدعم من الدول الغربية الكبرى التي كانت تحرص بالتأكيد على حماية مصالحها المستقبلية في المنطقة، مما يعني أن للأنظمة المذكورة شعورًا بالاحتياج لذلك "الخواجة" الأجنبي الذي صنعها.. وهذه مسألة خطيرة تبرز كلما وُجِدَ في الروابط العربية ضعف يجعل كل بيت عربي يبحث عمن يسدُّ فراغ غياب البيت العربي الكبير... وظيفية تلك الدول تعتبر كارثة محققة، فهذا يعني تحوُّلها لمخلب قط في يد الدولة الراعية لها، يعلم الله كيف يمكن أن تستخدمه يومًا.

4 – الدول كالبشر يصيبها الطمع، فإذا كانت أمريكا قد طمعت في مضيق هرمز، وسيطرت لأجله على الجانب العربي من الخليج، وتسعى الآن للتحرُّش بالجانب الإيراني منه، فمن يدري ألا يأتي دور مضيق باب المندب والبحر الأحمر يومًا، خاصة أنها بالفعل تسيطر على الجانب الشرقي منه بوجودها العسكري في السعودية؟

تلك المعطيات السابقة تعني أن الشأن الخليجي في واقع الأمر شأن مصري وعربي، فعندما يعتمد جزء كبير من القوة السياسية لمصر على انتمائها لمجتمع الدول العربية فإنها -بالتأكيد- ملزمة بأن تتعامل بحذر وبراعة مع واقع وجود ثغرة عميقة في الجدار الآمن للبيت العربي يتسلل منها الأغراب.

سَعْوَدَة مصر!

ثمة سبب آخر لضرورة وضع مصر عينها على الخليج، هو تلك التحولات التي جرت لمصر منذ النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي. فالمجتمع المصري طوال أكثر من خمسة وثلاثين عامًا يتعرض لمحاولات لـ"سَعْوَدَته" أي تحويل بعض أهم جوانبه إلى النمط السعودي، منذ كارثة "الانفتاح" الاقتصادي، وما ترتب عليه من تحوُّل المجتمع المصري إلى واحد من أبشع المجتمعات الاستهلاكية في العالم، وكذلك تسلل "النسخة السعودية" من التدين المعتمد على التشدد على الشكليات دون الجوهريات، والاعتماد على فقه



يدور في فلك أمور مثل الحجاب والنقاب والاختلاط (وهي قضايا مهمة بالتأكيد، ولكنها ليست الأهم في ديننا قياسًا بأمور مثل الجهاد والعدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر والجهل والمرض) دون أن يجرؤ أساطينه على الحديث بكلمة واحدة عن الوجود الأمريكي على أرض الحرمين؛ مراعاة -على حد قولهم- لحرمة الخروج على ولي الأمر (!!!). ذلك الشكل المختل من التدين بدأ في التسلل لنا مع العائدين من سنوات العمل بالخليج، ثم تحوَّل لتيار عاتٍ له شيوخه ومدارسه ومساجده وقنواته التليفزيونية، في وقت تعاني فيه المؤسسة الدينية المصرية التهميش عن المعركة الحقيقية للمجتمع المصري، وتعاني فيه البنية الاجتماعية المصرية اختلال التوازن الاجتماعي بين الطبقات وضبابية المعايير الأخلاقية واهتزاز صورة العدالة في أعين الناس..

أمر كهذا يدفعنا لأن ننتبه إلى أن التعامل مع تسلل تلك القيم الدينية والاجتماعية السلبية لنا لا يتوقَّف عند حدودنا، بل يمتد إلى أن نضع المجتمع المصدِّر تحت أعيننا، ونفهم ما يجري فيه وكيف تُنتَج فيه تلك "الواردات"؛ لنتمكن من التعامل مع خطر وصولها لنا.

ختام الجزء الثالث:

هذا عن الخليج... ولا يمكننا الحديث عن الخليج دون ذكر العراق، فبالرغم من انتمائه جغرافيًا للهلال الخصيب والشام، فإنه يرتبط عمليًا بشكل أكبر بالشأن الخليجي...

فإلى العراق إذن...



مصادر المعلومات:

1 – الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق: محمد حسنين هيكل.

2 – مدافع آية الله: محمد حسنين هيكل.

3 – خريف الغضب: محمد حسنين هيكل.

4 – الخليج المكشوف: محمد حسنين هيكل.

5 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: د.عبد الوهاب المسيري.

6 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د.جلال أمين.

7 – المسلمون وأوروبا: د.قاسم عبده قاسم.

8 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

9 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

10 – تاريخ تطوّر حدود مصر الشرقية: د.ألفت الخشاب.

11 – ماذا حدث للمصريين: د.جلال أمين.

12 – عصر الجماهير الغفيرة: د.جلال أمين.

13 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.

14 – أمريكا والعالم: د.رأفت الشيخ.

15 – البروج المشيدة: لورانس رايت.

16 – بلاك ووتر: جيرمي سكيل.

17 – العولمة: د.جلال أمين.

18 – اختلال العالم: أمين معلوف.

19 – إيران وولاية الفقيه: مصطفى اللباد.

20 – نظرية الواحد بالمائة: رون سسكند.

21 – دعاة يحكمون عقول المصريين: محمد فتحي.



(٥)

"الأوطان المؤسِّسة للنظام العربي ثلاثة بالتحديد؛ هي: مصر، وسوريا، والعراق، ومعنى احتلال أمريكا للعراق أن المثلث المؤسِّس للنظام العربي فَقَد أحد أضلاعه الرئيسية، وانفكَّ تماسكه. مع اعتبار أن الأوطان أهم من النظم الحاكمة؛ فالأوطان على نحو ما أشبه ما تكون بحاملات الطائرات العملاقة، وأما النظم فمجرد حمولات يتصادف وجودها على السطح لحظة عابرة، وليس مهمًا أن تصاب إحدى الطائرات بالعطب، وإنما الكارثة أن تغرق الحاملة!".

(محمد حسنين هيكل - كتاب: الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق).

عراق اليوم قد يكون مصر الغد

ثمة بديهيّات دعونا نعترف بها في بداية حديثنا: أولها أن دوام الحال من المحال، وثانيها أن من أهم ركائز عالم السياسة إدراك ممارسيها أهمية التغير والتلون وقت اللزوم، وثالثها أن المصالح -والمصالح فقط- هي ما تحكم العلاقات الدولية في عالم اليوم، ورابعها أن الأصل في العلاقات الدولية هو الصراع والتنافس، مما يجعل سياسات الوفاق مجرد جمل اعتراضية، قد تطول أو تقصر، لكنها لا تمثِّل الأصل ولا القاعدة!.

بناء على كل ما سَبق، فإننا حين نسمع أصواتًا تقول إن ما جرى أمس للعراق قد يحدث غدًا لمصر، فإن علينا أن نضع ذلك القول في الاعتبار، وأن لا نغترَّ بصداقتنا



لأمريكا ولا فتور علاقاتنا مع خصومها الحاليين مثل سوريا وإيران؛ فالعراق الذي لم تكد القوات القتالية الأمريكية تغادر أراضيه، كان منذ عقود يتلقى دعمه العسكري من واشنطن خلال حربه مع إيران!.

هذا يعني أن العراق يمثل لأمننا القومي المصري أهمية أكبر من كونه بوابة العالم العربي مع العالم غير العربي (إيران وتركيا)، فهو بمثابة مرآة لما قد يكون مصيرنا يومًا -لا قدّر الله!- وعلينا إن أردنا تفادي مصيره أن نتعامل بجدية مع المتغيرات على ساحته!، ربما يسأل البعض "كيف يكون تفاعلنا؟ وماذا نستطيع أن نفعل؟"، أقول: إن مجرد مراقبة ما يجري هناك واتخاذه عبرة والسعي الجدّي لخلق عوامل إنقاذ مصر من ذات المصير يومًا ما، هو أمر كبير يحتاج إلى مجهود وطني ضخم!.

التجربة العراقية و"أخر خدمة الغز"

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، قامت أمريكا بتقسيم قواتها العاملة خارج حدودها إلى قيادات إقليمية، أهمها القيادة المركزية المتواجدة بالشرق الأوسط. لماذا هي الأهم؟ ببساطة لأن الشرق الأوسط بثرواته الطبيعية -بالذات البترول- وبموقعه المسيطر على أربعة ممرات بحرية هامة (قناة السويس، ومضائق: هرمز، وجبل طارق، وباب المندب) يمثّل لأمريكا دُرة تاج إمبراطوريتها.

كان نظام العراق خادمًا مطيعًا في الحرب ضد النظام الإيراني الخميني المغضوب عليه أمريكيًا، كان النظام العراقي يدفع بخيرة شبابه لنار الحرب العراقية الإيرانية، مسلحًا بالسلاح الأمريكي، أي أنه ببساطة كان يخوض حربًا أمريكية حرص الأمريكيون فيها على حقن الدم الأمريكي، ما دام هناك متبرع عربي قَبِل أن يضحي بدمه هو (وقد كان الغرض من ذلك التشجيع الأمريكي هو دفع العراق لمغامرة حربية يهدر فيها تسليحه وقوته بحيث لا يعود يمثّل خطرًا على إسرائيل.. والمثير أن تلك الأخيرة كانت لها يد قوية في تسليح إيران بشكل غير مباشر!).

ولسوء حظ نظام صدّام وصل لإدارة الحكم الأمريكي من يرون أن مصلحة الولايات المتحدة في تلك المنطقة تقتضي تغيير اللاعبين على الساحة العراقية، وتمهيد العراق للوجود الأمريكي المباشر، بعدما أصبح أداء النظام العراقي غير مُرْضٍ، فأصبح

من الضروري استبداله بنظام جديد يجيد تنفيذ الأوامر... وهكذا جاء حصار العراق وتجويعه ثم توجيه الضربة القاضية له بعد أن أصبح أضعف من جناح بعوضة، وبعد أن قام العم سام بتنظيم "ضيعته" الخاصة، بدأنا نسمع الوعود بسحب القوات الأمريكية من العراق. وهكذا انطبق على العراق ذلك المثل الشعبي المصري "آخر خدمة الغُزّ... علقة!"، فما الذي يمنع أن يكون هذا مصيرنا يومًا؟

الثور الأسود

معظمنا يعرف قصة الثيران الثلاثة، ولكن دعوني أقصها عليكم... كان هناك ثلاثة ثيران إخوة، الأبيض والأحمر والأسود، وكان الأبيض كبيرهم، وأراد الذئب افتراسهم، ولكنهم كانوا قوة لا يُستهان بها، فبدأ يقترب من الثور الأسود وأقنعه أن يعينه على التهام الثور الأبيض ليصبح هو الزعيم بدلا منه، فأعانه الأسود عليه ونجح الذئب في التهامه، ثم أقنع الذئب الثور الأسود أن يعينه على أخيه الأحمر ليخلو له الجو، وتكررت نفس القصة، وعندما أصبح الثور الأسود وحيدًا انقضَّ عليه الذئب، وكانت آخر كلمات الثور الأسود هي: لقد أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض..

القصة تعبِّر بشكل شبه كامل عما جرى، فمثلث القوة العربي: العراق وسوريا ومصر، تم كسر أحد أضلاعه بغزو العراق، والآن يجري التحرُّش بسوريا واستفزازها وإبعاد مصر عنها، والحقيقة أن مصر منذ فترة طويلة معزولة عن ساحتها القديمة... مما يعني أن المثلث المذكور قد أصبح كأعجاز النخل الخاوية التي تنتظر أول نفخة رياح لتحيلها هشيمًا!.

ويمكنني القول بأن سقوط العراق كان بمثابة مسمار يُدَق في نعش الدور المصري الإقليمي وثقلها السياسي في المنطقة، فمصر قد فقدت مصداقيتها أمام العالم العربي بسماحها للمدمِّرات الأمريكية بالمرور من قناة السويس لضرب العراق؛ لأنها عندما شاركت بقواتها في حرب تحرير الكويت كانت تعلن أنها تفعل ذلك التزامًا منها بواجب الدفاع العربي المشترك عن أية دولة تتعرض لعدوان خارجي، في حين أنها لم تتخذ نفس الموقف مع غزو العراق!.

والمشكلة أنه بعزل مصر عن الساحة فإنها تخسر على مستويين:

مستوى معنوي يتمثل في أن الوطن يفقد روابطه بأشقائه ويفقد انتماءه إليهم،



ومستوى عملي يتمثل في أن البيت الأبيض يفكِّر بطريقة تجعله لا يتردد في إلحاق أي نظام بذلك العراقي السابق فور إدراك الإدارة الأمريكية أنه قد أصبح عبئًا عليها لا يحقق لها المكاسب المطلوبة، وأن هناك من يمكن أن يخدمها بشكل أفضل مما يفعل هو!.

ومن المعروف أن الدولة في عالمنا العربي ليست كيانًا منفصلًا عن النظام، بل بالعكس، ينطبق على لسان حال الحكام العرب قول "أنا الدولة والدولة أنا"، مما يعني أن سقوط هذا النظام أو ذاك نتيجة تدخل خارجي لن يكون مجرد إزاحة الملك من على رقعة الشطرنج، بل سيكون قلبًا للرقعة كلها وتدميرًا لها؛ لأن الملك قد تداخل كيانه مع كيان الرقعة وتمسمر فيها وضرب جذوره حتى أعمق الأعماق، حتى ليصعب انتزاعه دون خسائر فادحة تنذر بما جاء في عبارة الأستاذ هيكل في بداية المقال من "غرق حاملة الطائرات كلها".

لذلك فالمفروض أن تقرأ أي حكومة –بالذات في دولة بثقل مصر– ما بين السطور في المتغيرات، وأن تتعامل مع الواقع ببُعد نظر وافتراض لكل السيناريوهات.. فمتى يدرك الثور الأسود أنه ليس بعيدا عن اللحاق بمصير أخيه الأبيض لو لم يستدرك نفسه؟ (أتذكر هنا أنه منذ سنوات بعد أسْر صدام حسين بأيام قليلة عندما تم نشر صورةٍ له وهو يغسل ملابسه بيديه، انتشرت نكتة تقول إن الزعماء العرب قد بدؤوا في تعلُّم غسيل ملابسهم بأيديهم؛ تحسبًا لأية مستجدَّات).

أجراس الخطر

بعكس ما يحسب البعض يوجد بين مجتمعنا ومجتمع العراق الكثير من العوامل المشتركة التي تنذر بمصير مشابه لو لم نتعلم من مأساته.. لدينا عوامل القمع والقهر والديكتاتورية والطغيان، ولدينا الغاضبون من مختلف فئات الشعب، ولدينا أصحاب الميول الانفصالية رغم قلَّتهم، بالتزامن مع أصوات خارجية تنادي بتقسيم مصر لأربع دول: قبطية، ومسلمة، ونوبية، وسيناوية!، ونحن نعاني عزلة عربية تكاد تقترب من عزلة العراق عشية غزوه. والخلاصة أن خدمة الأمن القومي لا تقتصر على وجود "وقائع يمكن التدخل فيها" بل هي تشمل "وقائع ينبغي التعلم منها"، والاعتبار للمستقبل.

ولنترك الآن درس العراق... لنتوجه ببصرنا نحو الجنوب... تحديدًا نحو السودان...



مصادر المعلومات:

1 – الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق: محمد حسنين هيكل.

2 – مدافع آية الله: محمد حسنين هيكل.

3 – أمريكا والعالم: د.رأفت الشيخ.

4 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

5 – تاريخ تطور حدود مصر الشرقية: د.ألفت الخشاب.

6 – نظرية الواحد في المائة: رون سسكند.

7 – عولمة القهر: د.جلال أمين.

8 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.

9 – الرئيس البديل: د.عبد الحليم قنديل.

(٦)

"أضاعوني وأي فتًى أضاعوا.. ليوم كَريهة وسداد ثَغرِ"

لا أدري لماذا يقفز ذلك البيت إلى ذهني كلما ذُكر السودان أمامي؛ ربما لأنه ينطبق بشدة على حاله مع مصر، والعرب عمومًا. فالسودان كقائل البيت؛ فتى أضاعه أهله، وكان أجدر بهم أن يدّخروه ليوم كريهة (حرب) وسداد ثغر (حماية الحدود).. السودان الذي قيلت عنه عبارة مؤلمة هي أنه بدلًا من أن يختار أن يكون أفضل الأفارقة اختار أن يُصبح أسوأ العرب.

وإن كان من مسئول أول عن السودان وما يجري فيه فهو مصر؛ لأسباب كثيرة جغرافية وتاريخية وسياسية.

بوابة مصر الجنوبية

إذا كانت حدود الأمن القومي المصري تمتد لمنابع النيل؛ فالسودان يمثّل أحد أهم مناطق الأمن القومي لمصر، والبوابة الجنوبية لها، ومدخل النيل إليها، أي أن مَن يسيطر عليه يكون كمن أمسك مصر بعنقها، بكل ما في هذا التعبير من معانٍ.

هذا واقع أدركه المحنّكون من حُكام مصر عبر التاريخ، من الفراعنة الذين حرصوا على التوغّل جنوبًا بمحاذاة النيل لتأمين شريان الحياة الرئيسي لمصر، مرورًا بمختلف الولاة العرب الذين حرصوا على مدّ نفوذهم للجنوب، والمماليك الذين مشوا على



نهج أسلافهم، وانتهاءً بأشهر حُكام العصر الحديث كمحمد علي باشا الذي قام بتدعيم الجناح الجنوبي لمصر، وحفيده "إسماعيل" الذي أكمل عمل جدِّه العظيم، والملك فاروق الذي دخلت مصر في عهده في نزاع دولي مع بريطانيا على السودان أمام الأمم المتحدة، فتلك البقعة من الأرض ليست مجرد دولة مجاورة، بل منطقة حسَّاسة في نطاق أمننا القومي... ولكن للأسف لا يبدو أن تلك الإشارة قد تم التقاطها بشكل سليم... وإليكم الأسباب...

عناصر القوة المُهدرة

على حدودنا الجنوبية بلد تربطنا به أقدم علاقة ربطت مصر يومًا ببقعة من الأرض، وشعب هو مِن الأكثر والأقدم امتزاجًا من الناحيتين التاريخية والعرقية بالشعب المصري، ودولة كانت الوحيدة التي لم تقاطعنا خلال فترة المقاطعة العربية لمصر بعد إبرامها معاهدة "كامب ديفيد"، ومنطقة جغرافية طالما كانت جبهتنا الجنوبية لحماية مصالحنا في الجناح الإفريقي من الوطن العربي، وكانت سواحلها على البحر الأحمر بمثابة نقاط مراقبة تؤمِّن سواحلنا على نفس البحر...

وهو بلد تمر به أهم مراحل نيلنا، ويعتبر البوابة بين إفريقيا العربية وتلك غير العربية، وثقافته امتداد لثقافتنا، وشماله ممتزج بشكل شبه كامل ثقافيًا ودينيًا واجتماعيًا وجغرافيًا وبيئيًا مع جنوبنا، بشكل يجعل الحدود السياسية بيننا وبينه كأنها غير موجودة...

بلد بهذه الصفات، كيف يمكن أن نتركه كاليتيم على موائد اللئام، فتقصفه أمريكا تارة، وتحاصره بالعقوبات تارة أخرى، وتغِير إسرائيل على قافلة عابرة به؛ بحجة أنها تحمل أسلحة موجَّهة لفلسطين، وتعبث الدول الغربية بوحدة شماله مع جنوبه؛ بحجة رغبة هذا الجنوب في الاستقلال، وحتى تشاد تنتهك حدوده معها، هذا فضلًا عن المجاعات التي تجتاحه، والكوارث التي تداهمه، وكل ما يناله منا تعامل بفوقية وتعالٍ كأنه متسوِّل يطلب إحسانًا، لا شقيق له علينا حق معلوم، وبلد طالما خدمنا دون أن يشكُو له علينا حق الاحترام وصون الجميل (عفوًا لقسوة التعبير، ولكن دعونا نسمي الأمور بأسمائها).

وثمة جريمة أخرى لا تقلُّ فداحة أصبحت تُرتَكَب اليوم، وهي هدم ما للسودان من مكانة تاريخية عند المصريين، بإهمال تدريس ما يتعلَّق بروابطه التاريخية بمصر، وترك



صورة نمطية سخيفة تُخلَق عنه لدى عوام المصريين –وتؤكِّدها أحيانًا وسائل الإعلام– من أنه بلد مدمَّر تسوده الفوضى وأهله كسالى سُذَّج ضعاف الثقافة، وإظهاره على أنه "عبء تتفضَّل مصر وتتحمّله عن طيب خاطر"، وأن مصلحتها قد تقتضي التخلّي عنه للمجتمع الدولي؛ لتتفرَّغ مصر لمشاكلها الخاصة! أين ذهبت أبحاث وجهود ونداءات هؤلاء؟!! الله أعلم!

الغزو من الجنوب

معظم محاولات غزو مصر كانت تأتي إما من الشرق (الفُرس – اليونان – العرب – العثمانيين) أو من الشمال (الرومان – الصليبيين – الفرنسيين – الإنجليز)، ولكن هذا لا يعني أن نعتبر جبهتنا الجنوبية منطقة آمنة لا خطر منها؛ فالتاريخ المصري الحديث شهد محاولتين لغزو مصر من الجنوب؛ الأولى كانت خلال الثورة المهدية في السودان في القرن التاسع عشر، حيث كانت خُطة قائدها "المهدي" تعتمد على إقامة دولته في السودان ثم غزو مصر من الجنوب؛ لتوحيدهما تحت رايته، ونشر مذهبه الديني – السياسي فيها... نفس الفكرة راودت الدكتور "حسن الترابي" بعد الانقلاب الذي قاده مع رفيقه السابق عمر البشير سنة 1989؛ حيث استقدم أسامة بن لادن ورجاله إلى السودان، وآوى التنظيمات الإرهابية المصرية الهاربة، وقدَّم لهم الدعم سعيًا منه لقلب نظام الحكم في مصر؛ لإقامة النظام الإسلامي الذي يحلم به!، صحيح أن المخابرات المصرية نجحت في فصل تلك العلاقة بشكل باتر، ولكن ألم يكن الأدعى من البداية ألا نتخلّى عن السودان بذلك الشكل الذي جعله يومًا يؤوي أعداءنا؟ ألم تكن الوقاية من البداية خير من العلاج، ولو كان قويًّا سريعًا؟

واليوم، تُخلَق دولة وظيفية في السودان من خلال فصل جنوبه، وتحويله لدولة خادمة تلعب دور مخلب القط لأمريكا وإسرائيل، وبهذا الشكل تصبح مصر مطوَّقة بما يشبه الكماشة، فمن الشمال إسرائيل تفصل بين مصر ودائرتها الآسيوية، وفي الجنوب دولة في جنوب السودان تفصل بين مصر والسودان ومصالحهما في حوض النيل وإفريقيا بشكل عام.



الانفصال.. جملة اعتراضية في مسار التاريخ

هذا البلد كان يومًا ما جنوبنا، حتى تم بتره بجراحة دامية مؤلمة سنة 1956 بحجة "إعطاء الشعوب حق تقرير المصير"، رغم أن هذا المبدأ ينطبق على البلدان المحتلة لا على الشعوب المتحدة.. مجرد التفكير في أن السودان "شعب آخر غريب عنا يجب أن نعطيه حريته" هو خطأ فادح، ومخالفة لواقع تاريخي عمره آلاف السنين! والكوميديا السوداء أن نفصل بالأمس بيننا وبين بلد ارتبطنا به عشرات القرون، ثم نسعى في الغد للاتحاد ببلد تفصلنا عنه أميال ولا تربطنا به نفس الرابطة الزمنية (سوريا).

حتى الآن أحاول أن أفهم كيف كان يُفكِّر مَن نادوا بفصل السودان عن مصر!! ومن تمادوا بعد ذلك في نبذه وإقصائه عن خريطة المصالح المصرية، ومع احترامي لكل الآراء إلا أني في تلك النقطة بالذات أرجعتُ عجزي عن الفهم ليس لقصور معلوماتي أو خبرتي، بل لتعارض تعامل هؤلاء مع الواقع التاريخي للعلاقة بين البلدين، ذلك الواقع الذي يقول إن الارتباط هو الأصل والانفصال يبقى –رغم طول فترته– مجرد جملة اعتراضية في مسار التاريخ!.

السودان الآن هو الاختبار الأخير لكفاءة مصر في حماية أمنها القومي.. فهل تنجح فيه أم لا يبقى أمامنا سوى البكاء على اللبن المسكوب؟!! وأن نقول لأحفادنا غدًا "كان لدينا قديمًا نهر اسمه النيل"، كما يقول لنا أجدادنا اليوم "كان لنا أمس امتداد اسمه السودان"!، وأن ندعو الله أن يزيح عنا الغمة ويجعل لنا فَرَجًا.



مصادر المعلومات:

1 – السودان وأهل السودان: يوسف الشريف.

2 – شخصية مصر: جمال حمدان.

3 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

4 – القاعدة وأخواتها: كميل الطويل.

5 – البروج المشيدة: لورانس رايت.

6 – أسامة: جوناثان راندل.

7 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

8 – جواسيس بجدعون: جوردون توماس.

9 – وقائع اغتيال حكام مصر بين الفشل والنجاح: حنفي المحلاوي.

10 – الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة (سياحت نامه): أوليا جلبي.

11 – وصف إفريقيا: ليون الإفريقي.

12 – هجرة القبائل العربية إلى مصر والسودان: ضرار صالح ضرار.

13 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون لويس إسبوزيتو.

14 – فاروق من الميلاد إلى الرحيل: د.لطيفة سالم.

15 – محمد علي وأولاده: د.جمال بدوي.



(٧)

بالملاحظة، ندرك أن كل جسم يخلو من محتواه يحلُّ محل ذلك المحتوى شيء بديل؛ فالزجاجة التي تُفرَغ من مائها يدخل إليها الهواء بدلا منه، والعكس صحيح...

هذا المثال ينطبق أحيانًا على الساحة الدولية؛ فالمساحة التي يشغلها الدور المصري في المنطقة العربية لو خلت فإن هذا سيعني بالضرورة تسلل عنصر/ دولة أخرى لشغل نفس المساحة، والله أعلم ماذا قد تكون أجندة ومخططات تلك الدولة.

الشرق الأوسط... الأورومتوسط... أشياء من هذا القبيل

هذا عن الشِقِّ الاحتمالي لتخلي مصر عن دورها العربي، أما الشِق المؤكد فهو وجود خطة قوية تسير على خطى ثابتة لتغيير خريطة المنطقة وانتماءات عناصرها، فتعبير "الشرق الأوسط" وُلِدَ من الأساس لخدمة هذا التغيير؛ فبعد أن كانت منطقتنا توصف بـ"العربية" أصبحت تحمل اسم "الشرق الأوسط"، فتم بذلك فصل الأجنحة الغرب إفريقية من التصنيف، وإدخال دول غير عربية فيه، مثل إيران وتركيا وقبرص وإسرائيل التي تم ذلك التغيير لأجل دمجها قسرًا في البُعد الجغرافي للبلاد العربية.

كذلك تم خلق كيانات إقليمية تخدم نفس الغرض، كالمنظمات الدولية المصنفة على أنها "أورومتوسطية" (أوروبا + البحر المتوسط) أو شرق أوسطية... إلخ. تلك المنظمات تعمل في مختلف المجالات الأساسية لأي مجتمع: الثقافة، السياسة، التجارة، التعليم، الصحة... إلخ. وتلَوِّح بخدمات ومزايا مغرية لأعضائها، وفي نفس الوقت تسعى لاحتكار الاتصال الإنساني والتبادل النفعي؛ بحيث تفرض حالة من العزلة الجزئية أو



الكلية على الدولة التي تُحجم عن الانضمام إليها... وبالطبع فإن إسرائيل عضو أساسي في مثل تلك المنظمات؛ باعتبارها دولة شرق أوسطية، أورومتوسطية!

تمزيق الذات

والكارثة أن الدول العربية –وعلى رأسها مصر مع الأسف– فعلت نفس الأمر فيما بينها، فكثرت المعاهدات والمنظمات الإقليمية الداخلية على حساب الجامعة العربية التي "يُفتَرَض" أنها الجامعة الأم للعرب، فأصبح للخليج مجلس التعاون الخليجي، ودرع الجزيرة "منظومة دفاعية"، وانزوت دول غرب إفريقيا في إقليميَّتها، وجرت محاولة لذلك في الشام عطّلتها الخلافات بين أنظمة الحكم، وجرت تجربة قصيرة العمر لمجلس تعاون عربي مصغّر سرعان ما انهار على إثر احتلال العراق –أحد مؤسسي هذا المجلس– لدولة الكويت!

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لا يتم أولًا وقبل كل شيء إصلاح الجامعة العربية– شكلًا ومضمونًا– أو حتى إيجاد بديل عنها لو كان الإصلاح غير ممكن، ولا بأس بالتعاون الإقليمي بعد ذلك، ولكن بعد إصلاح ما قالوا لنا إنه "بيت العرب".

وأعتقد أني في غير حاجة للحديث عن حالة التفرق والتشرذم العربية، فقد بلغت مرحلة مأساوية جعلت الحديث عنها أشبه بوصف الماء بالماء "وكأننا والماء من حولنا... قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ"!

والسؤال هو: أين مصر من كل ذلك؟

لعبة القَصّ واللّصق السياسي

مع الأسف مصر كانت –وما زالت– لفترة طويلة جدًا جزءًا من لعبة "القصّ واللصق" التي تُمارَس في حق العرب. منذ اتفاق الدول الأوروبية في نهايات القرن التاسع عشر على تقاسُم تركة الدولة العثمانية المُحتَضرة، وحتى اتفاقية "سايكس – بيكو" بين فرنسا وبريطانيا التي تم بموجبها تقسيم الشام والعراق بينهما، ومن قبلها اتفاقية الوفاق بين الدولتين؛ بحيث تُطلق فرنسا يد بريطانيا في مصر مقابل أن تُطلق بريطانيا يد فرنسا في المغرب!



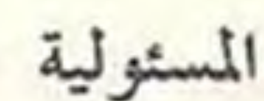
وبعد انقلاب يوليو 1952 واستيلاء ضباط الجيش على الحكم، تم بتر السودان من مصر، ولكن هذا لا يمنع أن نظام عبد الناصر نجح في إقامة روابط عربية متينة وجبهة عربية قوية، رغم حالة العداء التي واجهت النظام الجمهوري المصري من بعض الأنظمة العربية الملكية!

وفي نهايات عهد الرئيس السادات تم هدم هذه الجبهة من جانبين: المصري الذي انفصل بموقفه من إسرائيل (كامب ديفيد – الاعتراف بإسرائيل) عن الموقف العربي الموحَّد الرافض للكيان الصهيوني، والعربي الذي رفض تفهُّم الموقف المصري أو التفاعل معه بذكاء ومرونة. وفي النصف الأول من عهد الرئيس مبارك تمَّت إعادة العلاقات، ولكن -مع الأسف- انحدر مستوى الأداء السياسي المصري لحدِّ تضرر العلاقات مع حليف قديم -سوريا- وضعف وترنَّح دورنا كراعٍ للقضية الفلسطينية، واحتلال دولة تقلُّ عنا كثيرًا من حيث الوزن السياسي -قطر- لدَورنا في التعامل القيادي مع الشئون اللبنانية والفلسطينية والعراقية!

ولأن مصر -كما يقول الأستاذ "هيكل"- يؤثِّر حالها في العرب، فإن مرضت مرضوا وإن صحَّت صحُّوا، فمع الأسف انعكس تدهور أحوالها على الدول العربية؛ مما خلق مزيدًا من التشرذم والتمزق، امتدا لا على مستوى العلاقات بين الدول العربية فحسب، بل بين الفرَق الداخلية لبعض هذه الدول كلبنان والعراق واليمن والسودان وفلسطين، وهي دولَ تقع في دائرة أمننا القومي، مما يهدد بانتقال العدوى إلى داخلنا المستعد حاليًا بالفعل لأن يتمزق!

والنتيجة؟ يستمر القصُّ واللصق؛ السودان على شفا التمزُّق، حركات انفصالية في اليمن، همسات عن خطة لخلق دولة كردية على حساب سوريا والعراق الذي ما زال حتى تلك اللحظة محتلًا، ومن يدري متى يأتي دورنا! هناك من يخلق الظروف لتصبح الاتحادات الشرق أوسطية والأورومتوسطية هي الحل، ولكنها تحتاج لفراغ تدسُّ نفسها فيه حتى توسِّع نطاقها، ذلك الفراغ لا يأتي إلا بمزيد من تمزُّق العرب، وتمزُّق العرب لا يأتي إلا بمزيد من قصر نظر الأنظمة في التعامل مع نطاقات أمنها القومي، وقصر النظر هذا مع الأسف أصبح يمتد للداخل المصري، فبعض مناطق مصر تُعامَل كأنها خارجها أو كأنها "مناطق خاضعة للاحتلال المصري" مثل سيناء والنوبة وأقاصي الصعيد! وهذه نتيجة طبيعية لتقصيرنا في حق نطاقات أمننا القومي حتى أصبحت تضيق حولنا، وتتسلل تبعات ذلك الإهمال مع ضيقها إلى داخل حدودنا السياسية!





المسئولية

قد يقول البعض: "وماذا تفعل مصر؟ ماذا بيد مصر لتفعله؟ وهل مصر هي المسئول الوحيد عن ما يحدث؟".

بالتأكيد مصر ليست المسئول الوحيد، ولكنها المسئول الأول؛ فثمة واقع يقول إن التمزق العربي والذي يتخذ في بعض الدول صورة تمزق داخلي، هو عدوى تنتقل من مكان لآخر داخل النطاق الجغرافي والسياسي والثقافي الواحد، وهو جزء من خطة تشمل مصر بالتأكيد ما دام واقعها الجغرافي عربيًا، وواقعها الثقافي عربيًا، وواقعها السياسي عربيًا! وتأخُّر بلوغ مصر دورها لمجرد أن نظامها السياسي على وفاق –بشكل أو بآخر– مع النظم الراعية لذلك التمزق العام لا يعني أنها خارج الحِسبة؛ فالمسألة براجماتية (نفعية) بحتة لا مكان فيها للتوافقات الودية!

والواقع الآخر هو أن مصر هي الدولة العربية الوحيدة التي بلغت في العصر الحديث من القوة السياسية ما يسمح لها بالتدخل في أدقِّ وأعمق الشئون العربية –داخلية وخارجية– بما يخدم القضايا العربية عامة، منذ أن بدأ محمد علي باشا استعادة النطاق العربي الإفريقي لمصر، وحتى يومنا هذا لم توجد قوة عربية فاعلة بذات القوة المصرية، مما يخلق مسئوليتين إحداهما أدبية من مصر تجاه العرب، والأخرى عملية نفعية من مصر تجاه نفسها وأمنها!

الختــام

افتح كتب التاريخ وانظر...

تحتمس الثالث غزا فلسطين لأجل أمننا القومي، أحمد بن طولون بلغ سوريا لخدمة أمننا القومي، صلاح الدين حين دخل مصر سعى لمدِّ نفوذه لليمن لأجل تأمين جنوبنا، السلطان المملوكي برسباي غزا قبرص لتأمين سواحلنا الشمالية... محمد علي بلغ بجيشه أبواب الأستانة ليؤمِّن القاهرة، إسماعيل توغَّل جنوبًا لحماية نيلنا... عبد الناصر حارب في اليمن ليقي تجربة الجمهورية مؤامرات الملكيين... إلخ. أعتقد أن كل واحد من هؤلاء لو عاد للحياة وسألناه: "لماذا فعلتها؟" لاستنكر السؤال، ثم أجاب بتلقائية: "لأنها مسألة أمن قومي!".



مصادر المعلومات:

1 – الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق: محمد حسنين هيكل.

2 – اختلال العالم: أمين معلوف.

3 – لمصر لا لعبد الناصر: محمد حسنين هيكل.

4 – خريف الغضب: محمد حسنين هيكل.

5 – العروش والجيوش: محمد حسنين هيكل.

6 – المثقفون العرب وإسرائيل: د.جلال أمين.

7 – التنوير الزائف: د.جلال أمين.

8 – تاريخ تطور حدود مصر الشرقية: د.ألفت الخشاب.

9 – قبرص والحروب الصليبية: د.سعيد عاشور.

10 – تاريخ العرب الحديث: د.رأفت الشيخ.

11 – أمريكا والعالم: د.رأفت الشيخ.

12 – عصر سلاطين المماليك: د.قاسم عبده قاسم.

13 – محمد علي وأولاده: د.جمال بدوي.

14 – دولة الأيوبيين في مصر والشام: د.محمد سهيل طقوش.

15 – موسوعة مصر القديمة: سليم حسن.

16 – المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي باشا: د.محمد عبد الستار البدري.

17 – إبراهيم باشا في سوريا: سليمان أبو عز الدين.

18 – مصر والمصريين في عهد مبارك: د.جلال أمين.



إسلاموفوبيا!



(١)

"رأيتُ الخوف، الخوف الفظيع، ينبع ويتعاظم ويستشري... رأيته يتغلغل في العقول، حتى عقول أفراد أسرتي، حتى في عقلي، رأيته يطيح بالمنطق، يسحقه، يُهينه ثم يلتهمه".

(رواية "رحلة بالداسار" – أمين معلوف)

الخُرافة

لم أجد أقوى من تلك العبارة الفذَّة لأبدأ بها حديثي عن الإسلاموفوبيا –الخوف المَرَضي من الإسلام– الذي يمثِّل نتيجة طبيعية لمقولة معبِّرة أخرى تقول: "إذا ضعف العقل استسلم للخرافة!". والخرافة ليست فقط وصفًا نطلقه على قصص الغول والعنقاء وأعمال الشعوذة، فالمعنى الأصلي لكلمة "خرافة" يرجع لرجل من العرب –قبل الإسلام– كان يحمل هذا الاسم، وكان حديثه كله عن أمور مستحيلة التصديق عقلًا، فأصبح اسمه مرادفًا للامعقول، وصار الناس يقولون عن كل منافٍ للعقل السليم "هذا من حديث خرافة". إذن فـ"الخرافة" تعبير يمتد ليشمل كل مرفوضٍ عقلًا ومنطقًا في أي مجال كان!

والإسلاموفوبيا تعبير وُلِدَ في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، ونما في ثمانينياته وتسعينياته، ثم انتقل من بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 من خانة "التعبير" إلى خانة "الوباء المستشري"! فقد تحوّل الإسلام والمسلمون إلى متَّهمين مُدانين حتى

يثبت العكس؛ لأن بعض العباقرة -في الغرب تحديدًا- قرروا أن يريحوا عقولهم من عناء التفكير، ويضعوا في سلة واحدة كل المسلمين بتياراتهم المختلفة: السلفية المتشددة والوسطية المعتدلة، والعلمانية المتساهلة، السنية والشيعية، المتعصّبة والمتسامحة، المنفتحة والمنغلقة، حصيلة أكثر من 1400 عام مضت منذ ظهور الإسلام بكل ما تمخّضت عنه من تيارات واتجاهات، كلها تم وضعها في وعاء واحد مكتوب عليه "احترس موادّ ضارة"! واعتُبِرَت التحدي الجديد لـ"العالم الحر" دون محاولة فهم وتحليل الفوارق بينها! ولأن ذلك الدمج العبثي غير منطقي ولا علمي ولا معقول، فهو يندرج تحت بند "الخرافة" سالف الذكر، والاستسلام للخرافة هو أهم أعراض الفوبيا، مما يعني -ببساطة حسبة 1+1= 2 - أن الإسلاموفوبيا مرض ينبغي علاجه، وليس اتجاهًا ينبغي قبوله واحترام وجوده، وأي تفاعل مع أصحاب الاتجاه الإسلاموفوبيك ينبغي أن يكون من منطلق "علاج مرض" لا "تحاور مع اتجاه فكري عادي".

لقطات

ولأن المريض -أي مريض- ينبغي أن يتضمَّن ملفه الأعراض المشيرة لإصابته بهذا المرض أو ذاك، فمريضنا ليس استثناءً... فلنلقِ نظرة على بعض محتويات ملف المريض بالإسلاموفوبيا...

I- دراما:

رجل الأمن الأمريكي المحنَّك "جاك باور" ينطلق مسرعًا بالسيارة في إحدى المطاردات التي لا تنتهي في مسلسل الحركة "24"؛ حيث ليس أمامه سوى 24 ساعة للقبض على إرهابي ما اسمه غالبًا "سعيد" أو "عبدول" أو "مروان"، أو أي اسم عربي مسلم آخر، وإحباط مخططه التخريبي لتفجير قنبلة ما في مدينة ما، أو اغتيال شخصية أمريكية عامة! لا تهم الأسباب النفسية أو العملية لقيام هذا الرجل بالتآمر على أمن أمريكا، فهويته الدينية تكفي بالتأكيد ليكون إرهابيًا عتيدًا، الأمر الكفيل بإصابة علماء الإجرام بارتفاع ضغط الدم!

ملحوظة: أحد أبطال المسلسل قال مؤخرًا إن كثيرًا من المدارس الأمريكية أهملت

تدريس مادة الجغرافيا، وإن أغلب الأمريكيين لا يعرفون مكان إيران، ويحسبونه بلدًا كبيرًا يعيش فيه كل العرب!

II- أقوال:

"إن الدين الإسلامي دعا إلى العنف... وإن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا!".

(القس بات روبرتسون، أوسع قساوسة اليمين الديني نفوذًا في الإعلام الأمريكي)

"يتصوّر كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضِّرة، ودمويون وغير منطقيين!".

(الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون – من كتابه "الفرصة السانحة")

"إن الدين الإسلامي هو دين مُنحَطٌّ وشرير"!

(فرانك جراهام – المستشار الديني لجورج دبليو بوش)

III - Youtube:

فيديو موجود بالفعل على الموقع، مثَّله شابان أمريكيان، أحدهما يظهر في بدايته حاملًا كرته يلعب بها بمرح، وهو يقول بشكل طفولي: "أنا فتى أمريكي"، فيفاجئه الآخر وهو يرتدي لثامًا أسود، ويُمسك بسكين يمثِّل أنه يذبحه به وهو يصيح "الله أكبر"!.

IV- آمين!:

"عندما تركتني في المنزل وخرجت لصلاة الجمعة، أخذت أتابع الصلاة في التليفزيون، وعندما قال المصلون في آن واحد "آمين" شعرت بقشعريرة وأنا أفكر... كم عدد هؤلاء الذين يقولون "آمين" في تناغم واحد في هذا المسجد؟ وكم مسجد مثله في المدينة، بل في مصر كلها، وفي كل العالم، ماذا لو قرر هؤلاء الذين يقولون معًا "آمين" برغم كل خلافاتهم الجانبية أن يقوموا بعمل واحد معًا ضدنا؟! بالتأكيد شعرت بالخوف!".

أجبتها: "ولكنكِ قد علمتِ أننا لا ننوي لأحد شرًا، وأن ديننا يحرِّم العدوان".

قالت: "أنا واحدة فقط أعلم هذا، ماذا عن باقي بني بلدي؟".



(من حوار لي مع صديقة ألمانية متخصصة في علم ثقافات الشعوب أثناء زيارتها لمصر)

****

هذه اللقطات -وهي مجرد عيِّنات بسيطة- تُظهِر مدى عمق الإصابة بمرض الإسلاموفوبيا، ومدى اتساع دائرته، فلو كان وجوده مقصورًا على الطبقة الجاهلة المهمَّشة لكان الأمر بسيطًا، ولكن أن يكون منتشرًا لهذا الحد بين المثقفين ورجال الدين والإعلام وصنَّاع القرار والأكاديميين، فهذه كارثة! أن يُغفَل كل ما أضافه المسلمون للموروث الحضاري الإنساني خلال الحضارة الإسلامية العملاقة الممتدة تاريخيًّا منذ الفتوح الأولى للشام والعراق ومصر، وحتى انهيار دولة المسلمين في الأندلس، وألا يُنظَر من أعمال المسلمين إلا للإرهابيين والمتطرفين أمثال ابن لادن والظواهري، الذين لفظتهم مجتمعاتهم الإسلامية ذاتها، ويُصبِح هؤلاء المنحرفون عن روح الإسلام نماذج متبناة من الغرب للمسلمين بدلًا من أمثال ابن رشد وابن الهيثم والخوارزمي والفارابي، فهذه كارثة تعود بالإنسانية مئات السنين للخلف!

العلاج الخاطئ

الغرب إذن قرر أن يضع الإسلام والمسلمين في قفص الاتهام! والمؤلم أن تَفاعُل المسلمين مع هذا الظلم جاء مائعًا، فبدلًا من نفي التهمة بإباء وكرامة باعتبارها إهانة تستحق وقفة حازمة من موجِّهها، نفاجأ بحالة هيستيريا أصابت كثيرًا من المثقفين وصنَّاع القرار في المجتمعات الإسلامية، فيتهافتون على الذهاب للمدعين علينا (!!) ويكادون يبكون وهم يؤكدون أننا لسنا أهل دين يدعو للإرهاب والقتل والتخريب، وتحمل لغة نفيهم التهمة من استجداء الرضا الغربي عنا أكثر مما تحمل من رفض الإساءة بندية المفروض أن تصدر منا كأناس تقرُّ لهم القوانين الإنسانية بحقهم في أن يكون دينهم مصونًا من أية اتهامات مشينة! وأنا أجدني أتفق مع المفكر الكبير دكتور جلال أمين في إصراره على أن من يريد معرفتنا حقًّا أن يأتي هو إلينا، لا أن نكون نحن دائمًا الواقفين على عتباته! فالقوانين كلها تقول إن البيِّنة دائمًا على من ادَّعى! وأن على من يتهم أحدًا بشيء أن يذهب هو إليه ويواجهه بتهمته، لا أن يُطلق الاتهام ويطلب من المُدَّعَى عليه أن يقف على بابه وبيده أدلة براءته!



علاج خاطئ ومنافٍ لتاريخ أسلافنا العظام -الذين نتمسّح فيهم دومًا- في رد هذه الاتهامات لنا ولديننا؛ فالإسلام كان دومًا متهمًا من الغرب بالهمجية والوحشية والبربرية، منذ أطلق البابا أوربان الثاني النداء الأول لخروج الحملات الصليبية تحت شعار "الله يريدها"، وهو ينشر في كل أنحاء أوروبا الكاثوليكية أخبارًا عن مذابح المسلمين أتباع "ماهوند" (اسم سخرية من محمد صلى الله عليه وسلم) بحق المسيحيين، وعن استخدام المسلمين الكنائس كاصطبلات لخيولهم، وانتهاكهم قبر المسيح، وقطعهم طرق الحجاج إلى بيت المقدس. بل وانتشرت رواية غريبة تقول إن النبي محمد كان بطريركًا كاثوليكيًا يطمع في انتخابه كبابا للمسيحيين، ولكنهم اختاروا غيره فهاجر إلى الجزيرة واختلق لنفسه دينًا جديدًا!! المسألة قديمة إذن، ولكننا لم نسمع قط على مر التاريخ عن أن المسلمين تهافتوا على أعتاب ملوك أوروبا متضرعين لهم أن لا يسيئوا الظن بهم!

من أول السطر

أعتقد أن من كلامي يبدو منهجي في تلك السلسلة، فأنا لن أحاول الحديث من منطلق دفع التهمة عن المسلمين، بقدر ما سأستعرض الظاهرة وأحاول تفسيرها وتصوُّر تباعتها... من منطلق اقتناعي الشديد أن في محتوى ثقافتنا الإسلامية ما يكفي لمن يريد حقًا معرفتنا، ولهذا علينا حق العون والتوجيه وتفسير الغامض من الأمور، فإن أساء فهمنا بعد ذلك عن تعصُّب أعمى أو إهمال في البحث، فلتكن هذه مشكلته هو، لا مشكلتنا نحن!

إذن... نقطة... ومن أوِّل السطر:

إسلاموفوبيا...



مصادر المعلومات:

1 – تاريخنا المفتَرَى عليه: د. يوسف القرضاوي.

2 – الإسلام في عيون غربية: د. محمد عمارة.

3 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

4 – المفترون: فهمي هويدي.

5 – ماهية الحملات الصليبية: د. قاسم عبده قاسم.

6 – الله ليس كذلك: د. زيجريد هونكه.

7 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

8 – لماذا تقتل يا زيد؟: د. يورجين تودينهوفر.

9 – الحملة الصليبية الأولى.. نصوص ووثائق: د. قاسم عبده قاسم.

10 – الخطر الإسلامي: جون ل. إسبوزيتو.



(٢)

"حتى في أحسن الظروف، عندما تكون العلاقات بيننا وبين الغرب علاقة وئام وصداقة، ما الذي يجعلني أبذل جهدًا إضافيًا لتحسين صورة الإسلام في الغرب، بعد كلِ ما كُتِبَ ونُشِرَ عن الإسلام في الغرب والشرق طوال القرون الماضية؟ ولماذا لا يأتي إليّ من يريد مزيدًا من العلم والفهم للإسلام بدلًا من أن أذهب أنا إليه؟".

د. جلال أمين - كتاب "عصر التشهير بالعرب والمسلمين"

المهرولون:

س: كم عمر الإسلام؟

ج: أكثر من 1400 سنة!

س: وكم كانت مساحة احتكاكه بالغرب؟

ج: شديدة الاتساع؛ فالتجارة العربية الأوروبية كانت تذرع البحر المتوسط ذهابًا وإيابًا محملة بالمنقولات وبعناصر الحضارة، والممتلكات العربية في أوروبا كانت ملاصقة لحدود فرنسا وإيطاليا ومطلة على بحر الشمال المؤدي لبريطانيا وألمانيا، وجامعات الأندلس كانت تفتح أبوابها للعرب وغيرهم. فضلًا عن الاحتكاك العسكري والسياسي طوال 800 سنة هي عمر الدولة العربية الكبرى.

س: كم من المفكِّرين الغربيين أتيحت له الفرصة للتعرُّف على الإسلام والحديث عنه



لبني وطنه بشكل منصف محايد؟

ج: كثيرون؛ وعلى رأسهم: المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه، والراهبة البريطانية الكاثوليكية كارين أرمسترونج، والمستشرق الفرنسي جوستاف لوبون، وأمير الشعراء الألمان جوته، والدبلوماسي الألماني د. مراد هوفمان، والبروفيسور الأمريكي هيو كينيدي، وغيرهم...

س: لماذا إذن يهرول البعض نحو الغرب في محاولات هلعة مثيرة للشفقة لتقديم الإسلام لهم، كأن الإسلام "ابن امبارح" وليس دينًا قديمًا له تاريخه الطويل في الاحتكاك بالآخر ومصادر التعرف به متوفرة جدًا لدى الآخر؟!

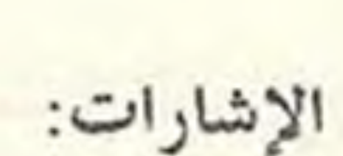
ج:......................

عندما يتعامل الطرف الجاهل بنا مع ديننا باعتباره دينًا "شريرًا منحطًا" -على حد تعبير أحد رجال اليمين المتطرّف الأمريكي- فإن من الحماقة أن نسايره في جهله بأن "نصدّق" الكذبة ونقدِّم له ديننا باعتباره دينًا جديدًا يحتاج لتعريف جديد. فليس من العدالةَ في شيء أن نتعرّض للسباب المدفوع بجرأة الجهل ثم نهرول لمن سبَّنا لنؤكد له أننا لسنا كما يظن بنا! أقصى ما للجاهل عندنا هو أن نوجهه للمصادر المتوفرة لتعديل مسار تفكيره، لكن تلك "الهرولة" تسيء لديننا أكثر مما تدفع الإساءة عنه.

صحيح أن الحوار مع الآخر مطلوب، ولكن في حدود النِّدية، أما ما يجري حاليًا فهو دونية بحتة، ولأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب ضده فإن الإفراط في الذهاب للآخر لمخاطبته هو نوع من التأكيد الضمني أننا نعترف بأن لدينا "تهمة ما" نريد إخفاءها.

إن الإسلام منذ نزول رسالته تعامل مع العالم بنِدِّية مطلقة، وتضمَّنت نصوصه وتطبيقاته -عبر التاريخ- أسباب الدفاع عنه، فعندما اتُّهِمَ الدين الجديد بأنه دين "يقطع الأرحام ويفرِّق بين الناس" كان التطبيق للنص المأمور به بصلة الرحم والترابط الإنساني ردًّا مفحمًا، وعندما صوَّر مهندسو الحملات الصليبية المسلم بأنه سفاح بربري لا يحترم المقدسات المسيحية كان الرد في التناقض المذهل بين تسامح صلاح الدين مع أسرى الصليبيين وجيوشهم المستسلمة ودموية ريتشارد قلب الأسد وقتله آلاف الأسرى في يوم واحد! بعض الأمور إذن أقوى من الحوار المنطوق والمكتوب، فالتصرُّفات تعلنها بشكل تلقائي.





الإشارات:

والغرب لا يعدم من يلتقطون تلك الإشارات البسيطة لرقي الإسلام، ولدي مثال بسيط: في الفيلم الأمريكي "مملكة الجنة" Kingdom of Heaven مشهد أخير لصلاح الدين وهو يتفقّد القدس بعد استردادها، ثم يدخل كنيسة متضررة من الحصار والقصف فيجد صليبًا ساقطًا فينحني ويعيده لمكانه. ما لا يعرفه الكثيرون هو أن المشهد لم يكن مكتوبًا بهذا الشكل، ولكن الفنان السوري "غسان مسعود" بينما كان يؤدي دور صلاح الدين ويقوم بتمثيل المشهد، وجد الصليب ساقطًا فانحنى بتلقائية وأعاده لمكانه باحترام، فقام المخرج "ريدلي سكوت" بترك المشهد كما هو، في إشارة واضحة لأنه قد وجده معبّرًا ببساطة شديدة عن روح الإسلام.

ربما يبدو ذلك المثال تافهًا، ولكنه بالعكس يعبر عن حقيقة أن المبادئ الإنسانية الراقية لا تحتاج لكثير من الشرح والتقديم وعرائض الدفاع، وتلك حكمة من الله عز وجل. ولعلنا لا ننسى قصصًا لأناس -في فجر الإسلام- قد أسلموا لمواقف بسيطة، كيهودي يسلم لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عاده في مرضه حين منعه ذلك المرض من إلقاء القاذورات -كعادته- في طريق النبي! أو كأسير من الأعداء بهره كرم جندي مسلم قدم له كسرة خبزه ليأكلها وصبر هو على الجوع. عبقرية ذلك الدين أن رسالته للآخر لا تتوقّف على كتابات ومؤتمرات ومنتديات حوار بقدر ما هي تستند إلى "المعاملة".

المفترون:

هذا العنوان الجانبي هو اسم كتاب للمفكّر الكبير فهمي هويدي يصف به بعض أبناء المجتمعات الإسلامية الذين يهاجمون من الإسلام جانب الشريعة -وليس العقيدة- باعتبارها حجر عثرة في طريق "التنوير" و"اللحاق بركاب الحضارة الذي سبقنا به الغرب". فهم يرون أن من الضروري أن "نتحرر" من "تلك القواعد البالية التي ترجع لأكثر من 1000 سنة"، ويعتبرون أن انتشار مظاهر التدين علامة "غير صحية".

وخير تحليل لموقف هؤلاء هو ما قاله الأستاذ فهمي هويدي من أنهم قد صُدموا من انتشار الإرهاب المنتسب للإسلام والمدفوع بالفهم الخاطئ للتدين، فرأوا أن خير وسيلة للقضاء عليه هي القضاء على التدين ذاته!

أما ما أضيفه من رأيي -وهو الرأي الشائع بين كثير من المراقبين لأحوال المجتمع

خلال العقود الثلاث الماضية– فهو أن نوعًا من التدين "المستورد" قد تسلسل لمصر مع العائدين من الخليج العربي، تدينًا جافًا لا يجيد التعامل مع الآخر ولا ترتيب أولويات البحث والتحقيق، وتغلب حميته الدينية تحكمه العقلي وحسن إدراكه للأمور، هذا التدين المغلوط كان أحد مصادر تغذية الإرهاب والتطرف، وكذلك كان يغذي – بنشاط– الخوف المرضي من الإسلام من قِبَل من لا يفهمون الإسلام الحق، أو أولئك الذين لا يريدون فهمه لأغراض في نفوسهم!

هؤلاء القوم –المفترون– ممن استوردوا الإسلاموفوبيا ودعموها باعتبار أن شهادتهم ضد بعض المكونات الهامة للإسلام هي شهادة "شاهد من أهلها"، فهم مسلمون مؤمنون بالعقيدة الإسلامية ومعظمهم يمارسون العبادات الإسلامية بالتزام، ولكن مشكلتهم تتلخَّص في تطبيق التشريعات الإسلامية، وفي التدين. المشكلة أنهم بموقفهم هذا يضيفون قوة لحجج المروجين للإسلاموفوبيا في العالم –الغرب تحديدًا– فضلًا عن أنهم لا يُقدِّمون تفسيرًا للواقع التالي "الإسلام كان النظام السائد –بشكل نسبي أحيانًا– في العالم القديم طوال حوالي 800 عامًا، فكيف توافق هذا مع إنشاء المسلمين أعظم وأرقى حضارة عرفها التاريخ؟" هذا فضلًا عن مخالفتهم حقيقة أن الشعوب الشرقية –مسلمة وغير مسلمة– يشغل الدين لديها حيِّزًا هامًا لا يمكن إغفاله أو تهميشه، احترامًا لطبائع وثقافات الشعوب.

ولكي لا أخرج عن الموضوع، أكتفي بأن أقول بأن هؤلاء "المفترون" على الإسلام يلعبون دورًا سلبيًا في حملة نشر الإسلاموفوبيا؛ حيث يُستَخدَم فكرهم كدليل على قول القائلين بخطورة الإسلام لذاته، وكذلك يدعمون دعوة البعض لـ"إصلاح الإسلام".

إسلام بعد التعديل:

"إن إسلامًا تجرى عليه عملية الإصلاح، لا يعود بعد ذلك إسلامًا."

(اللورد كرومر)

من أخطر دعاوى الإسلاموفوبيك –سواء عن اقتناع أو عن افتعال سعيًا لمصلحة– هي دعوى "إصلاح الإسلام". أي إخضاع المحتوى الإسلامي من شريعة وتاريخ وقرآن وسنة وآراء فقهية، لعملية "فلترة"! فيتم "حذف" آيات الجهاد من القرآن، وكذلك



الأحاديث الداعية إليه، و"ينقى" التاريخ من أخبار الحروب بين المسلمين والأوروبيين وأنباء الفتوحات العربية في مختلف بقاع الأرض، وسير المجاهدين وحركات المقاومة الإسلامية، وتُلغَى الآراء الفقهية الآمرة بمقاومة العدو عند اعتدائه على بلاد الإسلام.

الخلاصة أنها عملية "مسخ" للإسلام، تشبه دعم الاحتلال البريطاني في الهند -في بدايات القرن الماضي- للعقيدة "القاديانية" الداعية لعدم مقاومة الاحتلال بحجة أن ذلك "اعتراض على تسليط الله الحاكم على المحكوم". وهي عملية تتشح برداء "الدعوة للتسامح وتنقية الدين من المحتويات العدوانية"! فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نرى في المقابل من يدعو اليمين الديني الغربي المتطرّف للتخلّي عن أفكاره المعادية للإسلام أو للتيارات العلمانية؟ لماذا لا نسمع عن دعوة لـ"فلترة" التلمود مما فيه من العجب العجاب تجاه "الأغيار" (غير اليهود)؟ إن أمريكا وأوروبا بهما عشرات الجماعات والعصابات والتيارات المتطرفة في كافة الاتجاهات والطرق، أليس الأوْلى بهم أن يتعاملوا معها أولًا قبل أن يحاولوا التعامل مع دين عمره 1400 عام لم يكتشفوا سوى الآن أنه يحتوي على "مواد ضارة"؟!

إسلاموفوبيا...

هذا هو اسم الداء... فما هو الدواء؟



مصادر المعلومات:

1 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

2 – خرافة التقدُّم والتخلُّف: د. جلال أمين.

3 – المفترون: فهمي هويدي.

4 – إحقاق الحق: فهمي هويدي.

5 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

6 – لماذا تقتل يا زيد؟: د. يورجين تودينهوفر.

7 – وصف مصر في نهاية القرن العشرين: د. جلال أمين.

8 – إنجيليون في البيت الأبيض: مختار بن بركة.

9 – تاريخنا المفترى عليه: د. يوسف القرضاوي.

10 – الإسلام في عيون غربية: د. محمد عمارة.

11 – الفرق والجماعات الدينية: د. سعيد مراد.



(٣)

"كأنما خرج الإسلام فجأة من غياهب المجهول ليعلن عن وجوده! وكأنما لم يكن الإسلام دينًا وثقافة ونظامًا للقيم والأخلاق عاش على مدى أكثر من ألف وأربعمائة سنة بحساب البشر!!".

(د. قاسم عبده قاسم – من مقدمة ترجمته لكتاب "الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة" لجون ل. إسبوزيتو).

من ليس معنا... فهو ضدنا

هكذا أعلن جورج دبليو بوش في إعلانه الحرب على الإرهاب، بعد تعرُّض أمريكا لهجمات 11 من سبتمبر 2001... والحقيقة أن تلك العبارة المستفزَّة لم تضِف جديدًا للسياسة الأمريكية، فمنذ ما بعد الحرب العالمية الثانية كان هذا لسان حال العم سام مع دول العالم، فأمريكا التي ذاقت خمر القوة بعد خروجها منتصرة من الحرب سنة 1945، قد اعتبرت نفسها النمط المثالي للحضارة الإنسانية، فبدأت –بعد سقوط النازية– تبحث عن عدو جديد تمارس معه دور "الوكيل الوحيد الحصري للإنسانية" وتجاربه، فلم تجد كفئًا لها سوى الكتلة الشيوعية بزعامة الاتحاد السوفيتي السابق، وانجرّ العالم لحرب جديدة –باردة هذه المرة– وخرج الكاوبوي الأمريكي من حدوده أكثر من مرة لخوض غمارها في أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وآسيا، بدعوى الدفاع عن "الحرية والمُثُل العليا الإنسانية". بل وشهدت الولايات حربًا داخلية في بداية خمسينيات القرن الماضي،



قادها السيناتور جوزيف مكارثي ضد عدد ضخم من السياسيين والمثقفين مدمِّرًا حياتهم المهنية والعامة بدعوى "وجود اشتباه في تعاطفهم مع الشيوعية أو تعاونهم مع القوى المؤيدة لها"!.

وبعد سقوط العملاق السوفيتي وكتلته العاتية، بدأت أمريكا على حد قول المفكر اللبناني أمين معلوف في كتابه "اختلال العالم": "تخوض غمار مشروع هائل يُنهكها ويدفع بها إلى التيه: أن تروِّض بمفردها -أو تقريبًا بمفردها- كوكبًا يستحيل ترويضه!". والأمريكيون -لمن يلاحظ- لديهم ولع بأمرين: أن يكون لديهم بطل قومي (سوبرمان)، وأن يكون لهم عدو رقم واحد. وفي بداية التسعينيات، لم يكن أجدر من "الإسلام" بلعب دور هذا العدو المنشود... وهذه النقطة تجعلنا نطرح على أنفسنا سؤالًا هامًّا... لماذا أمريكا؟

لماذا أمريكا؟

لماذا أعطيتُ مثالًا بأمريكا فقط؟ ماذا عن أوروبا أو آسيا؟ الإجابة البسيطة المباشرة هي أن ثمة واقعًا لا جدال فيه أن أمريكا تضع سياسات وتوجهات العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم، وكل ما لدى سائر الدول القوية الأخرى هي "مساحة محدودة من حرية القرار" في النطاق الموضوع لها مسبقًا من الولايات المتحدة، زعيمة النظام العالمي. بدا ذلك بشدة منذ الدور الأمريكي في توجيه "الأمر" لبريطانيا وفرنسا بإنهاء عداونهما على مصر في 1956، وتدخلها في فيتنام، ومحاربتها الحركات الثورية في أمريكا اللاتينية، ورعايتها اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، وتواجدها الكثيف في الخليج بحجة "حمايته" من عدوان العراق خلال حكم صدام حسين... إلخ، واقتصر الدور الأوروبي على تقديم "الدعم" أو الاعتراض الهزيل غير المجدي على "بعض" التحركات الأمريكية... كل ذلك يُؤكِّد حقيقة تسمية بعض المفكرين لعصر ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى أيامنا هذه بـ"العصر الأمريكي"... إذن فلو بحثنا عن محرك آلات مصنع الـ"إسلاموفوبيا" الحالية فسنجد عليه عبارة "صُنِع في أمريكا"... ووصفي تلك الإسلاموفوبيا بـ"الحالية" سببه قِدَم ميلاد ذلك المرض الوبائي. فتعالوا ننظر...

قَصُّ الأثر

أحيانًا ينبغي على الباحث في التاريخ أن يلعب دور قصاص الأثر، فيتتبع الآثار الحديثة



حتى يعرف مصدرها القديم..

ولن نجد "حالة" نتتبعها أفضل ممَن يمكن تسميته بـ"باعث الحركة الإسلاموفوبية" وأعني به "جورج دبليو بوش"؛ حيث تحوَّل ذلك الداء في عهده من حالات فردية على شيء من الانتشار إلى "تيار حاد وعنيف وقوي الحضور"، وتزامن مع إعلانه الصريح عن أن حربه "حرب صليبية جديدة" يقودها بـ"توجيهات مباشرة له من الرب الذي –على حد قوله– يتحدَّث إليه!". لو نظرنا في التاريخ لوجدنا حالة "بوش" تتمثل في شخصيتين؛ الأولى: هي الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول –أول إمبراطور مسيحي– والثانية: في البابا أوربان الثاني –محرِّك أولى الحملات الصليبية. فالأول حاول استقطاب الجماهير المسيحية من خلال اعتناقه الدين المسيحي، وبدأ يلعب دور "رجل المسيح الأول"، ويدَّعي تلقيه "توجيهات إلهية" لكل صغيرة وكبيرة من خطواته، وبدأ يتدخَّل في شئون الكنيسة بما جعل سلطته في النهاية تتسع من إمبراطور دنيوي إلى راعٍ للدنيا والدين.

أما البابا أوربان الثاني، فقد أطلق نداء "الجهاد" الصليبي بدعوى حماية المسيحية والمسيحيين من "انتهاكات" المسلمين، فوضع قناعًا دينيًا على وجه الأطماع الاستعمارية الدنيوية، من رغبته في السيطرة الكاثوليكية على كنائس الشرق الأرثوذكسية، وسعيه لنقل أرض الصراع الدامي بين الأمراء المشاغبين إلى مكان بعيد عن أوروبا، ومحاولته توطيد سطوته على العامة من خلال ظهوره أمامهم مظهر من يحرِّك ملوك أوروبا بإشارة من يده لأجل حماية المثل العليا الإنسانية.

أما الخيط الذي يربط تلك الشخصيات الثلاث –قسطنطين وأوربان وبوش– فهو كالآتي: فقسطنطين هو أول إمبراطور روماني مسيحي، وأول من ربط السلطتين الدينية بالدنيوية في أوروبا المسيحية، أما البابا أوربان الثاني فقد كان يؤمن –كأسلافه منذ سقوط الدولة الرومانية– بأن البابوية هي الوريث الشرعي للسلطة الإمبراطورية في حماية المسيحية الحقة، وأما بوش الابن فهو من ناحية يعتبر نفسه بمثابة "نبي جديد للمسيحية"، ومن ناحية أخرى هو جزء من المنظومة الحاكمة الأمريكية التي اعتبرت نفسها –منذ تأسيس الدولة ذاتها– وريثًا للرومان، حتى أن الاسم الأول المقترح للعاصمة كان "روما الجديدة"، ولا يخفى على الملاحظ ما في التشابه بين نظامي الحكم الروماني والأمريكي، سواء من حيث الحياة النيابية أو السياسة الخارجية حتى أن ذلك التشابه موضوع لعشرات الدراسات الهامة. إذن فبوش جمع بين محاولة قسطنطين للعب دور "البطل المسيحي"،



واعتبار أوربان الثاني أن الإسلام هو "الخطر على المسيحية"، فأصبح يسعى لأن يكون "البطل المسيحي المناضل ضد الخطر الإسلامي على الحضارة المسيحية".

ولكن دعونا نتفق هنا على أن بوش الابن عبارة عن "حالة" تمثل تيارًا عامًا تختلف مكوناته النفسية والاجتماعية والفكرية، ولكنه الحالة الأبرز مؤخرًا، لكنها ليست الحالة "الأولى"، ولا "المنفردة".

نتيجة مؤسفة

النتيجة المؤلمة لارتداء تيار معاداة الإسلام رداء المسيحية تمثَّلت في تحوُّل الأمر للصورة المشوَّهة الآتية: الحضارة "المسيحية - اليهودية" ضد "الإسلام"، وبدلًا من أن يتم التعامل مع الإسلام باعتباره جزءًا من الخط المستقيم "اليهودية - المسيحية - الإسلام"؛ حيث يعبد أهل الديانات الثلاث نفس الإله، تم تصنيفه باعتباره "عقيدة وثنية دموية فوضوية" يختلف إلهها عن إله المسيحيين واليهود. وتحوَّل الأمر بالتالي من حرب بين أنصار فريقين متعارضين -بغض النظر عن عقائدهم- إلى حرب بين دينين... الأمر الذي ينافي المنطق والأخلاق، خاصة مع وجود نسبة ضخمة من غير المسلمين في المكوِّنات الرئيسية للمجتمعات الإسلامية، ونسبة ضخمة مماثلة من المسلمين في المجتمع الأمريكي والمجتمعات الحليفة له في تلك الحرب، مما يعني أن الأمر في حقيقته لا يخرج عن كونه حربًا للإنسانية ضد نفسها!

المقعد الشاغر

أعتقد جديًّا أن بداية ما أسماه دكتور جلال أمين "عصر التشهير بالعرب والمسلمين"- في كتابه الذي يحمل نفس الاسم- ليست مرتبطة بأحداث 11 من سبتمبر 2001 إلا من حيث التوقيت، لكنه -ذلك العصر- كان قادمًا في كل الأحوال. فقد كان مقعد "عدو الإنسانية" شاغرًا منذ سقوط الشيوعية، وكان لا بد من ملء فراغه بعدوٍّ مناسب، وكانت نفس الإجراءات العدوانية تنتظر المنتسبين أو المشكوك في انتسابهمْ لذلك العدو، من إجراءات تعسفية تمييزية، وملاحقة، وتشويه للصورة، واتهامات جزافية، أي أن الفترة المكارثية (نسبة لجوزيف مكارثي سالف الذكر) تكررت بحذافيرها، ولكنها اتسعت لتشمل دولًا ومؤسسات كاملة لا مجرد أفراد!



"اكتشاف" العدو

وبالفعل كما قال دكتور قاسم عبده قاسم في العبارة التي بدأتُ بها المقال "كأنما خرج الإسلام فجأة من غياهب المجهول"! فبعد قرون من وجوده في الحياة "اكتشف" العالم فجأة أن الإسلام دين دموي شرير، والأكثر اعتدالًا من الإسلاموفوبيين قسّم المسلمين إلى "مسلمين طيبين" و"مسلمين متعصبين إرهابيين"، صحيح أن التقسيم في حد ذاته موجود لا بين أتباع الإسلام وحدهم ولكن بين أتباع كل عقيدة ومبدأ، ولكن المشكلة تكمن في "أساس" التقسيم، فـ"الطيبون" هم من يوالون أمريكا، سواء كانوا نظمًا حاكمة أم أفرادًا، أما "الأشرار" فهم كل معارض للهيمنة الأمريكية على العالم، سواء اتخذوا لذلك طرقًا مشروعة، أم أساليب إرهابية يرفضها الإسلام نفسه!.

صحيح أن التاريخ شهد هجوم الكثيرين على الإسلام، ولكن أيامنا هذه تشهد "تكثيفًا" لهذا الهجوم بشكل يعطيه صورة الوباء. لقد قرّر البعض أن يمارسوا "العبقرية بأثر رجعي" فيكتشفوا بعد قرون من نزول الإسلام، وقيام علاقات سلمية وحربية بينه وبين مختلف الحضارات والبلدان، أن هذا الدين "شرير" وأتباعه "أعداء للإنسانية". ولا عقلانية هذا "الاكتشاف" تُؤكّد ما ذكرته في الجزء الماضي من أن الإسلاموفوبيا لا تخرج عن كونها "حالة مَرَضية" مخيفة!



مصادر المعلومات:

1 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

2 – اختلال العالم: أمين معلوف.

3 – التاريخ الوسيط: نورمان كانتور.

4 – الحملة الصليبية الأولى.. نصوص ووثائق تاريخية: د. قاسم عبده قاسم.

5 – الخطر الإسلامي.. خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

6 – إنجيليون في البيت الأبيض: مختار بن بركة.

7 – أمريكا والعالم: د. رأفت الشيخ.

8 – الإسلام في عيون غربية: د. محمد عمارة.

9 – المسلمون وأوروبا: د. قاسم عبده قاسم.

10 – لماذا تقتل يا زيد؟: د. يورجين تودينهوفر.

11 – تاريخنا المفترى عليه: د. يوسف القرضاوي.

12 – ماهية الحملات الصليبية: د. قاسم عبده قاسم.

13 – العالم البيزنطي: ج. م. هسي.

14 – الحرب الصليبية.. تواريخ حرب ظالمة: جيمس كارول.



(٤)

"حفنة من المنافقين... يملئون الدنيا صراخًا؛ لأن الباب انغلق على أصبع أمريكي، ثم يتركون شعبًا كاملًا كشعب البوسنة يُباد دون أن يُحرِّكوا أنملة!".

(د. أحمد خالد توفيق – رواية "الحريق" – سلسلة سافاري)

مثلما يوجد ذلك الإسلاموفوبيك مريض الفكر بحق، يوجد ذلك الذي يُدرك حقيقة أن الإسلام ليس اختصار الأخطار المحتشدة على الإنسانية، ولكنه مع ذلك يُغذّي الإسلاموفوبيا ويسعى لبقائها ونموِّها وتعاظم انتشارها وترسُّخها في الأذهان... نعم، فأحيانًا يكون بقاء المرض ضروريًّا لتتحقق مصالح البعض.

هل أبالغ لو قلت: إن سياسة العالم –الغربي بالتحديد– بها تيار قوي شبه سائد يرغب في بقاء الإسلاموفوبيا على الساحة؟ لماذا أقول "الغربي بالتحديد"؟ لأن الإسلام لم يكن –غالبًا– مشكلة ذات بال للدول غير الغربية، ولو وقعت بعض المشكلات بين جماعات بشرية مسلمة وبين النظم غير الإسلامية في الشرق أو إفريقيا –كما في الصين أو الهند مثلًا– فغالبًا ما لا يكون للإسلام دخل بالأمر بقدر ما يتعلّق الأمر بـ"العرق" ورغبة الدولة في السيطرة التامة على مساحتها السياسية. وفي المقابل، لم تكن التهديدات الشرقية للعالم الإسلامي –في التاريخ– كالتهديد المغولي، بنفس خطورة التهديدات الغربية، كالغزو الصليبي والحملات الاستعمارية؛ فالغزاة المغول سرعان ما اندمجوا في النسيج الإسلامي



وصاروا من حُماته ودعاته، بينما جاء الغرب من البداية بأجندة تستهدف الإسلام بشكل صريح ومباشر وواضح جدًا.

ولأن الدول كالبشر، فلها ذاكرة تتوارث المبادئ والأفكار، وتختار منها كل حين ما يلائمها ويناسب مخططاتها، والتاريخ يحتاج النظر فيه أحيانًا لنظرة الجيولوجي الذي يمسك بقطعة التربة أو كتلة الحجر ويشقُّها، وينظر لتراكماتها ومكوِّناتها التي تداخلت عبر التاريخ حتى تكوِن ذلك الشيء الذي يمسك به بقبضة يده... كذلك سياسة "الترويج للإسلاموفوبيا" تشكلت عبر تراكمات جيو – تاريخية، لو سمحتم لي بالتعبير. تعالوا ننظر ونتأمّل...

ذلك الشيء

من البداية، أدرك العالم أن بالمسلمين "شيئًا ما" يعطيهم قدرًا عاليًا من الترابط والتضامن وتناسق الأداء ووحدة الموقف، بغض النظر عما قد يكون بينهم من خلافات واختلافات وفواصل مادية جغرافية أو معنوية مذهبية وثقافية. ذلك "الشيء" هو ما جعل سيف الدولة الحمداني –الشيعي– يُدافع عن الخلافة السُنيّة في وجه التهديدات البيزنطية، وجعل نور الدين محمود زنكي –السُني التركي– يُرسل من الموصل وحلب جيشًا بقيادة أسد الدين شريكوه –الكردي– لنجدة الفاطميين الشيعة في مصر من هجوم الصليبيين، وهو نفس الشيء الذي دفع جيشًا من البربر بقيادة يوسف بن تاشفين –السلفي المتقشف– يعبر من المغرب للأندلس لنجدة ملوك الطوائف المترفين ضعيفي التديُّن، و لم ينسَ هذا القائد أن يرتدي في حربه السواد، اللون الرسمي للخلافة العباسية دون أن يتلقى أمرًا بذلك من الخليفة أو أن يكون لهذا الأخير سلطان فِعْلي عليه، فقط هو أحسَّ أن من واجبه إعلان انتمائه للصف الموحد خلف خليفة واحد، حتى لو لم تكن لهذا الأخير سوى سلطة اسمية.

نفس ذلك الشيء لعب دورًا في أزمان تالية في صد الغزوات الاستعمارية الغربية؛ حيث أخذت كثير من حركات المقاومة للغزو الصفة الدينية؛ كحركات مجابهة الحملات البرتغالية والإسبانية على المغرب العربي في العصور الوسطى المتأخِّرة، أو التصدي للحملة الفرنسية على مصر والشام، أو في العصر الحديث الذي ساهمت فيه تنظيمات إسلامية في مقاومة الاحتلال، كدور جماعة "الإخوان المسلمين" في مصر خلال الاستعمار البريطاني لها، أو منظمة "حماس" في فلسطين، وميليشيات "حزب الله" في لبنان، فضلًا عن



الحركات الفردية، كمساعي جمال الدين الأفغاني لنشر اليقظة بين المسلمين في الشرق.

ويمكننا أن نضيف لذلك الحركات التجديدية الساعية لخلق صحوة إسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع المضامين الفكرية لبعض تلك الحركات أو أساليب عملها، ونذكر منها الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، والمهدية في السودان، والسنوسية في ليبيا.

ذلك "الشيء" يمكننا أن نسمِّيه "الالتزام بوحدة الصف" أو "الشعور بالواجب نحو الأمة" أو "الحمية الدينية"، أيًا كان المُسمَّى، فقد أدرك المراقبون جميعًا أهميته كحائط صد لأية أطماع في السيطرة على بلاد المسلمين، مما يعني -بطبيعة الحال- أن على الخصم الذكي الطامح لتلك السيطرة أن يبدأ بهدم ذلك الحائط الصلب أولًا.

الرسالة

العنصر الثاني الهام في تكوين سياسة السعي لنشر الإسلاموفوبيا هو "رسالة الإسلام". فالقارئ المدقق لتاريخ الفتوحات الإسلامية يلاحظ بشدة الدور الإيجابي القوي لأهل البلدان المفتوحة في فتح الباب للمسلمين، ومساعدتهم على إقامة دولتهم. والسؤال هو: لماذا؟

الإجابة هي: أن تلك الشعوب تلقَّت "رسالة" المسلمين قبل أن تصل جيوشهم، فبينما هم يعانون وطأة الاحتلال من الروم في الشام ومصر، والفرس في العراق، والقوط في الأندلس، كانت تصلهم أنباء عن فاتحين جُدد يحاربون الظلم والاستعباد ويطردونهما في كل بلد يفتحونه، فتلقوهم باللهفة والتعاون والتحالف، وسرعان ما اندمجوا معهم وتزاوجوا منهم وأصبحوا -أهل تلك البلدان- من المكوِّنات الإنسانية الهامة لحضارة المسلمين، سواء اجتماعيًا أو ثقافيًا. سهولة شديدة في الاندماج لم تحدث منذ أيام الإسكندر الأكبر، ساعد عليها تشدد التعاليم الإسلامية في رفض الظلم وسوء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وكذلك نظرة المسلمين للعالم من زاويتين، واحدة دنيوية تراعي المتطلبات المادية للحياة، والأخرى دينية روحانية تعتني بشدة بالجانب المعنوي المثالي، فيتحقق التوازن بين المتطلبات المادية والمثاليات المعنوية، فلا تغرق في الروحانية والانعزال عن الواقع، ولا تندفع للمادية وسحق المعنويات.



تضارب المصالح

العنصران سالفا الذكر طالما تعارضا بشدة مع المساعي الاستعمارية للغرب للسيطرة على الشرق -والعالم عمومًا- فليس من مصلحة المستعمر أن تقف في وجهه حركة مقاومة شعبية، فما بالك لو فوجئ بتدفق المتضامنين من المسلمين من شتى أرجاء الأرض. كان هذا يعني ضرورة ضرب عنصر الوحدة بين المسلمين من خلال أسلحة عديدة أهمها تشويه "المقاومة المشروعة للمحتل" التي يقرُّها القانون الدولي وخلطها بالإرهاب المُجرم دوليًا، والسعي لدس ذلك التشويه لا للمواطن الغربي فحسب، بل للمواطن المسلم؛ بحيث يُصبح أكثر ترددًا في مقاومة أي عدوان مستقبلي على بلاده؛ خوفًا من وصمه بالإرهاب.

أما عنصر "الرسالة" فهو الأخطر على المستعمر، فصحيح أن فكرة "الفتوحات" لا مجال لها في عالم اليوم، إلا أن "الفتح" لا يكون بالضرورة عسكريًا؛ فالأفكار تتناقل من عقل لآخر خاصة مع ثورة وسائط تناقل الأفكار والمعلومات والمبادئ، والإسلام بالذات أثبت تاريخيًا قدرة عالية على الانتشار بغير وجود مؤسسات تبشيرية راعية له، فضلًا عن أن التأثر ببعض أو كل المحتويات الفكرية الإسلامية لا يتطلب بالضرورة اعتناقه كدين. هذه مسألة تقلق من لديهم أطماع للسيطرة أو الاستعمار (وأنا أعني بالاستعمار ذلك المادي الحربي المباشر وأيضًا المعنوي غير المباشر كالغزو الثقافي مثلًا) فأولًا قد يجد بين بني مجتمعه من يتعاطفون مع القضايا التحررية الإسلامية، مما قد يساهم في تكوين قوى ضغط مدنية مؤثرة عليه وعلى مشروعاته، فضلًا عن تقوية فرص ظهور "لوبي إسلامي" على الساحة أسوة بذلك اليهودي. وثانيًا فإن المكوّنات الفكرية المعنوية للإسلام تتعارض تمامًا مع الاتجاهات البراجماتية المادية الجافة للمؤسسات السياسية والتجارية الكبرى، مما يعني ضرورة خلق "حاجز معنوي" ضد كل ما هو إسلامي لضمان عدم تأثر "الجماهير الغفيرة" التي يسعى الساسة لترويضها من خلال الإعلام. إذن فالمطلوب تحويل الإسلام إلى "بعبع"، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى السعي لتحويل وضع الإسلام في البلدان الإسلامية إلى وضع من اثنين: دين بلا دولة، أو دولة بلا دين. فإما أن يكون دينًا مشتتًا لا تجمعه روابط سياسية، أو أن تكون بلدانه بلدانًا مغرقة في العلمانية المطلقة، والدين بالنسبة لها مجرد مكوّن ثقافي قديم مندثر، يُمارس البعض طقوسه على سبيل "الفولكلور".



الحقيقة المؤلمة

ربما يبدو للبعض أني أبالغ في تصوير قدرة المؤسسات الاستعمارية -سياسية واقتصادية- على نشر الإسلاموفوبيا بين أهل الغرب، ربما لإيمان القارئ أن المواطن الغربي مواطن حر لا أحد يحكم عقله. والحقيقة أن فكرة "مواطن حر" لا تزال بعيدة نوعًا عن التحقق، ففي هذا العالم من لا تحكمه حكومة بوليسية بالعصا تحكمه حكومة ذكية بالصحافة والتليفزيون والسينما. صحيح أن العالم الغربي به تيار قوي يدعو للتعرُّف السليم على الآخر -والآخر هنا هو الإسلام- إلا أن ذلك التيار يقف وحيدًا في مواجهة المستفيدين من انتشار الإسلاموفوبيا: مؤسسات الطاقة وتجارة السلاح والحكومات الاستعمارية والمؤسسات الإعلامية الحليفة... أي أنها معركة -حتى الآن- غير متكافئة، بين أصحاب الضمير والمبادئ، وأصحاب الدولار واليورو!



مصادر المعلومات:

1 – عصر الجماهير الغفيرة: د. جلال أمين.

2 – عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

3 – حضارة العرب: جوستاف لوبون.

4 – شمس العرب تسطع على الغرب: د. زيجريد هونكه.

5 – الفتوحات العربية الكبرى: هيو كينيدي.

6 – المسلمون وأوروبا: د. قاسم عبده قاسم.

7 – تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان.

8 – الإسلام في عيون غربية: د. محمد عمارة.

9 – تاريخ العرب الحديث: د. رأفت الشيخ.

10 – بلاكووتر: جيرمي سكيل.

11 – جواسيس جدعون: جوردون توماس.

12 – لماذا تقتل يا زيد؟: د. يورجين تودينهوفر.

13 – الفرق والجماعات الدينية: د. سعيد مراد.

14 – تيارات الفكر الإسلامي: د. محمد عمارة.

15 – تاريخنا المفترى عليه: د. يوسف القرضاوي.

16 – الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

17 – مسلمون ثوار: د. محمد عمارة.

18 – البداية والنهاية: ابن كثير.



(٥)

عندما تجد نفسك هدفًا لصفعات خصومك، لك الحق أن توجّه غضبك عليهم، وأن تراهم معتدين وتسعى لردعهم ولوقف إيذائهم.

ولكن أليست البداية الأكثر واقعية هي أن تغضب على نفسك؛ لأنك أنت من توفَّرت عندك أسباب تشجيعهم على فعل ذلك بك؟!

وأن تبحث عن الحل عندك لا عندهم؟

وبداية الحل... أن نضع أيدينا على مواطن العلل:

الجذع الأجوف

لو أنك تريد تحطيم جذع شجرة شديد الصلابة والسُمك، فما هي أفضل طريقة لتحقيق ذلك؟ مهما كانت قوة بلطتك ومنشارك فلا شيء أقوى من أن تمتلك ما يمكنه التوصُّل لقلب هذا الجذع وإفراغه من محتواه أو العبث بما بداخله؛ بحيث يتحوَّل جذع الشجرة القوي إلى مجرد قشرة خارجية خادعة تنتظر أول هبة رياح متوسِّطة القوة لتحويلها لشظايا متطايرة مثيرة للشفقة.

هذا بالضبط ما يحاول الإسلاموفوبيك -ومن يستغلون الإسلاموفوبيا- فعله بالمجتمعات المسلمة، سواء كانت مجتمعات مسلمة بالأصل أو مجرد جاليات مغتربة أو أقليات من المواطنين بدول غير مسلمة. فهم -الإسلاموفوبيك- يسعون لتقويض



المحتوى الداخلي لتلك المجتمعات؛ بحيث تصبح صالحة للتشكيل وفق رؤيتهم أو قابلة للانهيار عند أول اختبار حقيقي.

فالتيارات الغربية الاستعمارية -الساعية لفرض "عولمتها" ورؤيتها الخاصة للعالم أحادي النمط والثقافة- تدرك أن المحتوى الحضاري الإسلامي شديد القوة بحُكم تنوُّع عناصره وعمق مكوِّناته. ولأن المستعمر يتعلَّم من تاريخ أسلافه، فقد تعلَّم تجّار الإسلاموفوبيا من التجربة الصليبية في الشرق، عندما جاءت الحملات الأوروبية بجيوشها وجحافلها وأجندتها لتغيير الشرق وتحويله لقطعة أرض كاثوليكية أوروبية وأقامت إماراتها في الشام، لتفاجأ بعد سنوات -ليست بالكثيرة في عمر الزمن- بأن المستعمرين المُفتَرَض بهم القيام بالتغيير هم من تغيَّروا وتأثَّروا بالثقافة العربية الإسلامية، حتى أن الأديب والسياسي "أسامة بن منقذ" -الذي عاصر الوجود الصليبي في الشرق- قد تحدَّث عن أن بعض الصليبيين يفخر بأنه لا يشرب الخمر ولا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير! وكذلك جرى للمغول الذين انتصروا على المسلمين في الشرق فقط ليدخلوا بعد ذلك في الإسلام، ويذوبوا في كيانه، ويعملوا على نشره في الهند وأفغانستان وروسيا رغم أن القضاء على ذلك الإسلام كان في أولوليات مخططاتهم.

ثمة حقيقة تاريخية واقعية إذن تقول إن الإسلام -ككيان ديني وثقافي- يمكنه إذا توافرت له أسباب القوة أن يمتص حتى المعتدي المنتصر عسكريًّا على المجتمع الإسلامي! إذن فالمطلوب من الراغب في استعمار المجتمعات الإسلامية ثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا أن يوجِّه أقوى ضرباته للمحتوى الإنساني للإسلام حتى لا ينقلب السحر على الساحر.

المشكلة المثيرة للضيق أن معظم المتعاونين مع ذلك المخطط الموجَّه ضد الإسلام هم بالفعل من أبناء المجتمعات الإسلامية، سواء من المندفعين للسباحة في تيار التغريب المفرط المتجاهل لحقيقة أن ليس كل شيء يصلح لكل مجتمع، أو من المتطرفين الذين يلعبون دور فتيل الفتنة الوطنية والطائفية التي يستغلها الإسلاموفوبيك كدليل اتهام للإسلام بأنه دين مدمر للأمن الاجتماعي، أو من المتعاملين مع المحتويات الحضارية والدينية للإسلام باعتبارها "أمورًا تدعم الرجعية وتعود بنا للخلف 1400 عام"، والمؤلم أن أغلب هؤلاء يؤمنون بأفكارهم تلك لحد التطرُّف والاندفاع مما ينذر يومًا ما بكارثة صدام داخلي عنيف كفيل بتدمير كل شيء، نشهد حاليًا نُذُره.



ألا يكون لنا "كبير"

المثل الشعبي يقول: "من ليس له كبير يشتري له كبيرًا". ومشكلة المسلمين في العالم أن ليس لهم كبار تتفق عليهم الأمة يتحدَّثون باسم المسلمين ويردُّون عنهم ويُمثِّلونهم في المحافل الدولية. لدينا علماء كبار ومفكرون عظماء، ولكن ليست لدينا تنظيمات فاعلة تدير شئوننا الدينية وتفصل بين نزاعات مذاهبنا وتياراتنا وتتوحد خلفها صفوفنا، فالأزهر -منارة الإسلام سابقًا- مؤمَّم مُسَيَّس والثقة الشعبية به مهتزة بشدة، والمؤسسة الدينية السعودية التي تحاول الظهور بمظهر حصن الإسلام الأخير محجمة لصالح مصالح النظام السعودي الحاكم، ومنظمة المؤتمر الإسلامي لا تملك أدوات الضغط السياسي لصون حق الإسلام والمسلمين في مواجهة الاعتداءات والافتراءات، وهيئات علماء المسلمين -مع احترامي- مجرد جهات استشارية تقدِّم التوصيات، ولكن قراراتها لا تملك القوة الملزمة باحترامها..

صحيح أن الإسلام ليس به "مجلس كهنوت" أو "رجال دين"، ولكني أتحدَّث هنا عن "التنظيم والتنسيق والتوحيد للمواقف الإسلامية"، أتحدَّث عن جهة محترمة تتولَّى هي البحث والفتوى والفصل بين النزاعات الإسلامية -المادية والمعنوية- والتعامل مع الإساءات الخارجية للإسلام ورموزه، وتكون مسئولة عن إعطاء هذا العالم أو ذاك حق الإفتاء أو منعه منه، تمامًا كما تفعل أية نقابة درجة عاشرة تحترم نفسها في أية دولة منسية بالعالم الثالث! هل هذا كثير؟ أليس هذا مما يرحمنا من فوضى الفتاوى و"المتاجرين" بالدين هنا وهناك؟

إن أناسًا يشوِّهون الإسلام والمسلمين -مثل أسامة بن لادن وأيمن الظواهري- لم يكونوا ليحققوا أجندة المستفيدين من ذلك لو كان للمسلمين هيئة فتوى جماعية تضم علماء كافة المذاهب، وتُخرِج الفتوى الفاصلة في مسألة الجهاد. وفتاوى مستفزة كفتوى إهدار دم "ميكي ماوس" ما كانت لتجد لها صداها المُبالَغ في أمره لو كانت للمشتغلين بالفتوى رابطة علمية منظمة تملك أدوات معاقبة من يتصدى للفتوى بغير علم أو يخالف قواعدها ونظمها، سواء كان العقاب معنويًا أو مرتبطًا بالتشريعات الجنائية للدول الإسلامية، أسوة لما يحدث مع أصحاب المهن الطبية والهندسية والتجارية وغيرها.

المشكلة أن المؤسسات الدينية فَقَدَت استقلاليتها، فأصبح العلماء مقيَّدين، بعكس ما كانت عليه قديمًا عندما كان فقهاء المسلمين أكثر فاعلية وإيجابية فيما يخص قضايا



الأمة، ودعونا لا ننسى دور هؤلاء الفقهاء في التصدِّي للتحديات الخطرة للأمة؛ فأبو حامد الغزالي لعب دورًا كبيرًا في الرد على فرقة "الحشاشين" المارقة عن الإسلام، والفقيه "الهروي" أطلق نداء الجهاد من بغداد ضد الصليبيين بعد اقتحامهم القدس، والعز بن عبد السلام شارك في إشعال جذوة المقاومة ضد الخطر المغولي وعضد جهود المماليك لأجل ذلك، وتقي الدين بن تيمية كان في مقدِّمة جيوش مصر المملوكية المدافعة عن الشام ضد عدوان أمراء المغول الذين كانوا قد أسلموا ولكنهم لم يفقدوا طبيعتهم الهمجية المدمِّرة.

ولا ننسى دور علماء الأزهر في مقاومة الحملة الفرنسية، ثم بعد ذلك في خلع الولاة الأتراك الطغاة وتنصيب محمد علي باشا –مؤسس مصر الحديثة– على رأس الدولة، وحتى دورهم الإيجابي خلال ثورة 1919 وحفاظهم على وحدة الصف المصري ودفاعهم مع إخوانهم المسيحيين عن الوحدة الوطنية.

أين ذهب كل هذا؟ إن غياب هذه الهيئات العملاقة يترك حبل المسلمين على الغارب، ويجعل كتلتهم البشرية ممزقة صالحة للاستخدام من قِبَل أعداء الإسلام ضده، فبدلًا من أن تكون قوة بشرية فاعلة تضيف الجديد للحضارة الإنسانية، وتجعل العالم يشعر بقيمتها ويجد نفسه مجبرًا على معاملتها كندٍّ له، على العكس يسهل مهمة الإسلاموفوبيك ويجعل لافتراءاتهم مصداقية كبيرة.

هناك حالة انفصال تام بين الأنظمة الحاكمة في الدول الإسلامية والمؤسسات الدينية فيما ينبغي أن يكون فيه ارتباط –كوحدة الموقف السياسي– وفي المقابل توجد حالة تبعية مفرطة من كبريات تلك المؤسسات فيما ينبغي أن يكون فيه انفصال واستقلالية، كحرية المؤسسة الدينية في اختيار قياداتها وتنظيم شئونها! وهذا مما يزيد الطين بلة ويجعل عمل تلك المؤسسات معطلًا وطاقاتها مهدرة.

الخيبة

يثير غيظي تهليلنا الطويل؛ لأن فلانًا أو علانًا من رموز السياسة والثقافة في الغرب مدح الإسلام. صحيح أن شهادة الحق تستحق التحية، ولكن ماذا بعد؟ لماذا لا يُحسن استغلال تلك التيارات الإيجابية لخلق لوبي إسلامي قوي في الخارج أُسوة بذلك اليهودي والآخر اليميني المسيحي؟ ما قيمة وجود تجمعات بشرية إسلامية ضخمة في الغرب لو لم يلعب أفرادها –بالذات المتجنسين بجنسيات مهجرهم– دورًا إيجابيًا موحدًا في خدمة

المصالح المشروعة للمسلمين في أن يُحترَموا كأصحاب دين معترف به، وأن يكون لهم مكان مقبول على ساحة العمل الحضاري بمختلف مجالاته؟

إننا عندما نكون أهل دين أثبت رقيّه على مدى 1400 سنة، وحضارة أخذت موقعها المتميز على مدى 800 سنة، وأصحاب كتلة عددية تزيد على المليار وتنتشر في مختلف بقاع الأرض، ومعنا تيار غربي محايد يحترم ديننا ويُقدِّره، ثم بعد ذلك نجلس ونندب حالنا ونشكو العالم الظالم الذي يفتري علينا ولا يفهمنا، ونهرول هنا وهناك في مذلة لنستجدي الآخرين أن يحسنوا الظن بنا... فهذا هو الوصف الدقيق الكامل لتعبير "الخيبة الثقيلة"!

الخلاصة

الإسلاموفوبيا محض افتراء، ومجرد مرض نفسي وفكري، ولكن دعونا نعترف بحقيقية مؤلمة هي أننا إن بقينا علي حالنا هذا عبئًا على الجنس البشري، و لم نأخذ من الإسلام سوى الفخر به دون أن نُفكِر ولو مرة واحدة في أن نجعله هو من يفخر بنا.

إن الرجل الغربي البسيط حين ينظر إلى الرجل المسلم البسيط فيجده شخصية سلبية، يأكل ويشرب وينام ويعيش بلا هدف ولا طموح، ويقاد كما يقاد الغنم في القطيع ثم يتفاخر بإسلامه، فبالتأكيد سيقرر هذا الغربي أن ثمة علاقة سببية بين الإسلام وذلك الوضع المهين... وهنا سيتحوّل الإسلاموفوبيا إلى حقيقة لها أسانيدها المنطقية! ولن يمكن لأي منا أن يقول إنها مرض نفسي أو وهم أو افتراء من بعض أصحاب المصالح!



مصادر المعلومات:

1 - الإسلام في عيون غربية: د. محمد عمارة.

2 - فقهاء الشام في مواجهة الغزو الصليبي: د. جمال محمد سالم عريكيز.

3 - المسلمون وأوروبا: د. قاسم عبده قاسم.

4 - عصر التشهير بالعرب والمسلمين: د. جلال أمين.

5 - التنوير الزائف: د. جلال أمين.

6 - تزييف الوعي: فهمي هويدي.

7 - المفترون: فهمي هويدي.

8 - الخطر الإسلامي خرافة أم حقيقة: جون ل. إسبوزيتو.

9 - ماهية الحروب الصليبية: د. قاسم عبده قاسم.

10 - كتاب الاعتبار: أسامة بن منقذ.

11 - الاستيطان الصليبي في فلسطين: يوشع براور.

12 - الدولة العثمانية: د. محمد سهيل طقوش.

13 - الحروب الصليبية كما رآها العرب: أمين معلوف.

14 - الحشيشية: برنارد لويس.

15 - البداية والنهاية: ابن كثير.

16 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي.

17 - القرآن والسلطان: فهمي هويدي.

18 - مسلمون ثوار: د. محمد عمارة.

تم بحمد الله



المحتويات



"هناك محاولة للوصول إلى منهج في عرض التاريخ يجمع بين الفن والدقة، وهناك الكثير من الجهد والعرق والتنقيب في المراجع وأمهات الكتب. والحقيقة هي أنني أحتفظ بمعظم هذه المقالات على جهاز الكمبيوتر الخاص بي، لأرجع إليها من آن إلى آخر"

د. أحمد خالد توفيق

"أن تجد في هذا الزمن الذي يحب الاستسهال كاتبًا يلجأ إلى الطريق الصعب فهذا أمر يستحق الاحتفاء به ويستحق أن نحييه"

بلال فضل



تخيل معي أنك تسير في طريقك لشأن من شئونك فسمعت استغاثة إنسان يناديك أن تساعده لإخراج شخص محبوس ظلمًا خلف جدران سميكة تحجب عنه النور والهواء، ماذا تفعل؟ من المؤكد أنك لن ترضى بحاله وستبذل ما لديك من قدرة لإخراجه إلى حقه المشروع في الحرية.. من الأكثر تأكيدًا أنك بعد ذلك سترضي فضولك في سؤاله عمّا أوصله لتلك الحال..

هذا بالضبط شأني مع التاريخ.. فكلما توغلت معه في طرقاته الكثيرة المتشابكة وجدته يستوقفني أمام بعض أبوابه ويستحثني أن أساعده في فتحها وإخراج مَن هم خلفها من أهم موضوعاته التي تعاني السجن والظلام.. وتلقائيًا كنتُ أجدني أنفذ ما أمرني به، ثم بعد ذلك أعطي فضولي حقه المشروع في معرفة ماهية تلك الموضوعات وما جعلها تُظلم فتُحبَس عنّا، ونُظلم فنجهل بها..

"تاريخ في الظل" هو جزء من محصلة تلك الرحلة المثيرة التي يزداد خلالها يقيني كل يوم منها أن ما نجهل عن تاريخنا وعن أنفسنا أكثر بكثير مما نعرف... وأنا أدعوك لمشاركتي إخراج تلك الموضوعات التاريخية المثيرة حبيسة الظل من سجنها والتعرف عليها..



عن الكاتب



تصميم الغلاف أحمد مراد

وليد فكري، كاتب مصري سكندري من مواليد ١٩٨٠.. تخرج في كلية الحقوق - جامعة الإسكندرية.

تفرغ للكتابة وهو يكتب بمجلة "بص وطل" الإلكترونية منذ بداية عام ٢٠٠٩ وحتى لحظة كتابة هذه السطور. كما يمارس البحث التاريخي بصورة حرة. يكتب في مجالات أخرى كالشأن السياسي الداخلي، والشأنين الإيراني والإسرائيلي. صدر كتابه الأول "تاريخ شكل تاني" في ٢٠١٠

